عبد الرحمن الخميسى

القديس .. الصعلوك

يوسف الشريف



عبدالرحمن الخميسى

القديس الصعلوك

تأليف: يوسف الشريف

عبدالرحمن الخميسى

القديس الصعلوك

تأليف

يوسف الشريف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

الإخراج الفنى

مادلين أيوب

إهـــداء

إلى صـديقى الكاتب الأديب الدكـتـور أحـمـد الخـمـيـسى.. الذى يذكرنى الخالق الناطق بوالده، شكلاً وصوتاً وإبداعاً وشمائل، ويفوقه انضباطاً.. فإليه خالص الامتنان والتقدير على إحاطتى بما غاب عنى من وقائع هامة فى سيرة حياة القديس، كان لها فضل إثراء مادة هذا الكتاب.

المؤلـف

وعاد الخميسى!

بقلم : محمود السعدنى

لا أستطيع أن أحدد الوقت على وجه الدقة، ولكنها كانت ليلة باردة قبل حرب فلسطين، ربما فى شتاء عام ١٩٤٧ . كنت أجلس على قهوة محمد عبد الله بميدان الجيزة مع عدد من كبار الأدباء، أنور المعداوى والدكتور عبد القادر القط وزكريا الحجاوى والشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل والشيخ قطامش المحامى الشرعى، وكانت له علاقة بالأدب، باعتباره صديق زكريا الحجاوى وأنور المعداوى وعبدالحميد الديب، وفجأة وجدت الجميع يقفون للترحيب برجل شاب على مشارف الأربعين، كان وسيماً وأنيقاً صافح الجميع، ثم احتضن زكريا الحجاوى وتبادلا العناق والقبلات، ثم جلس وسط حلقة ضربها الأدباء حوله، كان صوته دافئاً وعميقاً، وراح يتحدث بلا انقطاع، وكان حديثه عن حرب فلسطين وشعبها وأبطالها، وعن المعارك التى تدور فى أرجائها.. بينهم وبين اليهود. ثم توقف حديث السياسة ثم طلبوا منه أن يسمعهم آخر قصائده، ثم راح ينشد شعره وهو يعتصر الكلمات من قلبه، بينما كان يهز رأسه ويرعش حاجبيه وكأنه يغنى. إذن القادم الجديد شاعر وأنا الذى تصورت أنه ضابط

مقاتل عندما انهمك في الحديث عن معارك العرب في فلسطين. ومن خلال الحوار اكتشفت أن الرجل اسمه الخميسى، هذا إذن هو عبدالرحمن الخميسى، وكنت قد سمعت عنه حكايات ونوادر من الحجاوى ومن المعداوى ومن كامل الشناوى. ومضى الوقت سريعاً وأخذ الأدباء المجتمعون ينصرفون، انصرف أولاً أنور المعداوى ثم تبعه الدكتور عبد القادر القط ثم الشاعر محمود حسن إسماعيل ثم الشيخ قطامش، ولم يبق على القهوة إلا زكريا الحجاوى وأنا. كنت في شرخ الشباب ولم أكن مشغولاً بأى شيء، في الخامسة صباحاً اعتذر الحجاوى وانصرف وبقيت وحدى مع الخميسى، في السابعة صباحاً اعتذرت لأنصرف، سألنى الخميسى: وراك إيه؟ قلت له: بصراحة مفيش حاجة، لكن عشان أنام وأسيبك تنام إنت راخر، فرد: أنا ما بنامشى يا بنى، بكرة هـ ننام كتير، خليك معايا أنا نفسى آكل شوية فول من عند أبو ظريفة، ما تيجى معايا. لم أعلق بكلمة ولكنى سرت معه على الفور، في دكان أبو ظريفة جلست أنا والخميسى في مواجهة كل منا الآخر. خلع نظارته وراح يمسح زجاجها ثم قال لى بلهجة أخوية: .. عارف يا واد يا محمود، وأنا قدك كده كان نفسى آكل عند أبو ظريفة كل يوم، بس ما كانش فيه فلوس. أنا أصلى دخت كتير في البلد دى، في الوقت اللى كان فيه أدباء من بتوع الأزهر راكبين عربيات ولابسين بلاطى وبيشربوا سجاير أمريكانى. أرعشت حاجبى دهشة، لقد كان الخميسى لحظة هذا الحديث يرتدى بدلة حرير وكرافتة فرنساوى وحذاء إيطالى، ولو قال للعبد لله إنه ابن بيه وحفيد باشا لصدقته. ولكن صراحته المتناهية، وتعرية نفسه للعبد لله هدمت كل السدود التى بينه وبينى. تمنيت لو كان

الخميسى يعيش فى القاهرة وألتقى به كل يوم، ولكن لسوء الحظ أن الخميسى كان يعمل فى إذاعة الشرق الأدنى ومقرها حيفا وكان يسكن فى تل أبيب. وكان يزامله فى العمل سامى داود وعميد الإمام والشيخ فريد السنديونى وسليم اللوزى وعبدالمجيد أبو لبن ومحمد الغصين.

المهم أننى لازمت الخميسى طوال النهار وذهبنا إلى الحسين، ثم اصطحبنى إلى فندق شبرد القديم، وكانت المرة الأولى التى أدخله كزبون. وتناولنا طعام الغداء معاً، ثم تركته فى المغرب على وعد باللقاء فى الليل. وفى الليل اجتمعنا فى قهوة عبد الله، وفى الصباح الباكر غادرنا إلى محطة مصر ليركب القطار إلى فلسطين. وذهبت معه إلى المحطة وركب الخميسى ومعه تذكرة القاهرة - القدس. وعندما تحرك القطار رفع يده لى بالتحية ولوحت له أنا الآخر، ووجدت عينى تذرف دمعة على فراق الخميسى الذى لم أصادفه إلا منذ الأمس. ومرت الأيام سريعاً وضاعت فلسطين، واضطرت إذاعة الشرق الأدنى إلى النزوح من فلسطين إلى قبرص، وعاد الخميسى إلى القاهرة ليجرب حظه فى صحافة مصر، وبقدر ما حزنت على فراق الخميسى، حزنت أيضاً على عودته. والسبب أنه عرفنى بأخ فلسطينى هو عبد المجيد أبو لبن كان مسئولاً عن الدراما فى الإذاعة، وأوصاه بى خيراً، وقال: السعدنى ده قلم جديد وبيكتب كوميدى بشكل مختلف.. وكلفنى عبد المجيد أبو لبن بكتابة تمثيليات ضاحكة وأرشدنى إلى الطريقة التى يكتب بها البرنامج ومساحته. وجلست بالفعل وكتبت ٤ تمثيليات وأرسلتها بالبريد إلى الإذاعة. وتلقيت خطاباً بعد أسبوعين من قسم الحسابات فى الإذاعة يطلب منى الذهاب إلى بنك باركليز الكائن بشارع أبو السباع

القريب من شارع الشريفين بالقاهرة، ووقفت أمام شباك الصراف وقلت له: ... أنا محمود السعدنى وأنتظر مبلغاً من إذاعة الشرق الأدنى، وأبرزت له الخطاب، ألقى الموظف عليه نظرة ثم فتح درجاً وأخرج رزمة فلوس ثم قدم لى كشفاً وقال: امضى هنا، ووقعت له فى المكان الذى حدده. وناولنى الرجل كبشة فلوس دسستها فى جيبى وانصرفت. وعندما اختليت بنفسى ورحت أعد النقود اكتشفت أنها ١٦٠ جنيهاً مصرياً، وكانت المرة الأولى التى أضع مبلغاً مثل هذا فى جيبى. إذن عودة الخميسى تعنى أننى فقدت هذا المورد الذى كان أشبه بالكنز. ولكن تغور الفلوس فى ستين داهية، ومرحباً بالخميسى فى القاهرة. تذكرت هذا اللقاء المبكر بالخميسى وأنا أتصفح كتاب يوسف الشريف عن الخميسى، والحق أقول أن يوسف الشريف نجح فى أن ينفخ الروح فى ذكرى الخميسى فانتصب واقفاً بشحمه ولحمه أمامى، وجلست معه عبر صفحات الكتاب أحاوره ويحاورنى. ولم يترك يوسف الشريف شاردة أو واردة عن الخميسى إلا وتوقف عندها، أحياناً يتوقف بإلحاح، وأحياناً يمر مرور الكرام. يكفى الخميسى أنه هو الذى مهد الطريق أمام يوسف إدريس وأمام سعاد حسنى ومحرم فؤاد والشاعر الشرنوبى الذى مات فى ريعان الشباب تحت عجلات قطار فى طريقه إلى دمنهور. يكفى الخميسى أنه تعلم الفن فى مدرسة أحمد المسيرى أحد العبقريات المصرية التى اختفت تحت أنقاض الزمن، بينما برزت مواهب أخرى لم يكن لها ثقل فى الميزان. صحيح أن الخميسى نام فى حدائق القاهرة ولكنه أيضاً نام فى أفخر أحيائها وفى أفخم شققها. وعاش حياته كلها فى قصص حب متصلة، فقد كان الخميسى محباً على

وزن نائباً عاماً.. وكأن الشاعر العربى كان يقصده حين قال (أدين بدين الحب أنّا توجهت ركائبه فالحب دينى ودينى) وبنفس الأسلوب صادق الأثرياء وصادق الفقراء، واشتغل بالسياسة وعاملها معاملة الأدب، أعطاها نفسه وقلبه وعقله، مع أنه كان فى غنى عن هذا السلوك الذى خصم من رصيده ولم يضف إليه شيئاً.. ولو سار الخميسى فى طريقه كشاعر رومانسى لخلده التاريخ كواحد من العمالقة، رأسه برأس على محمود طه وإبراهيم ناجى وكامل الشناوى. ولكن السياسة أفسدت حياة الخميسى واعترضت مستقبله، فلم يخلق الخميسى للنوم فى الزنازين المغلقة ولا للحياة فى السجون القذرة. وفى نهاية حياته ضيعته فعاش غريباً فى المنفى ومات وحيداً وبعيداً عن الأحبة والأصدقاء. ولقد رأيته آخر مرة فى بغداد، كان عجوزاً ووحيداً ومسافراً بلا متاع. وكان قد جاء إلى بغداد من الكويت، ونزل بغداد لبضع ساعات، وكنت محظوظاً لأنه اختارنى لأكون محطته الأخيرة قبل السفر إلى موسكو. ولم أر الخميسى بعد ذلك، وعندما وقفت فى مطار بغداد فى الصباح أودعه، ذرفت عينى دمعة كبيرة شبيهة بتلك الدمعة التى ذرفتها حزناً على فراقه وهو فى طريقه إلى فلسطين، ولكن ما أبعد الفارق بين الدمعة الأولى والدمعة الأخيرة.. الأولى كانت دمعة على فراق صديق تعرفت عليه منذ ساعات وها هى الظروف حكمت بأن أفقده. أما الثانية فكانت دمعة فراق لصديق فى نهاية الطريق، وقضت الظروف أن أفقده الآن إلى الأبد. كان الخميسى فى نهاية الطريق وكان العبد لله يقتفى أثره، كانت دمعته حزناً عليه وعلى نفسى أيضاً.

رحم الله الخميسى، وشكراً ليوسف الشريف لأنه أعاده إلينا فى كتاب!

مصر وعهدها بظرفاء ذلك الزمان

برحيل الشاعر الكبير كامل الشناوى عام ١٩٦٥، أحسب أن عصر الظرفاء أدبر ولن يعود كما كان بعوالمه الزاخرة وزخمه الوجدانى الاجتماعى الحميم، بعدما انفرط عقدهم تباعاً من أمثال حفنى محمود باشا قطب حزب الأحرار الدستورى وزيرالمواصلات الأسبق، والشيخ أحمد العسكرى الصحفى بالأهرام، والشيخ عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى، وفنان الشعب زكريا الحجاوى، والشاعر الغنائى مأمون الشناوى، والشاعر محمد مصطفى حمام، والشاعر طاهر أبو فاشا، والمحامى الأديب عباس الأسوانى، وموضوع هذا الكتاب شاعرنا الفنان الشامل عبد الرحمن الخميسى و.. غيرهم كثيرون ممن طاولوا قامتهم فى شتى ربوع مصر المسكونة منذ الأزل بروح السخرية والدعابة وألوان الفكاهة وخاصة النكتة، كونها أمضى أسلحة الشعب الموروثة فى مواجهة الغزاة والمستعمرين واستبداد الحكام والمستوزرين ومن على شاكلتهم، وكذا قهر الأحزان والتخفف من مصاعب الحياة، فكان من الطبيعى إذن ظهور أجيال من المتفكهين والظرفاء تباعاً على مر العصور، وأن يتفوق بعضهم على جمعهم فى النهج والأسلوب، وهكذا قدر

لعبد الرحمن الخميسى أن يتألق ويحقق شهرته كظريف مطبوع وسط أقرانه ومعاصريه من فحول الظرفاء فى آخر عهد القاهرة بتلك الظاهرة الوجدانية المندثرة.

كان عصراً متوهجاً بالفرح والضحكات التى تفصح عن سرور القلب، بالسهر والشجن والصحبة الحلوة والدفء الإنسانى الغامر، وكان ظريف ذلك الزمان عصامى الثقافة مستور الحال فى أغلب الأحوال، وإفرازاً ذهنياً تلقائياً لتراكم خبراته الإنسانية ومعاناته الشخصية وتقلباته الحياتية وملكاته الإبداعية، وتعبيراً فى نفس الوقت عما يعتمل فى أحشاء المجتمع من تناقضات اجتماعية وسياسية، وعلى عهدى بظرفاء ذلك الزمان أنهم كانت تجمع بينهم قواسم مشتركة من صفاء النفس والعفو عند المقدرة والذكاء الفطرى وحضور البديهة وعشق الجمال أينما كان، وكانوا جميعاً من أذكى خلق الله وأفهمهم بطبائع البشر، وقد حباهم الله جاذبية مغناطيسية تجمع حولهم الناس طوعاً لإشباع نهمهم للحبور والمسرات وإثراء وجدانهم وعقولهم عبر الاستمتاع بحديثهم الآسر ومساجلاتهم الثقافية، فما أن يمسك أحدهم بطرف الحديث حتى يسترسل فى الحكى دون كلل أو إملال سامعيه وكأن على رؤوسهم الطير، إلى أن ينجح غيره من الظرفاء الحكائين فى التقاط الحديث بغتة من آخر اطرافه وبزه بما هو أكثر إثارة وإمتاعاً، ومن هنا شاع عهدئذ وصف الظريف الحكاء بالكلامنجى، ومجالس الظرفاء الحكائين بالمكلمات ومفردها مكلمة!

بالقياس مع الفارق كان البعض من ظرفاء ذلك الزمان أشبه بما يرويه التاريخ من سير الشعراء الصعاليك النبلاء، أو بأصحاب العقائد والمدارس

الفكرية والثقافية فى علاقتهم بتلاميذهم، وبالرابطة الوجدانية بين نجوم الطرب والمشايخ (الصيتية) والمتيمين بأصواتهم الجميلة، يصحبهم الفرح والأنس والحبور أينما ذهبوا وحطوا رحالهم، فكانت لياليهم ومنتدياتهم ومقاهيهم الخاصة تسع الخاصة وحدهم، وأما المفتوحة فكانت تسع الخاصة والعامة وحتى الرواد المتطفلين، فإن كانوا من الأنماط البشريه المتميزة فى غرابة أطوارها أو من المغيبين عن الوعى فعلى الرحب والسعة، إذا كانوا مادة للسخرية والفكاهة وإثارة الصراع بين الوعى واللاوعى، وفى كل الأحوال كان ظرفاء ذلك الزمان يفسحون مكاناً من منتدياتهم ومساحة من مساجلاتهم للبراعم الواعدة من الظرفاء والحكائين والمبدعين فى دروب الأدب والفن والثقافة!

لكن لأن الزمن صنو التاريخ لا يكرر نفسه، يبدو أن الغلاء والظروف المعيشية الصعبة واتساع الهوة بين الطبقات وفئات المجتمع، وإيقاع الحياة الصاخبة المتسارعة، وافتقار العلاقات المجتمعية لسابق حميميتها، لكأن هذه المتغيرات تكاتفت جميعها على إفساد البيئة الوجدانية التى كان الظرفاء يولدون فى رحمها ويتألقون فى أجوائها، فلم نعد نرى أو نسمع سوى أصحاب النكتة العابرة المنقولة عن الغير، وربما التريقة على عباد الله، وتلاشت تدريجياً صالونات ومنتديات ومقاهى الظرفاء، إثر ارتفاع أسعار المشاريب وظاهرة المنيمم تشارج وتصاعد أزمة المواصلات وحدة الزحام والضجيج، وانتشار التليفزيونات والفيديو والدش بالتزامن مع تكالب الناس على سد الفجوة بين الدخول والاحتياجات المعيشية عبر الوظيفة الثانية وربما الثالثة، فكان من الطبيعى إذن أن يتخلى المصريون عن عشقهم للمّة ولقاء

الأحباب والأصحاب وولعهم بالسهر والمؤانسة، والحرص على احتفاليات السمـاع للظرفاء والحكائين والشعراء والمقرئين والمطربين.. ولعل هذه الفذلكة المعرفية المدخل المناسب للإحاطة بزمان الشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى وسبر أغوار حكايته العجيبة!

جانب آخر وراء اهتمامى بالكتابة والتسجيل — ولا أقول التأريخ — لزمن الظرفاء. ولعلى لا أتجاوز الحقيقة حين أدعى أن ثمة نقصاً ثقافياً معيباً فى الكم الهائل من الكتب والمؤلفات والدراسات الأدبية التى تطالعنا بها دور النشر، وهو نقص ذو شقين:

النقص الأول: ويكمن فى افتقارها إلى السير الذاتية للأعلام والرواد رغم أهميتها المعرفية، باعتبارها تجارب إنسانية وعملية غنية بالخبرات والدروس المستفادة والقدوة الحسنة، ومرجعية للعلاقة بين الحياة الخاصة لصاحب السيرة وبين عطائه وإبداعه، ومدى تأثره وانفعاله بالأجواء والظروف التى عايشها وعاشها، ورأيه ورؤيته للأوضاع والأحداث العامة خلال حياته كشاهد نابه على عصره.

هناك ولا شك الكثير من السير الذاتية للرواد والأعلام، لكن معظمها مكتوب بأقلام غيرهم، وغالباً بعد رحيل أصحابها. وربما كان صدودهم عن كتابتها فى حياتهم راجعاً إلى قيود ومحاذير التربية الشرقية فى مجتمعاتنا وقيمها المحافظة ودورها السلبى فى كبح جماح البوح الصادق بالأسرار والمواقف الشائكة التى قد تشينه أو تثير الخلافات والعداوات، بينما تتلاشى هذه المحاذير فى المجتمعات الديمقراطية الغربية، إذ نادراً ما يتخلف أحد مشاهير الكتاب والفنانين والسياسيين والعلماء والقادة العسكريين عن

القيام بهذه المهمة كواجب أدبى بل وطنى، وفاء للتاريخ والحقيقة والأجيال الجديدة وخاصة لمن ينتمون إلى مهنهم وتخصصاتهم، فضلاً عما تحققه كتب السير الذاتية من رواج وعائد مادى مجز فى هذه المجتمعات، وربما لذلك جاء احتفاء النقاد والمبدعين والقراء بالسيرة الذاتية الرائعة التى عكف الناقد الكبير الدكتور لويس عوض على كتابتها أخريات حياته، ونجحت إلى حد كبير فى إماطة اللثام عن كثير من الغموض والتساؤلات حول منابعه الفكرية وتوجهاته السياسية وأدق خصوصياته. ولعل هذا الاحتفاء والنجاح يشجع غيره من الرواد والأعلام والمشاهير على الاحتذاء به، فأول الغيث ـ كما يقولون ـ قطرة.

أما عن النقص الثقافى الثانى فيكمن فى الاهتمام بكتابة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى فحسب، دون أن يلفت التاريخ الوجدانى انتباه أحد من الكتاب والمؤرخين والباحثين، رغم ما لهذا النشاط الإنسانى من أهمية وفائدة للتعرف على الأحوال النفسية والمزاجية للأمم والشعوب فى حقبة تاريخية معينة أو عصر كامل، موصولة بأحوالها السياسية والاقتصادية ومساحات الحريات المكفولة للتعبير، وكيف ولماذا وعبر أية وسائل وآليات كانت تفصح عن سرورها وأحزانها وحماسها وإحباطها، رضاها وغضبها، ومدى إحساسها بالجمال أو القبح، وأسلوبها فى السخرية من مساخر الحياة.

وعلى سبيل المثال فقد اختلفت الحالة الوجدانية للمصريين إبان عصر الملكية والإقطاع والاستعمار، عنها إبان ثورة ٢٣ يوليو، ثم اختلفت اختلافاً بيناً فى حقبة الانفتاح بالتوازى مع المتغيرات السياسية والاقتصادية

والاجتماعية وإفرازاتها المعنوية والثقافية على نحو ما تشى به الأغانى الشبابية الحديثة من معان سوقية ودلالات هابطة، وكذا النكتة المصرية التى دأبت على السخرية من الغير فإذا بها تجنح إلى تبكيت الذات. وعلينا أن نتساءل: لماذا تلاشت ظاهرة منتديات ومقاهى المثقفين والمحدثين والظرفاء؟ وما سر انتشار ظاهرة تدخين الشيشة والفرجة على التليفزيون فى صمت مما لا يتيح مجالاً للحوار والتواصل الاجتماعى؟ وكيف نفسر انحسار رواد المسرح الجاد ورواج مسرح الغرائز والقفشات السطحية والقافية المبتذلة؟ ولماذا تلاشى فن المونولوج وكذلك التواشيح الدينية؟ ولماذا انحسرت أجيال الشوامخ من قراء القرآن الكريم منذ رحيل الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل والشيخ عبد الباسط عبد الصمد؟ ولماذا تسللت إلى آذان المصريين أشرطة المقرئين من غير المصريين؟. وحدث ولا حرج عن نفس الظاهرة الوجدانية السلبية التى خلفها رحيل أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ومحمد عبد المطلب، بل وصل الأمر إلى حد زحف فنانات الرقص الشرقى من روسيا وآسيا الوسطى وكندا واحتلالهن أماكن سامية جمال وتحية كاريوكا وزينات علوى فى النوادى الليلية وصالات الأفراح والأفلام السينمائية والمسارح إيذاناً بانسحاب المصداقية عن المثل الشعبى الذى يستبعد: بيع الميه فى حارة السقايين.

ومن عجب أن يحفل قدامى المؤرخين العرب برصد الحالة الوجدانية فى دمشق إبان حكم الأمويين وبغداد فى ظل الخلافة العباسية، والقاهرة فى عصر الفاطميين والأيوبيين أو فى عصر الخديوى إسماعيل، ووصفهم الدقيق للياليها وأنسها وشعراءها ومطربيها وظرفائها حين كانت طقوسها

المبهرة فى الأفراح والمسرات والليالى الملاح تجل عن الوصف والحصر، وكذا عناية المؤرخين الثقاة من أمثال الجبرتى وابن بطوطة وابن إياس بالوصف الدقيق والتحليل العميق لما كانت عليه الحالة الوجدانية فى العديد من الدول والشعوب العربية والإسلامية، ثم تلاشت تلك العناية وذلك الاهتمام تدريجياً فى عصور الانحطاط الحضارى التى سادها حكم المماليك والأتراك، حتى لا نكاد نجد الآن بين المؤلفات الحديثة سوى النادر من الكتب التى اقتصر دورها فحسب على جمع النكتة ، أو عرض لصحافة وأدب الفكاهة والمتفكهين وسير الشعراء والمطربين والظرفاء دون تحليل لمضامين تلك المظاهر الإبداعية وتوظيفها على النحو التأريخى الاجتماعى للصورة الكلية التى كانت عليها الأحوال الوجدانية المتباينة فى مصر خلال الحقب المختلفة على غرار كتاب وصف مصر الذى توافر على وضعه علماء الحملة الفرنسية، أو فيما طالعنا من نهج وأسلوب الكاتب الإنجليزى إدوارد لين عند تناوله لأحوال المصريين.

أذكر فى هذه المناسبة صديقة فنانة تشكيلية معروفة هوايتها جمع النكت العشوائية أو التلقائية المتداولة، حين فوجئت بها ذات يوم تعرض علىّ كراسة تتضمن زهاء مائة نكتة مدونة وصلت إلى سمعها تباعاً وتتناول أحوال الرئيس الراحل أنور السادات منذ لحظة إعلان نبأ وفاة الزعيم جمال عبد الناصر وتنصيبه رئيساً ورد فعله إزاء مظاهرات الطلبة وانتفاضة الجوعى واعتقاله زعامات ورموز مصر السياسية والفكرية والثقافية، ثم قراره التاريخى بشن الحرب ضد إسرائيل فى أكتوبر ١٩٧٣ ، نهاية بزيارته لإسرائيل وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد، و.. إلى ما بعد اغتياله.

ولو أن مؤرخاً أو باحثاً أو عالماً من علماء النفس أو الاجتماع توافر على تحليل مضمون هذه الحصيلة الثمينة من النكت، لكان هذا العمل إسهاماً في تأريخ الحالة الوجدانية والمعنوية للشعب المصرى خلال الحقبة الساداتية، لكن لا أحد يعنى بأهمية ومغزى النكتة رغم أنها الترمومتر الصادق لقياس درجات سخط وتذمر وسخرية الشعب المصرى ومدى رضاه وقناعته وسعادته وحبوره كما أنها أمضى أسلحته الذاتية الموروثة في مواجهة الظلم والجور وكبت الحريات كما أسلفنا.

ولعل هذه المقدمة المعرفية توضح جانباً من الدوافع والأهداف التى حفزتنى لوضع كتابى السابق آخر ظرفاء ذلك الزمان حول سيرة أستاذنا الشاعر الكبير كامل الشناوى وعطائه الوجدانى وزمانه الجميل. وهى نفس الدوافع والأهداف التى أملت علىّ وضع هذا الكتاب عن الفنان المبدع عبد الرحمن الخميسى، لتسليط الضوء على سيرة حياته العريضة الحافلة بالتجارب والإبداعات والتقلبات الحياتية المتشابكة التى لم يسعفه الوقت خلالها سوى كتابة شذرات منها عبر مقالاته وحوارات أجريت معه، وحيث وجدت من واجبى تسليط الضوء على دوره الثقافى والإنسانى العظيم على امتداد نصف قرن (من الثلاثينيات حتى الثمانينيات) وعطائه الوافر كواحد من أبرز الأعلام والرموز الثقافية المبدعة التى أسهمت فى تشكيل الضمير الوطنى وإثراء وجدانه والارتقاء بتذوقه لكل ما تزخر به الحياة من معانى الخير والحب والجمال.

فإن كان فى العمر والجهد ثمة بقية فالتحشد مطلوب وقائم للوفاء بالكتابة عن بقية حبات العقد الفريد ممن عاصروا عبد الرحمن الخميسى

وكامل الشناوى من عمالقة الظرفاء وصعاليك ذلك الزمان. لكن يظل المطلوب أشمل من مجرد كتاب أو أكثر، لأن العبء الأكبر والمطلوب يقع على كاهل الجامعات وكليات الآداب والاجتماع والعلوم السياسية تحديداً، وعبر توجيه الطلبة والمتقدمين لنيل الماجستير والدكتوراه لتضمينها جوانب التاريخ الوجدانى المصرى ورموزه ودورهم فى أطروحاتهم لسد هذا النقص المعرفى المعيب فى ثقافتنا.

على أننى بعد أن قرأت ما كتبته عن عبد الرحمن الخميسى فى مجلة روز اليوسف عام ١٩٩٠، ثم استقرائى لذاكرة أولاده وبناته ومعاصريه، وإعادة قراءة تراث إبداعاته، وكم الحوارات التى أجريت معه والمقالات التى تتناول أعماله، وجدت نفسى فى حيرة إزاء اختيار المنهج المناسب لوضع كتابى عنه، فهل أختار المنهج التاريخى أم الأدبى، أم العلمى، أم السياسى، أم النفسى؟ واستقر قرارى فى النهاية على منهجنا نحن أصدقاءه وتلاميذه وحوارييه كلما تحدثنا عنه: أعنى منهج الذكريات التى تعتمد السرد والحكى التى تتضمن كل تلك المناهج مجتمعة وتستحضر الشخص حياً أمامنا، فقد كان يرحمه الله سلسلة من الحكايات أشبه بالنوادر، كل حكاية تحمل معنى ودلالة خاصة ربما تتناقض مع غيرها، لكنها فى السياق العام متجانسة ومنسجمة مع واقع حياته العجيبة وتقلباتها المزاجية الأعجب.

والحقيقة أننى لا أكاد أعرف فى حياتى كلها مثيلاً ولاشبيهاً للشاعر الفنان عبد الرحمن الخميسى الذى رحل عن دنيانا مودعاً صغائرها ودناياها فى الأول من أبريل عام ١٩٨٧. تلك الشخصية الفريدة التى خلفت وراءها ذلك الكم الهائل من الذكريات الجميلة والإبداعات الرائعة فى شتى ميادين

الأدب والفن والإنسانيات، فقد كان يرحمه الله شاعراً فحلاً وكاتباً مرموقاً ومترجماً أميناً وقاصاً وروائياً ومؤلفاً مسرحياً وإذاعياً وسينمائياً وموسيقياً ومذيعاً ذا صوت ذهبى وممثلاً وصاحب مواقف مشهودة فى سجل النضال الوطنى، فضلاً عن كونه صعلوكاً أشر بالمعنى الجميل فى تراث شعراء الصعاليك العرب إبان العصرالجاهلى ومزواجاً ومغامراً ومتلافاً وبوهيمياً وأكولاً ومحدثاً ومهزاراً وراوية وسميراً وظريفاً لا يشق له غبار.

والشاهد أن عبد الرحمن الخميسى الذى خلع عليه أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه لقب القديس، وشاع وانتشر منذ الخمسينيات كان دوماً عند حسن ظنهم، إذ كان ناصع بياض القلب، محباً للناس وخاصة أكثرهم ضعفاً وضياعاً وحاجة للمساعدة، مقاتلاً جسوراً وعنيداً وقاهراً للمستحيل، يناصر المظلوم حتى ينتصر أو يجسد أفكاره فى الواقع أياً كانت صحيحة أم خاطئة أم جامحة.

كان الخميسى نموذجاً للرجال النادرين الذين يصعب الوصول إلى قممهم الشاهقة، لكأنه ماركة مسجلة للأصالة والتميز غير قابلة للتقليد أو التزييف، كامل الأوصاف فى شتى المتناقضات، ينشد الهدوء فى الصخب، والإلهام فى سيارة تجوب شوارع القاهرة فى دياجى الليل بلا هدف، وكان يرى تمام النظام فى طوفان الفوضى، ويعشق الانضباط فى اللا انضباط، وعلى عهدى به ظل دوماً يتعقب الرتابة والملالة والسأم عبر إثارة البهجة والحبور أينما ذهب وارتحل، بحديثه الآسر، وحكاياته المدهشة التى ما أنزل الله بها من سلطان، بمقالبه المحبوكة التى كان يلون بها رتابة الأيام، بنزواته واقتحامه الحصون العاطفية المنيعة التى طالما تحدث بها الركبان.

أما عن علاقتى بالقديس فكانت أشبه بفرعين متباعدين فى زمن الولادة والنمو والعطاء من شجرة باسقة أصلها ثابت فى الأرض وأغصانها متشابكة فى شلة من الأصدقاء المؤتلفة قلوبهم والمتجانسين فى شتى مناحى الثقافة والصحافة والفن. وكان كامل الشناوى هو البستانى الذى يتعهد هذه الشجرة برعايته يسقيها من بحر عطائه ماء الحب والتواصل بين الأجيال.. وكم احتمى تحت ظلالها الوارفة عشرات البراعم الواعدة الغضة، وكم جنوا من ثمارها اليانعة قطوف المعرفة وأدب الاتصال بالمجتمع..

وقد أجيز انتمائى إلى هذه الشجرة الثقافية عبر: آخر عنقود ظرفاء ذلك الزمان الصديق الكاتب الساخر محمود السعدنى الذى تقدم بمسوغات اعتمادى إلى كامل الشناوى، وبعدها بنحو شهر واجهت امتحان الصمود أو السقوط من الشجرة، وذلك حينما تعرفت إلى الخميسى لأول مرة أواخر الخمسينيات فى منزل كامل الشناوى بجاردن سيتى!

أذكر الآن جيداً أن سعادتى عندما رأيته وجهاً لوجه كانت غامرة، ومن فرط سعادتى رحت أستعرض أمامه بعضاً من قصائده وقصصه، وأُبدى ما عن لىّ من ملاحظات حولها، وتساؤلات عن مغزاها ورموزها. لكن الخميسى ظل يرمقنى بنظرات خلتها تشى بالرضا والارتياح دون أن يجيب عن تساؤلاتى. لكنى لم أتوقف. إذ عاجلته بغيرها من قراءاتى لأدبه وتساؤلاتى حولها، بينما ظل هو على حاله يتطلع إلىّ بنظرات ساهمة فحسب. وهكذا استمر هذا الموقف سائداً بيننا قرابة الساعة، وفجأة اقترب الخميسى بوجهه من وجهى وعيناه فى عينىّ، ثم انفجر ساخطاً:

ـ أنت شاكوش يا ولد؟ نازل خبط فى ودانى ورأسى وكيانى كله.. أنت عاوز إيه وبتشتغل إيه بالظبط؟؟ نجار ولا حداد ولا سمكرى؟

وارتج علىَّ فى مواجهة انفجاره المدوى غير المتوقع رداً على مودتى وعرفانى بقدره وفرحى بلقائه! فإذا به يبادلنى التحية بالإساءة، ولم أتمالك نفسى.. ورحت أبادله الإساءة بأسوأ منها، وأرد له الصاع صاعين، وأذكر أننى قلت له فى ثورة من الغضب: إن من يسمع عنك ويقرأ لك لا يتخيل أبداً أنك بهذه الغلظة والفظاظة، بل كدت أشتبك معه بالأيدى إذا لزم الأمر! فإذا لم يكن من الحفاظ على الكرامة بد فمن العجز التراجع وبلع الإهانة، بينما كامل الشناوى الذى كان يرقب المشهد عن كثب ينفجر بالضحك والانبساط ويشجعنى على المزيد قائلا: أيوه كده.. خليك زى الديك الهندى الشمورت.. إديله كمان ما تخافش منه!

عندئذ نهض الخميسى بقامته المديدة ضاحكاً وربت على كتفى وقبل رأسى وأنا فى دهشة مما يحدث حتى فسر لى موقفه، فاتضح أننا كنا معاً ضحية مقلب من مقالب كامل الشناوى الساخنة.. وكان الشناوى ـــ قبل لقائنا ـــ قد أوعز إلى الخميسى عبر مكالمة تليفونية أنه يرزح تحت وطأة شاب ثقيل الظل مهنته نجارعلى ما يبدو، ضاق ذرعاً باقتحامه منزله كل يوم بدون إحم ولا دستور ليعرض عليه كلاماً فارغاً من تأليفه، ثم يلح على نشره فى الصحف. وأضاف الشناوى أنه عبثاً حاول صرف ذلك النجار الثقيل مراراً بالذوق والمعروف، لكنه لا يفهم ويعاود زيارته وتعذيبه، فما كان من الخميسى إلا أن أبدى استعداده لتعذيبه وطرده شر طردة إلى غير رجعة.

وعلى ما يبدو أن صمودى الذى نال إعجاب كامل الشناوى، اعتبره الخميسى تدشيناً لصداقتنا. واصطحبنى إلى مطعم إيزائيفتش بميدان قصر النيل التحرير فيما بعد وكان ملتقى المثقفين اليساريين عهدئذ، وهناك تناولنا عشاء شهياً من الفول المدمس والعجة والمخللات، ودار بيننا حديث طويل ممتع اقتصر على استفساراته عن أحوالى الخاصة وعملى وثقافتى ورؤاى. ومنذ تلك الليلة لم نعد نفترق إلا فيما ندر وللشديد القوى بعد ما أخذت عليه العهد وصرت من مريديه، تماماً كما لو أنه واحد من مشايخ الطرق الصوفية، وقد كان ذلك صحيحاً بالفعل مع اختلاف الطريقة الخميسية التى لم يكن لها هم سوى رعاية المواهب الجديدة والأخذ بيدها حتى تشق طريقها على مدارج الفن والأدب والصحافة.. وهى نفس السمات التى كانت عليها الطريقة الشناوية، أو الطريقة لحجاوية نسبة للأديب الفنان زكريا الحجاوى، مع اختلاف العهود وأساليب التوجيه وأشكال الرعاية، وهو ما يفتقده الآن الجيل الجديد من الصحفيين والأدباء والفنانين الشبان، بسبب انشغال الجيل الراهن من الأساتذة بذواتهم والتمكين لشهرتهم، وهكذا تلاشت ظاهرة المدارس الثقافية والفكرية، حين كان يتحلق التلاميذ والمريدون حتى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات حول علم من أعلام ذلك الزمان، يأخذون عنه وينسجون على منواله ويدينون له بالفضل!

شهادة ميلاد علي قسيمة طلاق

ليست صدفة أن ينتمي العديد من شعراء مصر وأدبائها وفنانيها إلى محافظة الدقهلية، وأن يولد معظمهم فى أجواء ريفها الجميل، ومناظره الخلابة، وطقسه البديع، وفى أحضان عاداته وتقاليده الشعبية الأصيلة، وأن تشهد مدارس المنصورة ومقاهيها ومنتدياتها بواكير نبوغهم وإبداعاتهم الغضة.. وبينهم السيدة أم كلثوم ورياض السنباطي والشيخ زكريا أحمد والشاعر على محمود طه، وكامل ومأمون الشناوى، وصالح جودت، ونجيب سرور، ومن الصحفيين محمد التابعى وأنيس منصور وغيرهما كثيرون!

كانت المنصورة مهد الخميسى، وكانت مثواه الأخير.. ومع ذلك فليس فى المنصورة شارع حتى الآن باسمه رغم كثرة شوارعها التى بلا أسماء.. هذه الشوارع التى شهدت مقاهيها ومنتدياتها ولادة موهبة ذلك الفلاح المصرى ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.. وفيها شد أسماع روادها إلى شعره وسحر حديثه.. لكن ولادته كانت قبل ذلك بسنوات فى قرية منية النصر حيث تزامن صدور شهادة ميلاده بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٢٠ مع

قسيمة من مأذون القرية بطلاق والدته عائشة.. وقد بدأ الخميسى في عواصم وأوقات مختلفة كتابة مذكراته ألف مرة دون أن يتمها مرة واحدة، وكانت إحدى محاولاته عام ١٩٦٧، وفي حينه نوه بها الكاتب الكبير محمد عودة في جريدة الجمهورية وقال: مما يؤسف له أن عبد الرحمن الخميسى لم يكمل قصة حياته التي نشر فصلاً واحداً منها، لأن مجلة يصدرها قانون الاتحاد الاشتراكى لا تتسع صفحاتها لهذه القصة، ولا تتسع ميزانيتها لأجره عنها.. وحينما قال الخميسى إنه قرر أن يكتب قصة حياته توجسناً خيفة، لأن حياته قصة فاقعة، وهي صفحة عاصفة من حياة جيل بأكمله، وقلق واستقرار وهزيمة وانتصار فنان كبير. ولم نتصور أن لدى الخميسى الشجاعة أو التجرد ليكتب حياته عارية وكاملة وكما يجب أن تكتب. ولكنه بدد هذه المخاوف في الفصل الأول وتطلعنا لعمل يبشر بأن يكون جميلاً وفريداً.. وأن يكون مزيجاً من شقاء مكسيم جوركى وإنسانيته، ومن صراحة هنرى ميللر وصدقه الوحشى.. ومع هذا لم تتسع لها صفحات المجلة التي تتسع لأشياء كثيرة، ولم تحتمل ميزانيتها أجره المتواضع رغم أنها تحتمل أشياء أكثر.

ويقول الخميسى عن نشأته في مذكراته التي لم تكتمل:

كانت والدتى حضرية من بورسعيد، وكان والدى قروياً بسيطاً يعبر عن أفكاره وعواطفه الريفية بأسلوب خشن، كانت هي تمثل المدينة الساحلية المصقولة المضاءة بالكهرباء، وكان هو يمثل الحقل غير المهذبة حواشيه، ولكنه يفوح برائحة النمو، ويشرب أضواء الشمس، ويتدثر برداء الفضاء

وعتمته! ولم يكن من المستطاع أن يعيش النقيضان تحت سقف واحد، فتم بينهما الانفصال، وضيعاني وأنا طفل صغير!!. وهكذا عشت سنوات طفولتي الأولى متنقلا بين بورسعيد والسويس أرعى والدتى فى وحدتها كأنى رجلها، وما كدت أبلغ السادسة حتى اختطفنى فى ليلة رمضانية من أحد شوارع بورسعيد شيخ معمم، كمم فمى حين أردت أن أصيح، ولفنى بعباءة سوداء، و قال لى أنه والدى، ولم أكن قد رأيته من قبل! وحملنى ليلاً إلى مركب فى بحيرة المنزلة، ولقيت نفسى فى الصباح فى أحضان قرية منية النصر مركز دكرنس بالدقهلية، ومنذ اللحظة الأولى أدركت الفرق الشاسع بين بورسعيد الجميلة التى تصل بيوتها مواسير المياه النقية وبؤس الريف بحواريه وأزقتها المتربة الموحلة، والمضاء بمصابيح الجاز أو بشعل من فتيل قماش فى علب من الصفيح، ويشرب أهله قواقع البلهارسيا من مياه الترع. وقد حاول أبى وزوجته أن ينسياني والدتى، لكنهما لم ينجحا فى ذلك!

أرسلنى والدى إلى مدرسة ابتدائية فى قرية الزرقا واستأجر لى هناك غرفة صغيرة لأقيم فيها، ومن ثم خلوت إلى نفسى وأنا فى السابعة تقريبا.. وكنت أطوف على شاطئ النيل فى كل مساء، وأحلم بوجه أمى وحنانها المفقود وأغنى أى كلام يعبر عن حنينى ووحدتى وأكتشف أن دموعى تسيل على وجنتى!

كان تفوقى فى الدراسة ينسينى إلى حد كبير تلك المأساة التى يعيشها قلبى، ولكن المأساة حين أنفرد بنفسى وأخلو إلى حجرتى كانت ما تلبث أن تستيقظ كالوحش المفترس وتنشب مخالبها فى لحم قلبى!

كنت أعيش وحدى فى غرفتى الصغيرة بالزرقا، أثاثها حصيرة ومرتبة صغيرة وغطاء ومصباح غازى ووابور سبرتو وسلة مليئة بالخبز، وبعض أحقاق معبأة بالجبن والحلوى، وكان أبى يعطينى كل أسبوع عشرة قروش كى أنفقها فيما أريد، وكانت الطعمية فاكهة بالنسبة لى، فكنت أشترى منها فى كل وجبة غذاء بثلاثة مليمات.

عصر كل خميس كنت أستقل القطار من الزرقا إلى منية النصر، فأصل إليها قبل الغروب، وكان اتساع الحقول يمد أمامى بساط التأمل، كما كان هدوء الريف يعاون قلبى على الاستغراق فى الذكريات، ومن عجب أن تكون لطفل فى الثامنة ذكريات تسحب قلبه إليها، وتحرك أشجانه لتحولها من حاضر بائس إلى شىء جميل مضىء!

على أن انفصال والد الخميسى عن والدته، ومجابهته الحياة بمعزل عن الرعاية والحنان، واعتماده على نفسه فى تصريف شئونه وهو لا يزال طفلاً، والتزامه بالتقشف والتدبير فى حدود العشرة قروش مصروفه الأسبوعى، ولد فى نفسه غير شعوره العميق بالوحدة، إدراكاً مبكراً بأن حياة الإنسان بين يديه وحده، وأن عليه أن يصنعها بنفسه.

لم يكن بيد الطفل الضحية حيلة ولا وسيلة لإصلاح ذات البين بين والديه خاصة بعد اقتران والده بزوجته الأخرى، وكيف يجرؤ على البوح لأبيه بما يجول فى خاطره، ومن يدرى فقد يناله من خشونته ما لايحمد عقباه، ومن ثم استسلم لتصاريف القدر ومد حبال الصبر، وتقبل حالة التعاسة بعد أن أعيته الحيرة فى تفسيرها، بينما أقرانه من أطفال منية النصر

والزرقا ينعمون غنيهم وفقيرهم بالرعاية والحنان فى كنف الأب والأم معاً تحت سقف واحد.

ومنذ ذلك العهد البعيد بالطفولة، حفر الألم والتأمل والعطف بالمساكين والأخذ بيد الضعفاء والضائعين أخاديد عميقة فى قلب الخميسى وضميره، فكان عطاؤه بلا حدود ـــ منذ أصبح يملك القدرة على العطاء ـــ لكل من يستنجد به من محن الحياة، ويستظل بشجاعته المظلومون من هجير ظالميهم، يستوى فى ذلك ظلم الحكام للرعية أو الرؤساء لمرؤوسيهم، أو ظلم طبقة اجتماعية لغيرها، ومن هنا أحسب أن اختيار الخميسى للاشتراكية فى شبابه نهجاً لحياته وطريقاً سياسياً للعدل والمساواة كأنه قدر محتوم لا فكاك منه.

ولأن دوام الحال من المحال، فقد تغيرت مع مرور الأيام نظرة الخميسى وإساءة فهمه لطباع والده عندما اكتشف أن خشونته ليست أكثر من رداء يخفى وراءه إنساناً يضج بالجوى والهوى ورقة الحاشية. يقول:

كنت أستعيد منزل أمى فى بورسعيد وأسترجع صور تلك الأيام، وهى تقدم لى الطعام، وهى تدثرنى فى الليل بالغطاء مخافة أن يصيبنى البرد، وهى تبتسم فى وجهى فرحاً بوجودى، وهى تسهر إلى جوارى إذا ألم بى مرض، وهى تخاف أن يصيبنى مكروه فى الشارع خلال اللعب، وهى تحفزنى إلى تعلم القراءة والكتابة، وهى تمنينى بمستقبل عظيم، وهى تسرد لى الحكايات والأساطير حتى أستغرق فى النوم.

كنت أستعيد مظاهر تلك الرعاية وأقارن بينها وبين عيشتى منفرداً فى حجرة خاوية بالزرقا وعودتى وحيداً كل أسبوع مرة إلى قريتنا لأصطدم

بالتعبير الخشن عن العواطف الطيبة التى كان أبى يكنها لى ولا أفهمها فى تلك السن الصغيرة، وكنت أحلم بأن أرى أمى، ولكن أبى لا يعدنى بتحقيق ذلك الحلم، بل كان يعمل على تنفيرى من تلك الرغبة ويحاول اجتذابى إلى موقفه بأن يشترى لى ثوباً جديداً، أو يسمح لى بأن أقضى السهرة فى الفرجة على ما يقدمه سيرك بعزق فى القرى المجاورة.

كنت أتظاهر بأننى ملت إلى موقف أبى ترضية له، وأعجب لماذا يريد الوالد الطيب أن يحرمنى من زيارة أمى، ولا أجد على ذلك السؤال أى جواب. وقد لاحظت عندما كنت أبيت فى قريتنا الخميس من كل أسبوع أن أبى كان قليل النوم، حتى سمعته مصادفة فى منتصف الليل يغنى غناء جريحاً يقطر بالحزن.

كان صوته الخشن وكلماته الساذجة تفيض بألم رهيب، بأنين وحشى يملأ البيت فى الظلام، وقد صحوت ذات ليلة من تلك الليالى، وجعلت أصغى إلى المواويل الحزينة التى كان يغنيها، وسمعت صوت جار لنا يقول لزوجته: سامعه أبو عبد الرحمن؟ الله يكون فى عونه! إذ كانت المواويل التى يغنيها أبى تصور أشجان غرام فشل.

ومنذ تلك الليلة امتلأ قلبى بحب أكبر نحو أبى، ولم أحدثه فى شىء من ذلك. وذات يوم طلب منى أن أصحبه إلى إحدى القرى المجاورة، فركبنا حماراً واحداً جعل يخترق بنا المزارع إلى تلك القرية.. وراح أبى يغنى فى الطريق: بدأ غناءه هادئاً، ثم ما لبث صوته كأنما أصابته حمى، فجعل يرتعد، فيخيل إلى سامعه أن نبراته تنهمر بدموع.

وتذكرت أمي، فسرحت إلى ذكريات حياتي معها، ورحت أسترجع حنانها، فيمتلىء قلبي بالحنين، ولم أقاوم رغبتي في مطالبة أبي بأن يسمح لي بزيارتها، وفعلت. ولم يتكلم أبي، وإنما كف عن الغناء والتزم الصمت، ثم تساقطت على جبيني قطرات دموعه، فنظرت إلى أعلى ووجدت أبي يبكي، فخفضت عيني إجلالاً.. وطوانا الصمت، ومضت بنا الدابة تقطع الدرب بعد الدرب.

على أنني عدت بعد قليل أسأل والدي تحقيق أمنيتي، خاصة أن شهور الدراسة انتهت، وأني نجحت فنقلت إلى سنة دراسية جديدة فقال أبي: ياريتها كانت معانا يا عبد الرحمن، دون أن يجيب عن سؤالي.

في المساء أكدت لي جدتي لأول مرة أن والدي يمنعني من زيارة أمي كي يدفعها هي إلى الحضور لزيارتي.. فقد كان لا يزال يحبها! وعندئذ فقط أدركت مرارته والتياعه، وكانت أمي هي الأخرى تحيا في مواجع الفراق بعد أن ألقى بولدها الوحيد في ناحية، وألقى بها في ناحية أخرى.

وكان الخميسي فيما بعد يتذكر والده مضفياً عليه صور البطولة باعتباره فلاحاً يقدس قيمة العمل ويشقى في الحقل، ويجد تاجراً للأقمشة يجوب القرى والأسواق على حماره، ويكتب الخميسي فيما بعد في صحيفة الجمهورية في ١٥ فبراير ١٩٥٨ تحت عنوان درس من الطفولة أنه كان يلعب كرة قدم مع الأطفال من سنه في نحو الثامنة من العمر في القرية، وفي حمية المباراة اعتدى عليه السيد الذي كان: أضخم جسماً وأقوى بناء

وعافية.. فخرجت عدواً من الملعب ورحت أجرى إلى دارى وأنا أبكى.. ولقيت والدى فى مواجهتى.. كان فلاحاً بسيطاً خشن الصوت والمظهر.. وقد راعه منظرى فصاح بى فى غضب: مالك يا ولد؟ وانفجرت فى البكاء: السيد ضربنى! وكنت أتوقع أن يمسح أبى دموعى، وأن يحيطنى بذراعيه، وأن يربت على رأسى بيديه.. لكن والدى صفعنى على وجهى صفعة عنيفة.. وأتبع صفعته بصيحة مرتفعة: إخرس يا جبان.. وبتبكى كمان؟ يضربك وتسكت؟ أنا ماليش ولاد دموعهم تسيل على خدهم.. ووالله العظيم تلاتة إذا ما رحت دلوقتى وفلقت رأس السيد ده بعصايه لا تبقى ابنى ولا أعرفك.. وانطلق الخميسى فانتقم لكرامته، وعاد إلى أبيه، فقال له: انت ما يصحش تضرب حد.. لكن إذا مخلوق ضربك لازم تضربه. ويقول الخميسى إن هذا الدرس ظل دستوراً له يعلمه أن الإنسان لابد أن يصمد أمام الملمات فلا يبكى، ولايصح أن يعتدى على أحد، غير أنه إذا اعتدى الآخرون عليه لابد أن يرد العدوان.

والشاهد أننى عندما راجعت ملف الخميسى فى أرشيفى الخاص، لاحظت فى سياق حواراته الصحفية مدى إعجابه ونقده معاً لوالده ووالدته، إعجابه بوالده كونه ظل طوال حياته يقدس قيمة العمل، ويأخذ عليه انشغاله بالعمل عن محاولة فهم والدته والحديث معها وتدليلها، بينما إعجابه بوالدته الرقيقة الحكاءة التى نالت قسطاً وافراً من التعليم دون أن تبذل من الجهد ما يرفع والده إلى مستواها الثقافى، وغضبه منها كلما كانت تواجه خشونته بكلمات وعبارات مبهمة ترد بها الصاع صاعين، ولأن والده كان يحبها

فقد أبى عليه كبرياؤه سوى اختيار أبغض الحلال عند الله، فكان الطلاق الذى أراحها وعذبه!

كانت عائشة أم الخميسى ابنة لأحد شيوخ بورسعيد هو عبد الفتاح أبوالحسن الذى قيل إنه تزوج من امرأة فرنسية الأصل ومن هنا كانت ثقافة عائشة وجمالها الموروث عن أمها، وقد تألم الخميسى كثيراً عندما تزوجت أمه بعد انفصالها من رجل آخر هو إسماعيل العشرى وأنجبت منه بثينة .. كما تزوج أبوه. ولكن الخميسى كان قلما يذكر والدته، بل كان فى أحيان كثيرة يتفادى ذكرها، أما حين كان يذكر والده، فكان يذكره بنبرة لوم دفينة. وعن فترة إقامته مع والدته فى بورسعيد يذكر الخميسى فى أوراق له بعنوان تاريخ حياتى.. يقول:

كنا نقيم فيما يشبه البيت الصغير فى أحد أزقة حى المناخ ببورسعيد.. وكان البيت يتكون من طابقين اثنين، الأرضى وتسكنه عائلة مؤلفة من أم عجوز وابنها الذى يعمل صياداً وزوجته وطفلها، أما الطابق الثانى فيتألف من ردهة وغرفة تقيم فيها أمى، وزوج أمى، وأختى الصغيرة بثينة، وأنا.. وقد كبرت وأنا أعتقد أن زوج أمى هو أبى، وحرصت أمى على أن أظل جاهلاً بالحقيقة، لأنها كما صرحت لى فيما بعد كانت لا تريد أن تؤلمنى وأنا طفل صغير حين أشعر بأنى أحيا فى كنف رجل غريب.. والحقيقة أنى لم أشعر بأن زوج أمى أو بابا إسماعيل كما كنت أناديه ليس هو أبى. ذلك لأنه كان يعاملنى بحنان حقيقى وحب صادق.. كان إذا قلق فى نومه ترك سريره فى منتصف الليل وخرج إلى الردهة التى كنت أنام فيها وراح يحكم الغطاء على جسدى بيديه، وكان لاحتياجاتى مكان الصدارة فى اهتمامه

فيجاهد لتحقيق كل ما أطلب بروح أبوية.. وكان بابا إسماعيل يشتغل عاملاً من عمال النجارة فى إحدى ورش الموبيليات، وكان يفاخر أمامنا بأنه ليس نجاراً عادياً، فهو إلى جانب اشتغاله بصناعة الأثاث يرسم النقوش ويحفرها فوق الخشب، ولذلك يتقاضى خمسة قروش أكثر من الأجر اليومى للنجار العادى.

ولم ينجب له أبوه أو أمه أخاً ذكراً، وكان الخميسى كثيراً ما يكرر فيما بعد أنه يريد أطفالاً ذكوراً كثيرين جداً، لكى يحفظوا اسم الخميسى.. وأنه يريد أينما ذهب فى شوارع القاهرة أن يرى يافطات بلا نهاية الطبيب... المهندس... المحامى... الفنان... الأديب... كله الخميسى، إلخ، وربما لهذا السبب أنجب ١٣ ولداً وبنتاً.. وكان يقول: أنا أفرح بالعزوة.. لأننى لم يكن لى أخوة ذكور. وكان يسعد حين يجتمع حوله أكبر عدد من أبنائه وبناته، ويعاملهم كإخوة وأخوات له، ثم يضحك ساخراً وهو يسألهم: أنت ابن مين فى زوجاتى، وإنتى أمك اسمها إيه؟.

شكسبير مجاور في الأزهر

أذكر جيدا أني سألت عبد الرحمن الخميسى فى ساعة من ساعات صفوه عن بداياته الأولى مع الإدراك المعرفى والإبداع الفنى، فضحك قائلا:

الإبداع كالجنس تحركه ثلاثة عوامل: الرغبة والإرادة والقدرة. وقد تولدت رغبتى فى الإبداع مع رغبتى فى البوح والتعبير عن مشاعرى الحبيسة المبهمة زمن الطفولة، وقد لعب التناقض الذى عشته فى تلك الفترة ما يشبه الجدل أو الدراما فى تفكيرى ورؤاى للأشياء. التناقض بين أبى ووالدتى، بين المدينة والقرية، بين إدراكى للمسئولية وتحمل أعبائها صغيراً وحرمانى من الرعاية والحنان واللعب وحقى فى التجريب والخطأ مثل أقرانى الأطفال، وهذا التناقض كان له أثر عميق فى وجدانى، كأنما خلق الله لى عقلين فى عقل واحد، وهكذا بينما كان الناس ينظرون إلىَّ باعتبارى طفلاً، كان أقرانى يتعاملون معى وكأنى رجل أو أكبر منهم فى السن وفى رجاحة العقل والشجاعة أو التهور، مما أورثنى ذلك الصراع المرير الذى يعتمل فى تفكيرى ورفضى للمسلمات.. والنظرة النقدية التلقائية للشىء ونقيضه، أو الوجه الآخر للحقيقة وباطن الظاهر للأشياء.

وعلى مايبدو فإن الرغبة الحبيسة فى التنفيس عن مكنونات نفسى عندما صادفت ميكانيزم الصراع بين المتناقضات فى تفكيرى ورؤاى، قد ولدت لدى الرغبة فى التعبير المبكر الذى قدره غيرى إبداعاً.

وأما عن عامل القدرة، فقد كانت الوحدة الشقية فى طفولتى ظرفاً ملائماً لقراءة كل ما تقع عليه عيناى من القصص والأشعار والأساطير ربما بما يفوق عمرى، فكان عشقى للأدب والفن، وراح عاملا الرغبة والإرادة يتفاعلان مع القدرة فى طفولتى وفتوتى، كل منهما يغذى الآخر، فما أن أمسكت بالقلم، حتى انساب على الورق شعراً وأدباً وخواطر شتى، إذ كان احتياجى إلى التعبير أقرب إلى الضرورة القصوى، كاحتياج القلب إلى النبض، والرئتين إلى التنفس، والقدمين إلى السير، والأسنان إلى المضغ. ومن هنا حاولت أن أتنهد، أن أقول آه، أن أطلق صرختى، ولعل بيتاً من إحدى قصائدى حينذاك يشى بدوافعى إلى التعبير والإبداع:

وحماسة نار إذا لم تنطلق... من أضلعى ذابت بها أحشائى!

وقد لاحظ الناقد الكبير رجاء النقاش ذات مرة ما قاله الخميسى من أنه كأنما خلق وله عقلان فى عقل واحد، وكان ذلك أثناء لقاء نظمته مجلة الكواكب للمطربة الكبيرة فيروز وعاصى الرحبانى فى نوفمبر ١٩٦٦ بالقاهرة مع عدد من الكتاب كان من بينهم الخميسى.. وقد علق رجاء النقاش فى الكواكب على حديث الخميسي فى الندوة بقوله: كان الشاعر الفنان عبد الرحمن ينفخ دخان سيجارته بقوة، ويتحفز للكلام، فمن الواضح أنه يريد أن يعارض.. ومن الواضح أن كلام عاصى الرحبانى قد أثار

حس الهجوم الفكرى الذى يتميز به الخميسى دائماً. قال الخميسى: لى وجهة نظر أخرى فى المسرح الغنائى مختلفة تماماً عن وجهة نظر الرحبانية. وفيما بعد كتب الخميسى فى قصيدة له يقول:

سرى أنى أصنع من أحلامى دنيا أخرى قاصداً بذلك أنه كان يعيش فى عالم آخر من صنعه، يختلف عن حياته فى عالمه الواقعى. وكان كثيراً ما .يردد: إنى أجد نفسى دائماً عند الجدار المواجه.. فإذا اتفق الناس جميعاً على شيء، وجدت نفسى أنظر لهذا الشيء من عند الحائط المقابل فإذا قالوا: جيد. وقفت هناك وقلت: ولكن ما هى عيوبه يا ترى؟ فإذا قالوا: هذا سيىء للغاية، وقفت عند الحائط المواجه أسأل نفسى: لكن ما هى جوانبه الإيجابية يا ترى؟ لم أكن أقتنع أبداً بأن أرى وجهاً واحداً للأشياء أو الحقيقة.

وكان موقفه هذا يتضح بشدة حتى عندما يريد تسلية أصدقائه فينادى على سكرتيره الخصوصى فكرى الجوهرى قائلاً له أمام الجميع: يللا يا فكرى عدد لنا مزايا الشاى.

فينطلق فكرى فى أسطوانة يحفظها: الشاى يا عبد الرحمن بك من أحسن المشروبات للقلب، وأثبت الطب كمان أنه مفيد للهضم، ناهيك عن أنه يستخدم فى الصين كمقو جنسى، ثم إنه أحسن مشروب لتنقية الكلى.. ولا يكف فكرى عن سرد هذه الميزات حتى يوقفه الخميسى فجأة قائلا: طيب كفاية قل لنا بقه عن أضرار الشاى!

فيندفع فكرى بنفس الحرارة دون أن يبدل نبرته زهاء ربع ساعة واصفاً خطورة الشاى على الصحة! وكان الخميسى يرى فى هذا المزاح أن لكل

شيء وجهيه المتناقضين، وأنه لا يوجد أبيض بس أو أسود بس ، ولكن الحقيقة مزيج متفاعل من كل هذا وذاك.

ومن الطريف أن أولى شرارات العطاء في مشوار الخميسي الإبداعي كانت عبر نظم المواويل الشعبية التي حاكى بها مواويل المطربين في الريف وعمره لم يتجاوز الثامنة بعد، فقد جرب في البداية ترديد تلك المواويل أمام أصدقائه وعائلته بدعوى أنه سمعها وحفظها خلال تجواله في الموالد، فما أن اطمأن إلى قبولها واستحسانها حتى تشجع على تأليف المواويل في المناسبات من وحي اللحظة، ثم تشجع أكثر وبدأ يغرض انتاجه على بعض المطربين الشعبيين بالمجان، وكم كانت سعادته مفعمة بالنشوى والثقة بالنفس عندما وجد أن مواويله تنتشر من قرية إلى قرية.

وفي مقاهي ومنتديات المنصورة الأدبية كان الخميسي الفرفور الصغير المشاغب، فكان ينتهز فرصة الاستراحة بين شاعر وآخر، وقاص وراوية، وينبري إلى قول الموال والزجل وأشعاره الغضة، وينال استحسان السامعين وإعجابهم، وقد يطلب له واحد من أدباء وشعراء المنصورة مشروباً على حسابه، أو يمنحه آخر ديواناً وربما قصة وعليه أن يعيدها له بعد قراءتها، وقال لي الخميسي أنه لا ينسى شاعراً فحلاً اسمه محمد بيومي كان له الفضل في تشجيعه على تأليف الشعر وتصحيح بحوره وأوزانه، فما أن استوى عوده ونضج إبداعه الشعري حتى دله على وسيلة لنشره في مجلات الأدب التي كانت تصدر في القاهرة آنذاك، ولم يدخر الخميسي وسعاً وعمل بالنصيحة، وأرسل عبر البريد ثلاثاً من قصائده إلى ثلاث مجلات وصحف قاهرية تعنى بالأدب دون أن

يخطر على باله أن يكون مصيرها سوى سلة المهملات. فهو لم يكن يعرف أياً من محرريها، ولا كان لديه فائض من المال يشترى به أياً من تلك الصحف والمجلات حتى يعرف نتيجة مغامرته. ويوماً سأله الشيخ عبد الباقى مدرس اللغة العربية بمدرسة المنصورة الثانوية إن كان هو عبد الرحمن الخميسى الذى نشرت له مجلة البلاغ المصورة قصيدة أزهار، ولم يصدق الخميسى الخبر فى البداية وكاد ينكره لكنه استدرك وقال بأعلى صوته: أنا يا أستاذ.. أنا عبد الرحمن الخميسى صاحب القصيدة والله العظيم ومستعد لإلقائها فوراً. وقد روى لى هذه القصة المربى الفاضل الأستاذ عبد العزيز البطراوى موجه اللغة الإنجليزية يرحمه الله وهو والد رسام الكاريكاتير الفنان عادل البطراوى وجارى فى نفس العمارة التى أسكنها بحى الروضة، وكان قد قرأ لى تحقيقاً عن الخميسى فى مسلسل ظرفاء ذلك الزمان الذى نشرته روز اليوسف عام ١٩٩٠ ، وجاءنى يروى لى ذكرياته عنه وزمالته له فى مدرسة المنصورة الثانوية.. قال:

كانت النسبة الغالبة من طلبة المدرسة من أبناء الباشوات والبكوات وعمد الدقهلية وتجار القطن وأرباب المال وكبار موظفى الدولة، إلى جانب قلة من أبناء القادرين بالكاد على دفع المصروفات، والفقراء المتفوقين فى الدراسة ممن نالوا حظوة الإعفاء من المصروفات قبل أن تعمم مجانية التعليم عهد حكومة الوفد الأخيرة بقرار من الدكتور طه حسين وزير المعارف حينذاك.

كان الخميسى فقيراً ولكنه كان متفوقاً فى كل شىء، فى فهمه لأسرار وجماليات اللغة العربية، وفى ولعه بالأدب العالمى إذ كان يجيد اللغة

الإنجليزية، وربما لكثرة قراءاته وسهره الليالى مما أضعف بصره فكانت النظارة السميكة لا تفارق عينيه وبدونها طشاش.. وكان طوله مع نحافته أبرز سماته، حتى إن مدرس اللغة العربية الشيخ عبد الباقي كان دائماً يناديه أبو زعزوعة ويعنى عود القصب، وكان الخميسى لا يأبه له وكأنه يسخر من غيره، وهو ما كان يثير غيظه، ولكنه فى مرات عديدة كان رده حاضراً ذكياً لا تنقصه النكتة كأن يقول: وما لها الزعزوعة يا أستاذ.. ما تبصليش من بره.. شوفنى من جوه تلاقينى حلو زى السكر أو يقول له: ما تبصش للزعزوعة يا أستاذ.. بص للجدر تستعجب على صنع الله! ولأن عبارات الخميسى كانت تطلق العنان لضحات الطلبة، مما كان يعنى انتصاره على الشيخ عبد الباقى، ومن ثم أقلع عن سخرياته من الخميسى خاصة أن ردوده كانت تحمل معانى شتى ومحرجة يصعب معاقبته عليها.

لكن الخميسى ــ والحديث مازال للأستاذ عبد العزيز البطراوى ــ أضمر فى نفسه الانتقام والتشفى، ويوماً زارنا مفتش اللغة العربية، وكان الشيخ عبد الباقى على أهبة الاستعداد للقائه، عبر تأكده سلفاً من حفظنا للأشعار والنصوص الأدبية المقررة وشدد علينا الالتزام بالنظام وحسن الخلق و..

يومها سار كل شيء على مايرام وبدا للسيد المفتش أن الشيخ عبد الباقى بذل قصارى جهده فى القيام بواجبه التربوى والتعليمى، فما أن أوشك على الانصراف حتى رفع الخميسى إصبعه يسأله: هو صحيح يا سعادة البيه شكسبير أصله مصرى؟

وتعجب المفتش وقال فى دهشة: مين اللى قال الكلام الفارغ ده؟

وقال الخميسى فى هدوء وثقة توحى بالبراءة والعفوية: الشيخ عبد الباقى.. ده حلف كمان بالمصحف إنه كان زميلاً ومجاوراً له فى الأزهر وكان اسمه الشيخ شاكر قبل ما يسافر انجلترا ويطلع من دينه!

وكشف الأستاذ البطراوى فى حديثه عن ملامح بارزة فى شخصية الخميسى الطالب وأسرار حياته العجيبة آنذاك.. قال:

كان يستأجر غرفة متواضعة فوق سطح منزل متهالك بالمنصورة، وكنا نحج إليه أغنياء وفقراء، ونتحلق حوله كزعيم، وكل منا يحمل إليه ما تيسر من الطعام والحلوى والشاى والسكر، لمجرد الرغبة العارمة فى أن تجمعنا به أواصر التواصل والصداقة، وكنا نسمع إلى آرائه السياسية والثقافية كما لو أنه سعد زغلول أو عباس العقاد، إذ كان أكثرنا انشغالاً وفهماً فى هذه المجالات، وكان رسام كاريكاتير حاد الخطوط عندما يعكس على الورق رأيه بلا مواربة فى خصومه من الطلبة المشاكسين أو المدرسين الغلاظ معه، أو الباعة الذين يرفضون الشكك أو صاحبة البيت التى تلح فى طلب الإيجار المتأخر. كان يقول للدائنين عندما يلحون للوفاء بحقوقهم إلى حين ميسرة، وكنا نتعجب كيف تأتيه الشجاعة وهو المعدم حتى تصل ديونه إلى أرقام فلكية، وكان يدهشنا أكثر سداده للديون فجأة كلما غاب عن المنصورة فترة من الوقت، ونتساءل فيما بيننا عن خبايا غيابه وتلك الميسرة التى كانت تهبط عليه تباعاً من حين لآخر، وعندئذ يدعونا إلى تناول ما لذ وطاب من الطعام والشراب و.. حتى أفضى لنا بسره. فاتضح أنه يسافر إلى القاهرة لبيع انتاجه من الأغانى لمطربين ومؤلفين مشهورين، يلتقى بهم فى مقهى باب

الخلق ومقهى الآلاتية فى شارع محمد على، وكان صادقاً، فقد سمعنا فى الراديو بعض هذه الأغنيات التى سبق أن شهدنا ولادتها فى غرفته المتواضعة منسوبة إلى غيره، حتى قرأنا بعضاً من أشعاره في المجلات والصحف القاهرية باسم عبد الرحمن الخميسى. ورغم شحوب وجهه ونحافته المفرطة كمن أصابته شتى أمراض الأنيميا الحادة والبرى برى والبلاجرا والاسقرابوط، إلا أننا كنا نتصوره أحيانا رافع أثقال ولا خضر التونى وملاكماً ولا مارشينو، فقد أوتى من القوة يوماً أن يضرب طالباً قوياً عريض المنكبين من أبناء الإقطاعيين المشهود لهم بالفتونة عندما عايره ببنطلونه الشورت الذى كانت تتدلى منه ساقان رفيعتان بلا أفخاذ، ولا أعرف كيف استطاع الخميسى أن يجمع أصدقاءه من الطلبة لمناصرته عندما احتدمت معركة الثأر التى جمع لها ابن الإقطاعى عدداً من الفلاحين المسلحين بالنبابيت، وتقدمنا الخميسى أمام باب مدرسة المنصورة الثانوية لملاقاتهم فى معركة فاصلة حامية الوطيس ونحن من ورائه، حتى أجبرناهم على الفرار إلى غير رجعة.

ويذكر الأستاذ ماهر محمد على المحامى الشهير وهو من بلدة الخميسى ومن أصدقاء صباه — وإليه أهدى الخميسى فيما بعد كتابه المكافحون الذى صدر عام ١٩٥١ وسطر على صفحته الأولى: إلى ماهر محمد على الذى تتمثل فى شخصه الحبيب ملامح القرية الطيبة منية النصر.. هدية إعزاز له، وللريف، وللنضال — يذكر أنه وزملاءه فى مدرسة المنصورة أصابهم الفزع عندما تجرأ الخميسى فى إحدى العطلات الصيفية وألقى قصيدة فى حفل عام أقيم بقرية منية النصر، ولم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة

من عمره، هاجم فيها بكل شجاعة الإقطاعيين فى ريف الدقهلية ممن كانوا يملكون زمام القرية من الأراضى الزراعية وكل ماعليها من بيوت وماشية ويعاملون الفلاحين كنكرات أو عبيد.

ويروى أيضاً أن الخميسى جمع أقرانه من فتية القرية ذات يوم، وعرض عليهم فكرة إنشاء ناد ثقافى ملحق به مسرح بسيط، وعندما توجهت اللجنة المنتخبة لإدارة النادى إلى أثرياء القرية وطلبت منهم التبرع بالمال لإنشائه رفضوا، وسخروا منهم، وكان الخميسى أحد الذين تلقوا تلك السخريات مضاعفة رداً على قصيدته التى هاجم فيها الإقطاعيين.. فماذا حدث؟

يقول ماهر محمد على: دعانا عبد الرحمن الخميسى وكان أكبرنا عمراً إلى اجتماع فى المساء، وكان المدعوون من أبناء غير الأثرياء والإقطاعيين، وقال لنا: لقد مررت اليوم صدفة بمقابر قريتنا فى طريق عودتى من قرية البجلات، وتوقفت لحظات أعاين الفرق الصارخ بين مقابر الأثرياء ومقابر الفقراء، ولاحظت أن الأغنياء أقاموا إلى جوار مقابرهم استراحات مزودة بكل ما تحتاجه المساكن فى الفترة التى تأويهم خلال زيارة موتاهم.. فهيا بنا!

قلنا له: إلى أين؟

قال: تعالوا معى وسوف تعرفون ما يجب أن نفعله.

وتوجهنا خلف الخميسى، وفوجئنا به يمضى بنا إلى مقابر القرية، وحين لمح القلق فى عيوننا قال: نحن نريد أن نبنى للقرية نادياً ومسرحاً بسيطاً، ونحن بحاجة إلى اخشاب، وقد لجأنا إلى أغنياء القرية ننشد مساعدتهم فلم يستجب لنا أحد منهم.

وكنا وصلنا إلى مكان القبور فقال الخميسي: هذه هي الاستراحات التي بناها الأغنياء لا يستخدمها أحد في شيء ضروري.. وأعتقد أن أحياء الفقراء أهم من موتى الأغنياء.. ثم نظر إلينا في إصرار وحسم وقال: هلموا معي نفكك هذه الاستراحات ونستولي على أخشابها.. ولم ينتظرنا، بل تقدم حتى أجهز على تفكيك الاستراحة الأولى، مما دفعنا إلى أن نحذو حذوه في تفكيك ما تيسر من الاستراحات قدر حاجة المسرح من الأخشاب، إذ كان قد رتب كل شئ قبل اجتماعه بنا ووفر أدوات النجارة التي استخدمناها في نزع الأخشاب، بينما كان الخميسي يردد في هدوء وغبطة عبارة أحياء الفقراء أولى من موتى الأغنياء لا أقل ولا أكثر.

ويواصل ماهر محمد على ذكرياته عن الخميسي إبان رفقة الصبا وزمالة الدراسة: كان دائماً يبهرنا بشجاعته ومواجهته للتحديات دون تردد أو خوف، بثقافته وحكمته وفخره بأنه يصنع نفسه بنفسه رغم فقره الذى كان يعيره به أولاد الأثرياء، وكان يقول لنا: كل شيء زائل.. حياة الرغد والنعيم والملبس الفاخر والطعام الجيد.. لكن الثقافة وحدها تدوم ولا تزول ولا يمكن سرقتها أو انتزاعها من صاحبها، ومن هنا كان اعتزازه بالعمل في العطلة الصيفية بائعاً في مكتبة أو بائعاً في دكان بقالة، إذ كان الجوهر لا المظهر مركز اهتمامه وعنايته.

ومن طرائف الخميسي في تلك المرحلة عندما كان يجمع الفلاحين البسطاء لمشاهدة ما يقدمه لهم في مسرح القرية، كان يلقى عليهم أشعاره التي تحكى مواجعهم وتحرضهم على ظالميهم، أو يروى لهم ما كان يحفظه

عن ظهر قلب من قصص أبو زيد الهلالى، والزناتى خليفة، وسيف بن ذى يزن، حتى بدأ يقدم مسرحيات من تأليفه وبطولته وإخراجه.

وقد وجدت فى كتابات الخميسى ما يؤكد تلك الواقعة فى مجلة كتب للجميع (أبريل ١٩٦٠):

كنت مازلت فى الخامسة عشرة من عمرى حين أقمت مع بعض إخوانى مسرحاً فى قريتى منية النصر جعلنا قوائمه بعض البراميل واستعملنا فى إضاءته المصابيح البدائية، ولا أنسى كيف أن أهالى القرية تحمسوا لذلك العمل حماسة باهرة فساهموا معنا بأيديهم فى إقامة المسرح.. وكنت أقوم فى الرواية بتمثيل دوز خادم عليل يركله سيده بقدمه فى أحد مشاهد الرواية، وكان والدى بين المتفرجين، فلما رأى زميلى الذى يمثل دور السيد يركلنى بقدمه وأنا أمثل دور الخادم العليل، هب من مقعده واقفاً وزعق بين الزحام يسب زميلى ويتوعده..

ويبدو أن المثل القائل هذا الشبل من ذاك الأسد كان ينطبق تماماً على الخميسى ووالده، فقد شهدت قرية منية النصر واقعة ظلت حديث ريف الدقهلية ردحاً من الزمن، عندما شد والد الخميسى جناب العمدة من فوق حنطور يركبه وأوقعه أرضاً ثم راح يضربه بنفس العصا التى ضرب بها فلاحاً مسكيناً اعترض طريقه يطلب مروءته للإفراج عن قريب له فى سجن المركز كان قد عجز عن دفع إيجار أرض زراعية يملكها العمدة.

وحدث أن والده رأى فى سوق القرية من معارفه رجلاً عجوزاً ذاهلاً عن نفسه بعد أن خسر كل ما يملكه منذ سنوات فى تجارة القطن، وقد أبان

جلبابه المهلهل عن عورته، والأطفال من حوله يتضاحكون ويسخرون منه، ولم يستغرق والده فى التفكير طويلاً، فخلع ملابسه الداخلية وألبسها له على مرأى من الجميع!

ومن الواضح أن الخميسى أنهى مرحلة نشاطه المبكر فى المنصورة بانتقاله من مدرسة المنصورة الثانوية إلى مدرسة القبة الثانوية فى القاهرة، حيث درس معه عدد من أصدقائه القاهريين. وهناك صورة للخميسى وهو شاب فى مدرسة القبة الثانوية كتب عليها من الخلف جماعة التمثيل بمدرسة القبة ـــ عام ١٩٣٨ والغريب أننا سنجد له قصائد مكتوبة فى نفس السنة منها قصيدته الرائعة ماذا تريد الزعزع النكباء وقصيدته صرخة وقصائد أخرى منشورة فيما بعد بمجلتى الثقافة والرسالة بتاريخ يعود إلى ٢ أكتوبر ١٩٤٠ مثل فى الجزيرة و١٣ نوفمبر ١٩٤٠ باسم لهفات يقول فيها:

لهف نفسى على ربيعى النضير

أين يمضى مطرزاً بزهورى

وشابى كالفجر غرد فيه

كل طير مستيقظ فى ضميرى

وأنا شاعر أصلى لفنى..

وفتاتى فى معبد التفكير.

ومعنى ذلك أن الخميسى قد استوى شاعراً مقتدراً وعمره ثمانية عشر عاماً فحسب عندما كان بمدرسة القبة الثانوية بالقاهرة.

والحقيقة أننى عندما تعرفت على الخميسى أواخر الخمسينات وهو فى مرحلة الرجولة، ثم الكهولة، فالشيخوخة كان على شاكلته عندما كان فتى وشاباً غض الإهاب، يصنع نفسه بنفسه بجهده ومثابرته وجلده واقتحامه للمجهول دون أن يخشى الفشل والسقوط. ويروى عنه أنه كان مطارداً ومطلوباً من بوليس القلم السياسى الذى كان يتعقب الوطنيين والتقدميين قبيل اندلاع ثورة يوليو ١٩٥٢، عندما لجأ إلى شاعر مشهور له باع فى كتابة الأغانى، واختبأ فى منزله بالاسكندرية عدة شهور كتب له خلالها عشرات الأغانى وديواناً كاملاً من الشعر مقابل الأمان والنومة وقوت يومه وبالطو شتوى من الجوخ، إذ كان همه الأول أن يظل حراً مادام على قيد الحياة يرتشف من مباهجها حتى الثمالة، ويبدع من أجلها شعراً وفناً، ويعطى للآخرين ما وسعه العطاء دون أن يهمه فى قليل أو كثير أن يقتات الآخرون من فيض إبداعه أو ينسجوا على منواله، الذى كان يهمه فحسب ألا يموت جوعاً وكمداً، وأن يظل على قيد الحياة، ومادام على قيد الحياة فهو قادر دوماً على الإبداع الأفضل.. وجلب المال أكثر.

والطريف أن هذا الشاعر المشهور حمل أول نسخة من ديوانه فور خروجها من المطبعة وذهب بها إلى الخميسى فرحاً وقدمها له مذيلة بإهدائه، وذهل الخميسى من المفاجأة وقال: لم أر وقاحة كهذه.. يهدينى شعرى؟! ثم يطلب منى بمنتهى الثبات أن يسمع رأيى فى هذا الشعر؟! سبحان الله! إن كان على الشعر.. كويس مش وحش ولو أنى نظمته للضرورة فحسب!

عندما أبصر عازف العود الضرير

فى الثلاثينيات كانت للأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم من أقصاه إلى أدناه انعكاساتها الفادحة على مصر، عبر تدنى أسعار القطن موردها الرئيسى حينذاك، وما أدى إليه من إفلاس كبار وصغار تجار القطن، وانتشار البطالة وخاصة فى الريف، وزيادة الأسعار وكلفة الحياة المعيشية، ومن هنا كانت الأزمة أشد وطأة فى الدقهلية معقل زراعة وحلج القطن وتجارته، كذلك كان حال والده الميسور الحال الذى كان يتكسب من بيع البفته والدمور والزفير والبيكة والبوبلين فى دكانه بقرية منية النصر أو يحملها على خرج حمار حصاوى يتجول به فى القرى أو يفرشها فى شادر يستأجره بالأسواق، وينتظر الثمن عاجلاً أو آجلاً بعد بيع الفلاحين محصول القطن، فلم يعد أحد يشترى ولا قادر على الوفاء بالدين. وهكذا طالت الأزمة عائلة الخميسى فى منية النصر، وعندما استحكمت حلقاتها دون بارقة أمل فى الانفراج، أدرك الخميسى أنه يشكل عبئاً مادياً ثقيلاً على كاهل والده لا طاقة لدخله ــ الذى تواضع ــ على احتماله، إلى جانب أزمته النفسية المستحكمة إثر نزوة عاطفية فاشلة تعرض لها فى حينه عندما تعرف إلى

ممرضة تدعى محاسن، وتزوج منها لمدة ثمانية عشر يوماً ثم طلقها، ومن ثم قرر الخميسى كعادته أن يعتمد على نفسه، فانقطع عن الدراسة فى المنصورة الثانوية ثم واصلها نحو عام بمدرسة القبة الثانوية بالقاهرة، على أن ما يهمنا فى هذا السياق أنه هجر قريته لا يلوى على شيء عام ١٩٣٦ يبحث له عن مكان ودور تحت شمس القاهرة وهو لا يحمل معه سوى بضعة قروش وحقيبة صغيرة تحتوى على جلابية وشبشب وفوطة وماكينة حلاقة.

ويصف الخميسى هبوطه القاهرة فى مجلة الاثنين والدنيا المصرية بتاريخ ١٠ يناير ١٩٦٠ تحت عنوان: عندما زرت القاهرة لأول مرة كالتالى:

إننى ما زلت أذكر ذلك اليوم من عام ١٩٣٦ الذى تركت فيه قريتنا هارباً من ضيقها لأنعم بحياة العاصمة الكبرى.. كان عمرى يومئذ ١٧ عاماً.. وكنت قد بدأت أنظم الشعر وأتعلق بالأدب. وقد صور لى الوهم أننى سأحدث انقلاباً فكرياً فى العاصمة، وسأغير وجه الأدب والفن وأضع لهما مفاهيم جديدة.. ونزلت من عربة الدرجة الثالثة بالقطار لأشق الزحام إلى ميدان المحطة الفسيحة، ومشيت أتطلع إلى كل شيء كالمشدوه أو المعتوه.. وقضيت اليوم كله سائراً كالمستكشف الذى تنسيه لذة الكشف متاعب الرحلة.. وعندما أنهكنى التعب أحسست بأن الجوع يفتك بى، ولم أكن أملك أكثر من خمسة قروش هى كل الثروة التى خرجت بها من القرية.. وملأت خياشيمى رائحة الطعمية وتمنيت الأكل منها.. ولكنى خفت عواقب التبذير.. فاشتريت حمصاً بقرش جعلته عشائى.. وكان لابد من

مكان أبيت فيه.. فبحثت عن **هذا المكان**، حتى أوصلنى طوافى إلى حديقة الظاهر، وأعجبنى ما حولها من **بناء أثرى**، فتسللت إليها ونمت نوماً هنيئاً إلى صباح اليوم التالى حيث **استأنفت** التجوال بحثاً عن المجد الذى كنت أحلم به!

من محطة مصر أو باب **الحديد توجه** الخميسى فى ثقة واعتزاز وهو فى بدلته الزرقاء التى كانت تخاصم **المكوجى** وطربوشه الكالح الفضفاض الذى يغطى جبهته للإقامة لدى **صديقه الأعزب** على الباز، وهو الشخص الوحيد فى القاهرة الذى يقبل إيواءه **وإقامته** فى منزله، وكان أيضاً من أبناء الدقهلية، رقاق أى عازف على **آلة الرق** مع الفرق الموسيقية التى تصاحب
ـم شارع محمد على، **طالما ساعده** من قبل فى تسويق مواويله وأغانيه، لكن الخميسى فى زياراته تلك **للقاهرة** كان يهيىء نفسه ويمنيها بالشهرة والرغد عبر اعتماده أديباً وكاتباً **مرموقاً** فى أى من الصحف والمجلات الأدبية التى نشرت له بعض إبداعاته التى **كان** يرسلها بالبريد من المنصورة.

لكن الخميسى عندما ذهب **يذكر** أصحاب تلك المجلات بنفسه ويعرض عليهم إبداعاته الجديدة لم يكن **يدرك** أن القدر يخبىء له مفاجأة، فإذا بهم ينكرونه، فلا واحد من بينهم رحب به، ولا جشم نفسه عناء قراءة أشعاره وقصصه، ويبدو أن هيئته المزرية **وملامحه** الريفية، ونحافته المفرطة، وشحوبه الظاهر، فضلاً عن نظارته السميكة **المتواضعة**، كانت العنوان وفاتحة الكتاب التى صرفت عنه الأنظار وسببت **فشله** فى إقناعهم بأنه هو لا غيره صاحب الإبداعات التى تذوب رقة **وجمالاً**.. **يقول** فى أوراقه:

لم يكن أصحاب تلك المجلات والمشرفون عليها قد شاهدوا وجهى حتى ذلك الحين، ولعل ذلك كان دافعهم لنشر قصائدى، فلو أنهم رأونى لشاهدوا شاباً شاحباً ينتعل صندلاً ويرتدى بنطلوناً أصفر قصيراً وقميصاً حال لونه.. كما وصفت نفسى فى ذلك الوقت:

طلل منتفض يمشى وقد

قصمت أضلاعه فأس القضاء

خرب الأنحاء يستوطنه

من معدات المنايا ألف داء

شاحب الجلد.. كأنى ميت

طرد اللحد رفاتى فى الخلاء

لو تراه العين.. لا تنكره

إنما تمطره سيل بكاء!

على أن الخميسى لم يستسلم لليأس والقنوط، تحلى بالصبر واستجمع إرادته وأحابيله وواجه المأزق بشجاعة، فإذا كان الشكل قد حجب الرؤية عن المضمون، فعليه أن يتأنق، وأن يشترى ثياباً جديدة ونظارة رقيقة، وأما عن تدبير المال الكافى لشراء لوازم الأناقة، فأكل العيش يحب الخفية، واليد البطالة نجسة، ومواهبه الشخصية وعزيمته الفولاذية قادرة على تذليل الصعاب، ومن ثم قبل الخميسى بالعمل كومسارى فى شركة أتوبيس سانت كروفت ، لكنه ضاق بالوظيفة ذرعاً عندما أدرك بعد أسابيع قليلة أن نمطها الرتيب كاد يزهق روحه، وجد فى البحث عن غيرها ولم يجد.

ويذكر الدكتور سيد حامد النساج في كتابه عن تاريخ القصة المصرية أن الحياة تقلبت بالخميسي فاشتغل في محل للبقالة، وكمسارياً، وفي جوقة مسرحية صغيرة تطوف بالقرى، ومعلماً بمدرسة أهلية، ومصححاً في إحدى المطابع، وغير ذلك من الأعمال التي لم يكن المجتمع ينظر إليها آنذاك نظرة تقدير واحترام.. وتعرف عن طريق هذه المجالات إلى كثير من أبناء الشعب الكادح.. وجعلته هذه الحياة الشقية يستشعر حقيقة المأساة التي تعيشها الطبقات الفقيرة والمطحونة في مجتمعنا المصري، مما جعله يزداد إيماناً بضرورة البحث عن حل جذري..

ولعل تلك هي الفترة التي استوحى الخميسي من أيام معاناتها قصته النوم التي يعتبرها الدكتور علي الراعي: من أروع قصص الخميسي، وتسجل زحفه الجريح في سبيل البحث عن مأوى، وينهي هذا الزحف الأسيان على ظهر عربة يد يجدها في طريقه فيفرشها ويروح يغطي جسمه المكدود الذي يكاد البرد أن يأكله ببعض القش.

بعد الوظيفة أدرك الخميسي أنه يحلق بعيداً عن سربه ومن ثم عاد أجواءه وعايش أربابه وأخذ يتردد على مقهى الشعراء في باب الخلق، منكباً على طاولة نائية يكتب الأغاني والمونولوجات حسب الطلب ويبيعها طازجة قبل أن يجف مدادها إلى مشاهير الشعراء وطلاب الشهرة والملحنين والمطربين والمنولوجستات ويكسب قوت يومه بالكاد.. وكان يشاركه في هذه الحرفة الشاعر الكبير أحمد مخيمر الذي كان يشترط عدم نسبة أغانيه إلى اسمه. ويقول الخميسي في بابه الأسبوعي حصاد الأسبوع بالجمهورية عن

ذلك المقهى إنه: كان ملتقى باعة اليانصيب وماسحى الأحذية والمتشردين، وأرباب السوابق، والضائعين من الفنانين والناس العاديين. ومازلت أذكر صورة أبو زيد الهلالى وهى مرسومة على أحد جدران المقهى بريشة ساذجة.. وكان على كل مرتاد لذلك المقهى أن يطلب قدحاً من البن أو الشاى وأن يدفع لقاءه قرشين اثنين مقابل أن يحتل كرسياً من الكراسى ابتداء من الساعة الواحدة بعد منتصف الليل حتى السابعة صباحاً. ومن هنا أطلقوا على ذلك المقهى اسم مقهى اللوكاندة! ويضيف الخميسى: وكنت أقمت فى حجرة فوق سطح أحد البيوت بشارع محمد على، وتراكم على إيجارها ثلاثة شهور، فطردتنى صاحبة البيت البدينة.. وفرحت باكتشافى لهذا المقهى

ويذكر الخميسى أنه تعرف فى هذه الفترة من عام ١٩٣٨ على الشاعر الكبير أحمد رامى رئيس قسم الفهارس الأجنبية فى دار الكتب ومحمود يوسف رئيس قسم الفهارس العربية، فكانا يعيرانه حاجته من الكتب على مسئوليتهما الخاصة، إذ كانت اللوائح تسمح بالإعارة فقط لمن لديه عمل ثابت وعنوان يستدل عليه، وبين حين وآخر كان الخميسى يذهب للقاء الإذاعى الكبير محمد فتحى الذى أتاح له تقديم أشعاره بصوته عبر الأثير، وتعهده بالتدريب على كتابة التمثيليات الإذاعية وإخراجها وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، وعندما يأتى المساء يترجل لبضع خطوات مع صديقه على الباز من مسكنه إلى مقهى الآلاتية فى شارع محمد على، وكانت ملتقى العازفين فى الفرق الموسيقية التى تصاحب العوالم والراقصات والمطربين الذين احترفوا إحياء الحفلات والأفراح والليالى الملاح، وفرق

السيرك والمنوعات التى تجوب ربوع البنادر والقرى والدساكر، وكانوا غالباً على حد وصفه من المحترفين للكار وأولاد حظ وأبناء نكتة وأصحاب كيف، وهكذا على عادة الخميسى ألف تلك الأجواء الزاخرة وكان غاية فى الانسجام مع أنماطها البشرية العجيبة، وتعلم ألف باء الموسيقى وفنون الغناء والتمثيل والسيرك، وعشق ليالى السهر والصعلكة والمغامرات العاطفية.

وروى لى ــ يرحمه الله ــ أنه كان فى حالة نفسية ومادية تدفعه للتجريب، وقد استهوته فى البداية آلة البيانو النقالى الذى كان يعمل عبر قربة للنفخ كآلة الأوكورديون، واستطاع خلال فترة قصيرة من التدريب على العزف أن يستأجر بيانو من هذا النوع ويصاحب الفرق الموسيقية.

وكان يكسب قليلاً أو كثيراً، لكنه فى غالب الأحيان يبيت على الطوى ويصرف ما فى الجيب ــ على داير مليم ــ حتى يأتيه ما فى الغيب. وكانت الحرب العالمية الثانية فى أوجها، حيث نشأت طبقة جديدة من أغنياء الحرب تضم الموردين والمقاولين المتعاملين مع الجيش البريطانى، وتَجار مخلفات الحرب من الملابس والمعدات المستعملة والحديد الخردة، وهؤلاء كانوا يبعزقون أرباحهم الطائلة فى سعة على السهرات والأفراح والمزاج بمناسبة وبدون مناسبة، ومن هنا انتعشت الكباريهات وانتشرت الحانات وغرز تدخين الحشيش، وألوان الرذيلة، وراجت فنون القعدات الخاصة.

و فى مقهى الآلاتيه كان يجلس سماسرة محترفون ذوو خبرة بإحياء الأفراح والليالى الملاح حسب الطلب وعلى قد الحال و اطبخى يا جارية.. كلف يا سيدى!

كانت هناك كذلك فئة أخرى من السماسرة المتخصصين فى تدبير الفتوات الذين يصاحبون العوالم والراقصات لحمايتهن من الاعتداء فى الأفراح التى يتعاقدن على إحيائها فى بعض أحياء القاهرة الشعبية المشاكسة مثل بولاق وحوش الشرقاوى والحسينية والمدبح واسطبل عنتر حيث كانت الأفراح غالباً ما تنقلب فجأة إلى أتراح ومعارك حامية الوطيس وتتحول الأضواء الباهرة إلى ضلمة بمجرد إلقاء أول كرسى فى أول كلوب! وكان هناك فتوات أكثر بأساً للإيجار من المدججين بالشوم والسكاكين والطبنجات لزوم السفر إلى الصعيد الجوانى حرساً حديدياً للعوالم من اعتداءات قطاع الطرق خشية تجريدهن من حصيلة النقوط والمصوغات الفالصو التى كانت تلعلع تحت الأضواء وكأنها ذهب بندقى أو ألماظ وبريلينت.. وربما خشية الاغتصاب. والطريف أن بعض أصدقاء الخميسى من الظرفاء أشاعوا اشتغاله فتوة من هذا النوع، وعندما سألته عن الحقيقة ضحك وقال: ياريت! لكن المشكلة أيامها أن شحوبى ونحافتى الظاهرة كانت تطرحنى دوماً بعيداً عن اختيار سماسرة الفتوات!

على أن مهمة سماسرة قهوة الآلاتية لم تكن تقتصر على تلك المهمات فحسب، بل كانت تمتد إلى تأجير الرجالة الخيخة أو كمالة العدد، حيث يرتدون اليونيفورم الخاص بعازفى الفرق النحاسية مثل فرقة حسب الله، وعليهم أن يواصلوا مثلهم النفخ فى الآلات الموسيقية وتحريك أزرارها بأصابعهم بشرط ألا يصدروا عنها أى صوت خشية اكتشاف أصحاب الفرح أن العدد فى الليمون.. وأن نصف الفرقة عازفون بحق وحقيقى والبعض الآخر لابس مزيكة وكمالة عدد فحسب!

وحكى لنا الخميسى أن الست أنس أشهر عالمة فى زمانها كانت قد وصلت إلى مقهى الآلاتية فى عربة حنطور تطلب عازفاً ضريراً، إذ كان عليها فى تلك الليلة إحياء فرح كبير لدى عائلة محافظة والحضور مقصور على السيدات وكل العازفين وأفراد فرقتها لا مفر من أن يكونوا جميعاً حسب الطلب من الجنس اللطيف.

لكن سماسرة قهوة الآلاتية اعتذروا عن الاستجابة لهذا الطلب.. وذلك أن كل العوادين العميان كانوا متعاقدين على إحياء أفراح فى تلك الليلة مع غيرها من عوالم شارع محمد على، وكان الخميسى يستمع إلى الحديث، فإذا به ينبرى إلى اقتراح عملى للمشكلة بأن تستعيض الست أنس عن العواد الضرير بعواد مبصر.. يضع على عينيه نظارة سوداء ويصطنع العمى الحيسى!

وهللت الست أنس للفكرة.. وألقت إلى الخميسى بـ نص فرنك بقشيشاً.. وكانت هذه أول سبوبة من الرزق تدخل جيب الخميسى فى هذه الليلة المفترجة حيث صحبها لتمثيل دور عازف العود الضرير..

وفى الصباح كان لا حديث فى قهوة الآلاتية إلا عن هذا العازف الذى خرج عن دوره وطوره، وبدأ يغازل إحدى المدعوات بكلمات مكشوفة موجهة إليها وكانت آية فى الجمال والدلال والأناقة، وعندئذ اكتشفت من دقة وصفه لها أنه مبصر ، وعندئذ فقعت بالصوت الحيانى قائلة: الحقوا يا ستات غطوا وشكم.. الراجل ده مفتح مش أعمى! وكانت فضيحة بجلاجل، انهالت بعدها كعوب الأحذية الحريمى فوق رأس الخميسى أولاً،

فما أن تم طرده خارج الفرح حتى نال قسطاً وافراً من لكمات الجنس الخشن، وفى الصباح كانت أخبار الفضيحة على كل لسان فى شارع محمد على، وتحدث بها الركبان فى مجتمعات القاهرة. ومنذ تلك الليلة الليلاء وعى الخميسى الدرس جيداً، وظل حريصاً على تقمص الدور الذى يؤديه كممثل والشخصية التى يتلبسها على مسرح الحياة!

أحمد كشكش يكتشف شكوكو

كان الفنان أحمد المسيرى صاحب فرقة مسرحية شعبية جوالة ذائعة الصيت، وعلى مدار العام كانت الفرقة تجوب ربوع مصر فى رحلتين طويلتين غاية فى المشقة والإثارة، رحلة الصيف فى مثلث الدلتا، ورحلة الشتاء على امتداد خط الصعيد، ولم يكن مهماً أين تعرض الفرقة أعمالها المسرحية الغنائية.. فى قاعة أو فى مولد.. وربما فى الشارع أو على المصطبة، فما أن يأتى فصل الربيع أو الخريف حتى يستقر المسيرى بفرقته فى القاهرة طلباً للراحة وتجديد عناصر الممثلين والمطربين والعمال والديكورات، وإعداد البرامج الفنية الجديدة فى ضوء ما أسفرت عنه عروض الفرقة من ربحية مالية ومدى اجتذابها للمشاهدين فى الريف والبنادر من عدمه.

فى هذه الأجواء الفنية المدهشة تفجرت مواهب الشاعر الظريف عبد الرحمن الخميسى تباعاً.. كما لو أنها شلالات من الإبداعات والإنسانيات، حيث كان له فى تلك التجربة المثيرة مكان ومكانة وقدرة واقتدار قلما تتوافر فى غيره على اقتحام المجهول وكل جديد فى شجاعة وجسارة نادرة!

وقد تعرف الخميسى لأول مرة على المسيرى عندما جاءه إلى ركنه المعهود فى قهوة الآلاتية، يقدم نفسه بعد أن أرسل إليه فنجان قهوة سادة، وقال المسيرى للخميسى: سمعت عن ظروفك ومغامراتك فى شارع محمد على، وأعجبنى بعض أغانيك ومنولوجاتك.. وأحسست أننى أمام فنان كبير وصعلوك عظيم.. وأننى قريب منك.. وأننا متشابهان.. وأنك ضالتى.. وتمنيت أن تشتغل معى؟

وكان الخميسى يسمع عن المسيرى وعن فنه غير المسبوق وشهرته الواسعة على كل لسان فى شارع محمد على.. ولذلك أجابه فى لهفة:

تحت أمرك بس أعرف الأول ح أشتغل إيه فى فرقتك؟

قال المسيرى: كل حاجة وأى حاجة..

وقال لى الخميسى أنه وافق على العمل مع المسيرى لأن العمل فى فرقته جماعى وبروح الفريق والمكسب بالتساوى وحسب الظروف الاجتماعية لكل عضو، وقال: ولذلك صادف انضمامى إلى الفرقة ميولى الاشتراكية وعشقى للسرمحة والمغامرة والتجريب!

وروى لى الخميسى الكثير عن الفنان الشامل أحمد المسيرى، فقد كان معلماً للأجيال الجديدة ومؤلفاً مسرحياً وغنائياً، وكان ممثلاً ومخرجاً، وكان ملحناً ومطرباً وراقصاً وماكييراً وديكوريست ونجاراً وكهربائياً ومديراً ومحاسباً وقاطع تذاكر.. وأنه كان عبقرياً فذاً فى كل ذلك!

ومن غرائب هذه الفرقة أنها كانت لا تتقيد بنصوص مكتوبة سلفاً، فكل المسرحيات الدرامية والكوميدية والغنائية كانت أحداثها تجرى على

خشبة المسرح ارتجالاً من وحي اللحظة، مع تطعيم الأحداث بالواقع وعادات وتقاليد ومشكلات وبهجة وفكاهات البلد أو القرية التي تقدم الفرقة عروضها أمام جمهورها، وكثيراً ما كان الممثلون يتبادلون الحوار والنكت والقفشات مع الجمهور!

وكان المسيرى يسخر في رواياته من الملوك والحكام الظالمين، كأن يقع فلاح كادح مسكين في هوى بنت الملك، وعندئذ تقوم الدنيا ولا تقعد، وهي لا تقبل بالزواج من ذوى الملك والصولجان، وتدافع عن حبها حتى تفوز بمحبوبها، وخلال تسلسل الأحداث يسخر المسيرى من الملك وحاشيته والنظام الملكي برمته، ويكشف عن قيمه الفاسدة واستبداده وهيبته الزائفة، والانتصار دوماً للشعب وإعلاء قيم الشرف والتضحية والعدل والمساواة والحرية والحب!.

ومن هنا استطاع أحمد المسيرى أن يمارس التعبير الفني على النحو الذي يتجاوب مع تطلعات السواد الأعظم من الشعب، وللأسف أن أعماله لم تجد طريقها إلى التسجيل، باستثناء بعض ألحانه الشعبية المسجلة التي قدمها شكوكو وشفيق جلال وسعاد مكاوي وثريا حلمي، وكذا أغاني الأفراح والمناسبات التي لا تزال تتردد حتى الآن.

كان النص المسرحي يتغير كل ليلة، وكان الجمهور لذلك يعاود الفرجة على مسرحيات الفرقة مرة ومرات، فكل ليلة كانت المسرحية تختلف في أحداثها وعبارات أبطالها عنها بالأمس، حتى الأدوار كان يجرى تبادلها بين الممثلين، والذي وقع عليه الاختيار للقيام بدور الملك بالأمس، قد يؤدي غداً

دور الوزير أو الخفير أو اللص، وربما كان عليه ــ وهو الأعجب ــ أن يؤدى دور الجارية مرجانة أو الراقصة كهرمانة.

وكما كان الخميسى ضالة المسيرى، كان المسيرى المعلم والمتعدد المواهب ضالته إلى الفن من أوسع أبوابه، حيث اكتسب الخميسى ثقة غير محدودة بالنفس واستطاع أن يرتقى من ممثل صغير إلى النجم الأول للفرقة بعدما اجتاز امتحان مواجهة الجمهور كل ليلة بنجاح، كما نمت لديه ملكات اليقظة وسرعة البديهة عبر التجاوب مع زملائه الممثلين عندما كانوا يفاجئونه بعبارة أو حركة أو موقف جديد على خشبة هذا المسرح التلقائى.

وكنت دائماً أشعر من خلال رفقتى للخميسى أن تلك المرحلة الخصبة التى عاشها مع فرقة المسيرى تركت بصماتها العميقة فى شخصيته، وفى نظرته إلى الحياة وتعامله مع صنوف البشر، ومجابهته الجسورة لمختلف المصاعب والمشكلات، فيما شكلت هذه الفترة حصيلة خصبة من ذكرياته الغزيرة النادرة، فكانت منطلقاً لأفكاره وطموحاته التى سجلها فى بعض أعماله القصصية والروائية فيما جسد بعضها الآخر فى مراحل لاحقة على أرض الواقع.

وكانت أولى مواهب الخميسى التى تفجرت أثناء عمله مع فرقة المسيرى اتقانه ونبوغه فى تأليف المسرحيات والمسلسلات الإذاعية وفن التمثيل والإخراج والموسيقى والتلحين وفى اكتشاف غيره من المواهب الضائعة إلى جانب صقل موهبته الشعرية وإطلاق السخريات الضاحكة وحبك المقالب الجهنمية.

ولأنه لم تكن ثمة فوارق اجتماعية أو وظيفية بين الفنانين وعمال الفرقة، من هنا توثقت العلاقات بين الخميسى ونجار الفرقة محمود شكوكو الذى أفضى إليه بسره الدفين، وأنه يتحرق شوقاً إلى التمثيل والغناء الخفيف لكنه يتهيب التجربة، واقتنع الخميسى بموهبة شكوكو.. وكتب له خصيصاً عدداً من المنولوجات والاسكتشات الغنائية.. ولحنها بنفسه، ودربه عليها حتى أتقنها، ثم فاجأ المسيرى والجمهور وقدم شكوكو لأول مرة على المسرح خلال مشاهد إحدى مسرحيات الفرقة.. ونجح شكوكو كما لم يتوقع أحد.. وكان لوناً جديداً خفيف الظل.. الأمر الذى شجع شكوكو على إطلاق بعض النكت التى تثير الضحكات.. وكان هذا اللون غير معزوف فى عروض الفرقة من قبل!

ويبدو أن الخميسى قد استهوته اللعبة فقد انتقل من فرقة المسيرى إلى غيرها من الفرق الجوالة الأخرى ولعله كون بنفسه بعض هذه الفرق وألف وأخرج ومثل لها على النحو الذى ألفه مع أستاذه، ولا نعرف على وجه التحديد السنوات التى قضاها الخميسى فى هذا العمل الشاق الممتع، ولا الفنانين الشعبيين الذين عمل معهم، كل ما نعرفه أن ذلك تم إثر انتقاله من المنصورة واستقراره فى القاهرة، وأن الالتحاق بهذه الفرق التمثيلية الغنائية وغيرها من فرق السيرك الجوالة قد حقق له آنذاك إحدى أمنياته الغالية، إذ نقرأ له فى مقال بجريدة الجمهورية فى يونيو ١٩٦٣ مايلى:

وعندما ماتت أمى ومات أبى قررت أن أطوف بكل بلدان القطر المصرى، وأن أمتزج بالناس في كل مدينة.. ومادام الإنسان هو مادة الفن فيجب أن أعرف إنسان بلادى، ولعل السنين التى أمضيتها فى الطواف بكثير من البلدان

قد وثقت ارتباطاتى بالبسطاء، ووثقت حبى لشعب مصر.. كما أنها منحتنى من ذخائر التقاليد الشعبية وطرائق التعبير البسيط كنوزاً لاتقدر بمال.

وقد لا يعلم أحد أن الخميسى الذى خالط عوالم شارع محمد على كان وراء ابتكار تمثال من الجبس للراقصة زوبة الكلوباتية التى ذاع صيتها فى الأربعينيات، وكانت تؤدى رقصاتها وعلى رأسها الشمعدان، أو على كتفيها عصا يتدلى منها كلوبان مضاءان بالغاز.. وقد انتشر تمثال زوبة الكلوباتية فى كل البيوت.. وكان باعة الروبابيكيا ينادون عليه فى الشوارع زوبة بقزازة أى مقابل زجاجة فارغة. وقد صحبنى الخميسى والرسام مأمون لزيارتها عام ١٩٦٢ ، وكانت تسكن فى إحدى بنايات شارع محمد على بعد أن انفضت عنها مظاهر الشهرة والثراء والشباب، وشاهدنا تمثالها الشهير، بينما أجريت معها حديثاً طويلاً وممتعاً نشرته مجلة روز اليوسف عن أصول الرقص أيام زمان، وانتقادها لراقصات اليومين دول وجهلهن بأصول الرقص الشرقى، والفرق الكبير بين رقصة الرعشة ورقصة شمعة البحر ورقصة الفشخة!

والخميسى هو الذى اختار أيضاً لشكوكو زيه التقليدى، الزعبوط المدبب والجلابية البلدى المخططة.. والعصا المعقوفة، وعندما كانت فرقة المسيرى تقدم عروضها فى بلدة حجازة القريبة من الأقصر.. لاحظ الخميسى أن أهل البلدة من سلالة الفراعنة.. ومازالوا يحترفون صناعة الفخار الفرعونى وتقليد تماثيل الفراعنة.. واختار واحداً من أبرخهم وطلب منه أن يصنع تمثالاً لشكوكو.

ونجحت الفكرة فى جذب المزيد من الجمهور.. وكان تمثال شكوكو يباع أمام مسرح المسيرى. وبعدها انتقلت الفكرة إلى القاهرة بعد نجاح شكوكو فى تحقيق شهرته، وأصبح تمثال شكوكو المصنوع من الجبس سلعة رائجة يقبل على اقتنائها الكبار والصغار خاصة بعد أن أصبح وإسماعيل ياسين القاسم الكوميدى المشترك فى معظم الأفلام السينمائية فى الأربعينات!

وروى لى الخميسى أنه كان يجلس ذات مساء مع المسيرى فى قهوة الفن بشارع عماد الدين وليس فى جيب أى منهما مليم أحمر، إذ كانت الفرقة قد توقفت عن العمل بعد أن تكاثرت عليها الديون، وفجأة دخل شكوكو، وكان مظهره يوحى بالثراء والنعيم حتى كادا يطلبان منه بعض المال إلى حين ميسرة، لكنهما تراجعا، حين بادر المسيرى شكوكو قائلاً: عندى لك منولوج ح يكسر الدنيا بس إيدك الأول على عشرة جنيه. ودفع المبلغ عن طيب خاطر، وإذا بالمسيرى ينكب على الورق يكتب، والخميسى يفكر.. فكانت ولادة منولوج شكوكو الشهير ورد عليك.. فل عليك، يا مجننى بسحر عنيك على أن أشهر منولوج كتبه الخميسى فى تلك الفترة وتردد صداه فى الأفراح وصالات المنوعات هو قطعنى حتت أنا ملك ايديك.. وعنيه حكت ع الشوق لعنيك

وكان الخميسى قد نشر فى جريدة الجمهورية فى عام ١٩٦١ قصة بعنوان البهلوان المدهش أحمد كشكش ثم أعدها حلقات للإذاعة فى مسلسل بنفس الإسم، ووضع موسيقى وأغنيات المسلسل ولحنها بنفسه،

لكنه فوجئ باسناد المسلسل إلى مخرج شاب بلا تجربة، وثار وهاج وماج وأصر على أن يتولى إخراج المسلسل بنفسه، وخاصة أنه مخرج إذاعى معتمد وله عشرات المسلسلات الناجحة التى قام بإخراجها من قبل!

وعندما سأله عبد الحميد الحديدى مدير الإذاعة آنذاك عن سر ثورته وقد سبق له أن تنازل لغيره عن إخراج بعض أعماله.. قال الخميسى: السبب بسيط.. أن أحمد كشكش بلحمه وشحمه هو أنا عبد الرحمن الخميسى. لكن مشاغل الخميسى حالت بعد ذلك دون استمراره فى إخراج المسلسل، إذ كان يكتب الحلقة صباحاً فى الاستديو لتذاع فى المساء، ومن ثم وافق على إسناد المهمة للمخرج الشاب.

كانت وقائع وأحداث المسلسل بانوراما حافلة وصادقة لحياة بهلوان السيرك أحمد كشكش أو عبد الرحمن الخميسى.. أعنى مغامراته وتجاربه وأفراحه وأحزانه ونجاحاته وإحباطاته فى أجواء فرقة المسيرى التى فرضت عليه الاحتكاك بفرق السيرك فى الموالد والمناسبات، وعقد الصداقات الحميمة مع نجومها وأبطالها والاقتراب من حياتهم وأفراحهم وعذاباتهم!

وأذكر أن الخميسى وقع اختياره على الفنانة سميحة أيوب للقيام بدور البطولة كمدربة للأسود فى المسلسل أمام حبيبها البلهوان أحمد كشكش الذى يمشى ويلعب على الحبل، وكان من عادة الخميسى أن يعيد تسجيل فقرات الحلقات عدة مرات حتى يصل أداء الممثلين إلى الكمال، ويبدو أن سميحة أيوب كانت تعترض على أسلوب الخميسى فى الإخراج، وربما لم تبد استجابة لشطحاته الفنية أو الشخصية، ولذلك قرر فى الحلقة الرابعة أن

يدخل تعديلاً على النص لكى يتخلص منها.. وإذا بالأسد الذى كانت تروضه فى السيرك يهجم عليها فجأة وينشب فيها أظافره وأنيابه قبل أن يتدخل أحد لإنقاذها!

وأدركت سميحة أيوب الأسلوب الجهنمى الذى اختاره الخميسى للانتقام منها، وأنها فقدت دورها بموتها فى هذه الحلقة، وضاع عليها المال والشهرة المحققة عبر دورها فى المسلسل، وتوسط أصدقاء الطرفين لحل المشكلة.. وكان بينهم الشاعر كامل الشناوى والكاتب الصحفى محمد عودة والسيد بدير والناقد أحمد عباس صالح والمخرج الإذاعى يوسف الحطاب.. حتى تم الصلح بينهما وقبلت بالرضوخ لأوامره والتغاضى عن شطحاته. وهكذا فوجىء المستمعون للمسلسل فى الحلقة السادسة بصوت البلهوان أحمد كشكش فى المستشفى وهو يسأل الأطباء والممرضات عن أخبار حبيبته ويدعو لها بالنجاة والحياة.. ثم يفتح باب غرفة العمليات ويخرج الطبيب الجراح ويقول: الحمد لله جت سليمة.. مجرد خدوش بسيطة فى الرقبة.. إن شاء الله تقوم بالسلامة وترجع لشغلها.. ولعلعت زغاريد الفرح بنجاتها، وهكذا عادت سميحة أيوب لتمثيل ما تبقى من حلقات المسلسل، وتواصلت قصة الحب التى جمعتها مع البهلوان المدهش حتى اختل توازنه وهو يمشى على الحبل فسقط على الأرض صريعاً !

وإذا كان الخميسى قد فسر لعبد الحميد الحديدى مدير الإذاعة غضبه من إسناد المسلسل لمخرج آخر بأن أحمد كشكش البهلوان هو بشحمه ولحمه عبد الرحمن الخميسى، كاشفاً بذلك عن إدراكه لجوهر حياته

وارتباطاته الشعبية بأوسع قطاعات الفن **الشعبى** من سيرك وتمثيل وغناء وتأليف **مرتجل**، فإن الخميسى **عاش يتصور نفسه** من خلال شخصية أخرى غير أحمد كشكش هى شخصية **الأستاذ معروف**، وكان أمله أن يجسد هذه القصة التى ألفها فى السينما أو المسرح، **لأنها** تصور حياته. والأستاذ معروف حسب ما كتبه الخميسى **هو** فنان **فقير مرتبط** بالفقراء، يعيش وحيداً، إلا من قطة، ويسهر الليالى ليسعد الناس الذين **لا** يفهمونه.

المشير عامر وزمرة السوء

يعترف شاعرنا الفنان عبد الرحمن الخميسى أن إبداعاته الغضه فى المنصوره وريف الدقهليه إبان ارتباطه بوالده، أو خلال تنقله بصحبة والدته بين بورسعيد والسويس، كانت تتسم بالعفويه واللامنهجيه، وأشبه ما تكون بالعشوائيه، لكنها على أية حال شكلت مرحلة ولادة موهبته ومعرفته لذاته، والتحضير لمرحلة الانفتاح على الحياة الثقافية والفنية الأوسع التى قدر له طرق أبوابها والولوج إلى ساحاتها بعد وصوله إلى القاهرة والإقامه والعمل بها بشكل دائم منذ يناير عام ١٩٣٧

يقول الناقد الراحل فؤاد دوارة فى دراسة مستفيضه عام ١٩٨٧ عن بدايته الأدبية: على الرغم من الظروف التعيسه والقاسيه التى أحاطت بطفولة عبد الرحمن الخميسى، إلا أن باكورة انتاجه الأدبى، كانت علامه مبكره على موهبته الواعدة وإبداعاته المتميزة ومنذ السادسة عشرة من عمره، فمن حيث الشكل اتسم شعره بالشفافيه الرومانسيه، وأسلوبه الشيق البسيط فى الكتابة النثرية والقص الصادق المؤثر، ومن حيث المضمون كان أقرب إلى الواقعية خاصة فى معالجته لمأساته ومأساة الضعفاء والمحرومين. وفى قوة

تصويره للعقبات التي اعترضت طريقه، والصعاب العاتية التي واجهته، وبالرغم من ذلك فقد نجح بقوة إرادته وحدها في تجاوزها، مما أسهم في تكوين تلك الظاهرة الإنسانية الأدبية والفنية التي تجسدت ونضجت في مرحلة الشباب والرجولة!

ولا شك أن هناك مؤثرات بعينها لعبت الدور الهام في تكوين شخصيته الإنسانية، واتضاح موهبته الفنية الخصبة وما أفرزته من إبداعات متعددة وغزيرة، فقد كان لحرمانه المبكر في طفولته من حنان الأم، أثره في إرهاف حساسيته، وتنشيط مخيلته ليسترجع عن طريقها ذكريات سعادته القصيرة في أحضانها، والحساسية والخيال هما وقود الشعر.. بل الفن كله.

وقد أسهمت الحكايات والأساطير التي كانت ترويها له الأم خلال فترة سعادتها القصيرة في تنشيط خياله وملكاته الإبداعية، بينما تمثل المواويل الحزينة التي كان ينشدها أبوه، بداية اهتمامه بالموسيقى والغناء، ولعله ورث عنه رخامة الصوت والأذن الموسيقية، وروى لي ــ يرحمه الله ــ أنه كان يستمتع في طفولته برجل عجوز في قريته منية النصر، كان أنيس والده معظم ليالي الأسبوع، إذ كان يروى على مسامعه حكايات السير الشعبية، وفي بورسعيد كانت لوالدته جارة يونانية مولعة بالموسيقى الكلاسيك والأوبرا، فكان يقضي معظم وقته يستمع لما عندها من الأسطوانات على جهاز الجرمفون اليدوى!

على أن مصادفات القدر السعيدة هيأت الفرصه الذهبية المواتية لبلورة فكر الخميسي ومنهجيته، عندما التقى لأول مرة بالشاعر العظيم خليل

مطران في القاهرة عام ١٩٤٠ .. يقول في أوراقه: عندما قرأت لمطران أدركت أنه ضالتي وسعيت إليه، عرضت عليه انتاجي الشعري فاستقبله بالبشر والترحاب والتشجيع، ورعاه بعنايته كوليد، وأخذ بيدي على مدارج النمو، وكنت أنظم الشعر ودائماً ما يعتمده ويجيزه، ويشجعني على نشره في مجلات الرسالة والثقافة والمقتطف.

كان مطران يختار لي ما أقرأه، ثم يناقشني بعد مطالعتي لكل كتاب، وقد فتح لي مكتبته الخاصة على مصراعيها، وعلمني كيف أفهم دقائق الشعر وتطور الأدب وفن المسرح، وكان يطالبني بقراءة علم النفس الفردي والاجتماعي، ثم عهد لي بنظم أشعار بعض المسرحيات التي كان يقدمها المسرح القومي في ذلك الحين.

وعن خليل مطران الإنسان يقول الخميسي: كان إنساناً نقياً صافي النفس والضمير، شفافاً وحساساً يؤمن بالخير لكل إنسان، وحين امتدت علاقتي به ظل يؤصل في نفسي على الدوام قول أمي لي وأنا طفل يابني إعمل الخير وإرميه البحر!

وقد كان هو كذلك يقضي سحابة يومه في السعي لوصل أرزاق الناس، ويوزع مرتبه على الفقراء والمساكين، وكان يكلفني بأن أحمل مطلع كل شهر عدة ظروف مغلقة إلى منازل متعددة، فهذه أرملة عجوز مات عنها عائلها وليس لها من دخل غير عون الله ثم مطران، وهذا يتيم يدفع مطران لأسرته مبلغاً شهرياً مقابل كفالته.

ولعلى من هنا آمنت بأن الإنسان على ضوء محبته للناس والأشياء، يستطيع بذلك أن يمتلك النور الذى يكتشف به أسرار الحياه، وأن يرى كل أجزاء المثل الأعلى بادية أو خافية داخل كل ظاهرة.

لقد كان خليل مطران الشاعر على رأس المدرسة الرومانتيكية الثورية بحق، ولعلنا نذكر أن الحكم العثمانى الذى أناخ بوطأته الاستبدادية على ربوع الوطن العربى حاول اغتياله، لأنه كان يقاوم ذلك الاستبداد فى مجالسه وفى شعره، وهو القائل حين فرضت الرقابة على فكره وقلمه:

كسروا الأقلام، هل تكسيرها

يمنع الأيدى أن تنقش صخراً

قطعوا الأيدى، هل تقطيعها

يمنع الأيدى أن تنظر شذراً

أطفأوا الأعين، هل إطفاؤها

يمنع الأنفاس أن تصعد زخراً

أغمدوا الأنفاس هذا حسبكم

وبه منجاتنا منكم.. فصبراً!

لقد كان خليل مطران طليعة المجددين للشعر العربى الحديث، وأكثرهم شفافية ورقة وتجربة، وأشدهم التزاماً بالقيم الأخلاقية والوطنية، وإيماناً لا حدود له بحتميات الوحدة العربية، بدايةً بقطبيها مصر وسوريا، ولذلك خلعوا عليه لقب شاعر القطرين.. وفى ذلك يقول:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب

هنا العلا، وهناك المجد والحسب

جدير بالذكر أننى وجدت بين أوراق الخميسى صفحة منزوعة من مجلة المجلة المصرية التى ظهرت مع بداية القرن العشرين، وفيها حديث لخليل جبران يروى فيه أحداث حفل مسائى لسماع القرآن الكريم فى منزل صديقه حسين بك شاهين، وهناك شد انتباهه صوت قارئة كفيفة من الفيوم.. يقول أنها صالحة تقية إذا رتلت القرآن بعد وضوء، ويعلق على هذا بأن (شدة العقيدة هى التى تكسب صوتها تلك الرنات التى تنفعل بها نفوس السامعين انفعالاً غير مألوف).

ولا أريد أن أحرم القارىء الكريم بالتصرف والاختزال من أفكار خليل مطران التى عبر عنها بأسلوبه الأخاذ الممتع الدقيق حيث يقول: وأول ما سمعناه منها صورة يوسف. ففى تلاوة القسم الأول منها وهو مقدمة المواضع المؤثرة فى القصة كان صوتها يسلسل الآيات كعد الجواهر على صفاء وكان تلحينها مستوياً كأنه ممهد لما يتلو. فلما ألقى يوسف فى غيابة الجب ثم نقله السيارة إلى مصر، وجرى له فيها ما جرى من عظيم الأمور أخذ الصوت ينتقل بين المحزن والمفرح، والترغيب والترهيب، والقرع والزجر، والوعد والوعيد.

وكلما تمادت فى القراءة عظم الشعور فى نفس الحضور وجميعهم من ذوى الأدب والمقام يصغون حق الإصغاء للقول الشريف الذى يتلى عليهم ثم يكون صدى شعورهم التكبير والتهليل فى غاية من الحشمة والوقار. وأذكر أنها لما وصلت إلى قول أخوة يوسف له (وتصدق علينا) رق صوتها

وحن ولطف حتى طفرت الدمعة من عينى. على أننا سمعنا بعدها سورة آل عمران.. وانصرفنا ذاهلين ممتلئة نفوسنا سروراً.

وحين تتلمذ الخميسى على مطران كانت مصر تمر بظروف مليئة بالقهر الاجتماعى، فوقع ذلك التجاذب نفسه بين اتجاهه الرومانتيكى الثورى وبين ما يعتمل فى نفسه من مشاعر تجاه المظالم الاجتماعيه التى كان يراها تقع فى مصر.

كذلك كان لسلامة موسى المفكر والعالم شأن هام ودور جوهرى فى بلورة إدراكه لوظيفة الفن، وقد تعرف عليه عندما كان يحاضر فى جمعية الشبان المسيحيين عام ١٩٤١، وهو أول من وجهه إلى فهم الصلة بين الفن والعلم، فإن لم تكن لهما وظيفة اجتماعية فقد انعدمت فائدتها للناس.. يقول: ومن هنا استطعت أن أزاوج بين اتجاه مطران الإنسانى والفنى، وبين اتجاه سلامة موسى العلمى والثورى، ولم يكن بين الاتجاهين تناقض، وإنما انسجام وتمازج فى وشيجة حيه تفيض بالوعى، الأمر الذى أفسح أمامى طريقاً طويلاً وعريضاً، احتشدت عبره بكل إمكاناتى الفنية والفكرية للتعبير عن آلام الشعب وطموحاته للتغيير إلى الأفضل.

ويذكر الخميسى بالخير والثناء فضل فقيد الشعر المرحوم إبراهيم ناجى الذى لم يبخل عليه بأسرار تجربته الشعرية، فكان يسميه طبيب الشعراء وشاعر الأطباء، ولعل من مفارقات الحياة أن تزوى قصائده فى كتب الأدب المدرسية زمناً طويلاً، حتى زاعت واشتهرت عندما غنت له أم كلثوم عام ١٩٦٧ من تلحين رياض السنباطى قصيدته الأطلال، التى حازت على

لقب أجمل أغنية فى تاريخ الغناء العربى، يقول ناجى عن نفسه: ما أظلم القدر! فقد شاء أن أكون طبيباً، وليس بالطب من حرج، وإنما الحرج أن يكون الخيال مركباً فى طبيعة الإنسان، فإذا بالقدر يواجهه بالواقع ويصدمه، ومن هنا راح ناجى يوزع حياته بين ممارسة الطب ونظم الشعر، وكان يكسب كثيراً من دخل عيادته، ثم ينفقه تباعاً على أصدقائه من صعاليك الشعراء أمثال الخميسى وعبد الحميد الديب ومصطفى حمام.. ويقول الخميسى: لقد بذل هؤلاء الأساتذه الرواد، من الرعايه والتشجيع وإنكار الذات بالقدر الذى كان يشد من عزمى ويمنحنى القوة والإصرار على مواصلة الطريق، ولقد أحسست بالصعوبات التى يواجهها المبتدئون، حين كابدتها كأثقال من حديد فوق كتفىَّ المرتفعتين وفى قدمىَّ اللتين تريدان الانطلاق، وزاد من تلك الصعوبات، وضاعف من تلك الأثقال أنى كنت وحدى، لا تساندنى عائلة قادرة، ولا يؤازرنى رزق موصول، ولا يحمينى سقف ممدود!

وفى مرحله لاحقة عام ١٩٤٠ تعرف الخميسى على الشاعر كامل الشناوى الليبرالى بعشقه للحرية والانطلاق وفكره الوسطى بين مختلف الأفكار والعقائد والأيديولوجيات، وهو الذى عمق فى ضميره عشق الناس على اختلاف نوازعهم ومعتقداتهم، وأن الحقيقه كما الناس لها أكثر من وجه فلا داعى للتعصب والمصادرة على المطلوب، وقد اختار الشناوى للخميسى لقب القديس وروج له، حتى توارى اسمه الحقيقى تدريجياً وراء اللقب، وكان قد رآه يوماً يجود بكل مرتبه لأرملة زميل له فى صحيفة الجمهوريه ومعها كوم من الأولاد تسأله المساعدة، حتى بكى من فرط

التأثر. قصة أخرى شاعت فى تفسير منشأ لقب القديس على الخميسى وهى القصة الخاصة بجولته ذات مساء فى حنطور، ولم يكن معه سوى عشرة جنيهات، فلما رأى على حد قوله رقبة الحصان نحيفة كأنه لم يأكل دهراً، وصاحبه بائساً وضعيفاً، وهبه كل ما معه من نقود، وكان بصحبته صديقه محمد على ماهر المحامى فأطلق عليه لقب القديس. والله أعلم أى القصتين أصدق. ولكن اللقب شاع وانتشر حتى أصبح أصدقاؤه كافة بل أولاده ينادونه به ولا يقولون له بابا..

دور آخر فكرى وسياسى وثقافى لعبه الكاتب الكبير محمد عودة فى حياه الخميسى طالما نوه به، وأدى بشكل أو بآخر إلى رفضه للقولبة العقائدية، صحيح أنه اعتنق الاشتراكيه العلميه، وانخرط فى التنظيمات اليسارية، لكنة ظل دوماً خارجها، ولم يعرف كعنصر فاعل فى نشاطاتها أو كادر فى خلاياها السريه، اللهم أن يكون الأمر واجباً وطنياً يستدعى التضامن والمشاركه فحسب لا الالتزام الحديدى كعضو عامل، إذ كان بتكوينه الشخصى ومؤهلاته الثقافيه وخياراته السياسية أقرب إلى طبيعة الطائر المغرد الذى يرفض القيود، ويهوى التنقل بحرية وتلقائية من غصن الى فنن، وربما لذلك كانت صداقته الحميمه لكل ألوان الطيف الفكرى والسياسى والثقافى الوطنى من أقص اليمين الى أقص اليسار، فكنت تراه يسهر مع مصطفى وعلى أمين وكامل الشناوى وموسى صبرى بعدما حقق ذاته وشهرته، لكنه حين يجد الجد ولا مفر من التحشد والنضال يختار اليسار، وذلك كان موقفه من قضية الديمقراطية التى دافع عنها بضراوة فى بداية

ثوة يوليو ١٩٥٢ وانتهت به إلى المعتقلات من ١٥ مارس ١٩٥٣ حتى ١٢ ديسمبر ١٩٥٦.

بعدها آمن على شاكلة صديقه محمد عودة بزعامة جمال عبد الناصر عندما تجاوزت إنجازاته مختلف برامج وطموحات الأحزاب الشيوعية فى وقت قصير، ودون ما حاجة الى الصدام الدموى بين الطبقات، بتمصير الاقتصاد الوطنى الذى ظل زهاء قرن من الزمان نهباً للخواجات والاحتكارات والمصارف الأجنبية وتوفير العمل والطعام والتعليم والعلاج للفقراء والمسحوقين.

ولولا هذا الإيمان العميق بإنجازات الثورة، لما كان عطاء الخميسى الهائل الذى تفجر كما الشلال أو البركان فى كل دروب الشعر والأدب والفن والصحافه، ووقفاته السياسية المشهورة دفاعاً عن خيارات ثورة يوليو فى التحرر من الاستعمار والجلاء عن وادى النيل والإصلاح الزراعى وحركة عدم الانحياز وردع العدوان الثلاثى والوحدة مع سوريا وبناء السد العالى.

يقول الخميسى فى عاموده من الأعماق بجريدة المصرى بمناسبة حلول يوم ٢٣ يوليه ١٩٥٦:

اليوم ٢٣ يوليو، تاريخ محفور فى ذاكرة الزمن، تبدلت عنده سياسة مصر، واندفعت قوى الشعب خلف الرجال الأبطال الذين حملوا أعناقهم على أيديهم، تدفقت قوى الشعب كالبحار، فانخلع الملك أمام الطوفان الثورى، وتحققت ثورتنا الوطنية.. لقد رحل عن أراضينا الاحتلال، وفسخنا حزام الموت المسمى حلف بغداد، وأصبحنا فى الشرق الأوسط وأفريقيا قدوة

فى موقعنا الاستقلالى الحر، ووضعنا أسس التعايش السلمى فى باندونج، وناصرنا جميع قضايا التحرر؛ وطبقنا سياسة الخلاص الاقتصادى من قبضة الاستعمار، وأقمنا المشاريع الضخمة.. تحية ليوم ٢٣ يوليو من ملايين المصريين، بل من ملايين العرب.

ويكتب الخميسى قبلها بيوم فى ٢٢ يوليو عن مؤتمر بريونى قائلاً: فى كل هذه الخطوات المظفرة كان يتقدمنا بطل عظيم، حقق ثورة، وحمل تكاليف، ولم يحد، لم ينحرف، بل مضى تخفق فى صدره كل قلوبنا.. فى كل هذه الخطوات كان يتكلم بأسمائنا نحن ملايين المصريين، ويحمل الأمانة عنا

وكتب الخميسى إثر وفاة الزعيم جمال عبد الناصر فى صحيفة الجمهورية يقول:

نبضات قلبى تسمعها أذناى كدقات مطرقة القدر.. ملايين الأفئدة تئن فى الميادين والشوارع خلف نعش الشهيد الراحل جمال عبد الناصر.. يا شهيدنا الطاهر لقد أتيت إلى جيلنا وفى قلبك النبى قسم من إرادة الحياة، أن تعيش لتخليص الحياة من الألم، والقهر، والظلم الاجتماعى، والاستعباد، وعشت تعطى أيامك ولياليك الساهدة، لتحقق ذلك القسم العظيم، أنت يا قسم المواجع آلاف السنين على جباه المرهقين والمعذبين.. إلخ

لكن الخميسى رأى نفسه طوعاً خارج تنظيمات الثوره السياسيه، ويروى الكاتب الصحفى صلاح عيسى قصة مثيره تشى بموقفه الرافض للقولبة والعمل السرى تحت الأرض، حين استدعاه المرحوم شعراوى جمعة وزير

الداخلية نائب رئيس الوزراء وأمين عام التنظيم الطليعى الذى كان يمثل نواة حزب الثورة آنذاك، حيث دار بينهما حوار ممتع وسأله: عايزينك معانا فى التنظيم ياأستاذ عبد الرحمن؟ وقال: أنا ياسيادة النائب.. بس أنا ما انفعش!

ــ ليه؟

ــ أصل أنا بعيد عنك مصاب بداء البوح يعنى ما اعرفش أخبى حاجه. وده تنظيم سرى.. يعنى لو حضرت معاك اجتماع.. حاخرج أحكى كل إللى حصل.. وتحبسنى بتهمة إننى حولت التنظيم من سرى لعلنى!

وضحك شعراوى جمعة.. وقبل اعتذار الخميسى!

ومن طول صحبتى للقديس لاحظت عليه خاصتين، الأولى دقه فرزه للغرباء كلما هوموا على مجالسه وحاولوا الاقتراب من حياته، إذ كانت له فراسة الرادار فى اكتشاف الجواسيس والبصاصين والنمامين، فكان يقطع عليهم الطريق ويعطل مهمتهم، فلا يتحدث إلا فى العام من الشئون أو تافه الأمور، وأحياناً أخرى يرسل عبر تقاريرهم ووشاياتهم ما يود أن يصل إلى ذوى الاختصاص ومن يهمهم الأمر حول رؤاه ومواقفه تجاه قضايا هامة، أو احتجاجه على فساد ما!

أذكر بالمناسبة.. أنه عنى فى مجالسه شتاء عام ١٩٦٦ بشن حملة على زمرة السوء المحيطة بالمشير عامر، عندما عرف أن أحدهم استغل نفوذه وأودع صديقه الكاتب الإذاعى السينمائى محمد كامل حسن المحامى مستشفى الأمراض العقلية بدعوى الجنون، وأجبره بالتالى على تطليق زوجته الفنانة

الشابة ثم عقد قرانه عليها، وأذكر أنه سألنى إن كنت أعرف أحداً من المسئولين على علاقة بالرئيس جمال عبد الناصر، وقلت له: أعرف اللواء عبد العزيز سليمان خلال عملى مراسلاً عسكرياً لروز اليوسف فى اليمن، وصحبته وابنة محمد كامل حسن الآنسة راوية إلى منزله بمصر الجديدة وعرض عليه الأمر و.. لم تمض أيام حتى أطلق سراح الكاتب المسكين!

أما ثانيه خصوصياته، فكان نجاحه المذهل فى لفت انتباه وخلب أفئدة كل من يعتزم نسج أواصر الصداقة معه بعد أول لقاء، عبر رواية مجموعة مختارة من حكاياته المدهشة ونوادر حياته العجيبة، وكله ثقة فى جذبهم إلى دائرة شخصيته المغناطيسية حتماً، وأسرهم طوعاً رهن إرادته، ولعل حكاية تعارفه لأول مرة على صديقه محمد عودة تشى بجانب آخر من ثراء تجربته الإنسانية فى عوالم الضياع والصعلكة وقوة إرادته الحديدية فى مواجهة مصاعب الحياة.

مستشرق هولندي في الفيشاوي

وقد بدأت علاقة الخميسي وصداقته بأستاذنا الكاتب الكبير والمفكر القومى محمد عودة فى الثلاثينيات عبر قصة مثيرة غاية فى الطرافة، فكلاهما كان من المترددين الدائمين على مقهى الفيشاوى الشهير فى الحسين، وكان الحاج فهمى الفيشاوى صاحب المقهى من أشهر هواة الديوك الهندى فى شبابه، فكان يملك أكبر حظيرة لتربيتها ورعايتها وتدريبها على المشاركة فى مباريات صراع الديوك التى كان ينظمها الهواة آنذاك فى طول مصر وعرضها.. وعلى عادته آنذاك كان يدخل إلى حلبة الصراع ممتطياً حصانه العربى الأصيل تتبعه ديوكه التى يرشحها لخوض المعركه.. وغالباً ما تفوز فى نهاية المباريات على ديوك الآخرين من الهواة بالنقط أو الضربة القاضية.

وهكذا عندما صدر قرار من وزير الدخلية بوقف مباريات الديوك الهندى وتجريمها، شرعياً وقانونياً، قبع الحاج فهمى الفيشاوى فى مقهاه واستبدل هوايته السابقة بتأجيج الصراع السلمى بين الظرفاء وهواة النكتة والقافية

وأساطين المحدثين المثقفين، إذ رغم أنه كان يدوبك يفك الخط حيث لم ينل حظاً من التعليم.. إلا إنه كان قادر على الإحاطة بالموضوعات والقضايا التى يدور جولها النقاش.. وأحياناً ما يأخذه الانبساط لما يدور حوله إلى حد الكرم.. فكان يفاجئهم بتوزيع المشاريب المجانية أو يعفيهم من دفع الحساب. أكثر من ذلك أن الحاج الفيشاوى الذى حرمته الظروف من التعليم والثقافة.. كان يدرك قيمة المثقفين والشعراء والأدباء.. فكان يسمح باحتجازهم موائد ومقاعد المقهى يوماً كاملاً مقابل مشروب واحد لا يتعدى ثمنه خمسة قروش على أيامنا.. بل كان يغض الطرف عن إغفائهم أو نومهم فى المقهى عندما يشعر بحاسته الشعبية الذكية افتقارهم إلى المأوى، وكان أشهر هؤلاء الشاعر الصعلوك عبد الحميد الديب وهو القائل: كأننى حائط كتبوا عليه: هنا يا أيها المزنوق طرطر!

روى لى المرحوم الشيخ عبد الحميد قطامش المحامى الشرعى وكان من نجوم ظرفاء ذلك الزمان أن أسعد الناس بزواج عبد الحميد الديب كان الحاج فهمى الفيشاوى حتى يتخلص من رذالاته وهجائه الصارخ لكل من لا يتجاوب مع محنته ويتعاطف مع بؤسه.. وبينها قصيدته الشهيرة التى هاجم فيها المالكى صاحب محل الألبان بحى الحسين الذى ضاق ذرعاً بطلباته لكوب اللبن وأطباق المهلبية صباحاً ومساء بالمجان.. وقال فى مطلعها:

برىء منك مولانا إبن مـالك،

رماك الله فى شر المهالك

لبانك كلها سم زعاف

ومن غش البريه رأسمالك

فويل من رجال الحى طرا

ونسوته إذا علمـوا بذلك!

وأضاف الشيخ قطامش أن الفيشاوى تعهد بإقامة حفل زواج عبد الحميد الديب على نفقته الخاصة فى مقهاه.. حيث اجتمع فحول الأدباء والشعراء والظرفاء وراحوا يقرظونه شعراً ومديحاً وهجاء حتى مطلع الفجر.. وتحدثت الصحافة كثيراً عن هذا الاحتفال وأطلقت عليه وصف ليلة الدخلة الأدبية وللأسف ظل الشيخ قطامش يعدنى مراراً وتكراراً بنسخ القصائد والكلمات التى ألقيت فى تلك الليلة.. ورحل دون أن يبر بوعده..

ولأن الشيء بالشيء يذكر، أذكر أن الحكومة أعلنت أوائل الستينيات وقف التعامل بالعملة الورقية فئة المائة جنيه الصادرة فى عهد الملكية، ودعت المواطنين إلى استبدالها بعملة جديدة تحمل اسم الجمهورية، وجن جنون الفيشاوى، وأفضى لزبونه الدائم الظريف عباس الأسوانى المحامى بسره، وأنه يختزن فى دكان مغلق يواجه مقهاه ألوفاً لا حصر لها من العملة الملكية، ويخشى إن ذهب لتغييرها أن تصادرها الحكومة، أو تعيد محاسبته ضرائبياً على ثروته المجهولة، ونصحه الأسوانى بالانتظار إلى حين تتبين نوايا الحكومة، وفى اليوم الذى حددته لإلغاء الورقة فئة المائة جنيه ووقف استبدالها، توجه الفيشاوى ومعه حقيبة كبيرة تحوى ثروته منها وعاد بها جمهورية، ثم أودعها الدكان وأغلقه عليها!

وقد ظن الشاعر الظريف عبد الرحمن الخميسى فى البداية أنه أمام ظاهرة من الظواهر الغريبه التى طالما حفل بها مقهى الفيشاوى، فها هو أمام شاب أجنبى متورد البشرة، يغطى رأسه بيريهويرتدئ جاكته اسكوتش لا يغيرها أبداً، ودائماً متابط كتباً ومجلات إفرنجيه، أو فى حالة شراء للكتب العربية والتراثية من عم إبراهيم الضرير الذى يصرخ بصوته كل ربع ساعه فى جنبات المقهى معانا الكتب.. معانا إبن إياس.. معانا الأغانى.. معانا مروج الذهب.

ولابد أن السبب فى جحوظ عينى هذا الشاب الغريب يرجع إلى دأبه على القراءة أناء الليل وأطراف النهار.. بل إن فضوله هداه فى النهاية إلى إنه أمام مستشرق إيرلندى أو هولندى جاء إلى القاهره لدراسة الحضارة العربية وأدبها.. وربما أنه التحق بالأزهر بعد أن أشهر إسلامه لينهل من منابعه ويعيش أجواءه.. و.. لم يكن هذا الأجنبى الغامض سوى خريج الحقوق محمد عودة.. الذى جاء مثله إلى القاهرة من بلدته فاقوس يبحث لنفسه عن مكان ودور فى أوساطها السياسية والثقافية والصحفية بعد أن أعياه الكد محامياً عن الفلاحين الغلابة أمام المحاكم الجزئية بمحافظة الشرقية إضافة إلى كتابة خطب المرشحين فى مواسم انتخابات مجلسى الشيوخ والنواب يضمنها أفكاره السياسية والاجتماعية، مقابل شىء أو لا شىء!

يوماً بعد يوم ظل الخميسى يتابع هذا الوافد الغريب على المقهى عن كثب حتى قرر أن يتعرف عليه ويكتشفه، وكان الليل قد أوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيره وهو يراقب من مكانه حركات وسكنات هذا الشاب

المستشرق.. فما أن أغلق كتاباً كان منهمكاً فى قراءته.. ورفع رأسه حتى رأى الخميسى وقد صوب نظراته إليه، فلما لم يجد بداً من تجنب فضوله عندئذ نادى الجرسون ودفع حساب الواحد شاى الذى لم يكن يتجاوزه قط، ثم نهض إيذاناً بالانصراف حتى عاجله الخميسى بابتسامة وبادره فى ود: أتفضل آنسنا شوية ياخواجه: وضحك محمد عودة فى خجل وقال: أولاً أنا موش خواجه.. أنا مصرى زيك.. ثانياً ميعاد النوم جه ولازم أروح قبل النهار ما يطلع.

وقال الخميسى فى إصرار أنا كمان مروح.. خدنى معاك!

و.. لم يجد عودة فكاكاً فقال: على الرحب والسعة.

فى طريقهما إلى العتبة عبر شارع الموسكى دار بينهما حديث صريح ومفتوح فى شئون الثقافة والسياسة. لكن الذى حير الخميسى كان هروب عودة من الإجابة عن بعض تساؤلاته العديدة حول أوضاعه الاجتماعية.. فلما وصلا إلى ميدان العتبة وحان موعد الوداع سأل عودة: حضرتك ساكن فين!؟ وأجاب الخميسى بعد تفكير سريع: آه. ساكن فى عابدين!

وهنا مد عودة يده مصافحاً وقال فى كبرياء وحسم: أنا ساكن فى الزمالك.. نشوف حضرتك بكره فى الفيشاوى إن شاء الله..

وبينما اتجه الخميسى إلى شارع عبد العزيز فى طريقه إلى عابدين، واتجه محمد عودة إلى شارع فؤاد فى طريقه إلى الزمالك.. لكن بعد ساعه واحدة اكتشف كلاهما أنه خدع الآخر. والحكاية أن الخميسى كان وقتذاك فى حالة تعطل وضياع بعد حل فرقة المسيرى المسرحية الجوالة، ولم

يكن له مأوى يستجير به فى القاهرة سوى مقهى الفيشاوى يغفو على أحد مقاعده، فإذا خفت حركة الزبائن، كان صاحب المقهى الحاج فهمى يرق لحاله، ويغض الطرف عن نومه محتضناً ترابيزة أو ممستلقياً على دكه! وهكذا غير الخميسى مساره وعاد من حيث جاء عبر شارع الموسكى، ثم دلف إلى مقهى الفيشاوى يفتش عن مكان ناء للنوم حتى الصباح، فإذا بقدميه تتسمران مكانهما وينفجر فى ضحكة مكتومة، وذلك أنه رأى هذا الذى ظنه فى البداية مستشرقاً هولندياً أو أيرلندياً يغط فى سبات عميق على أحد المقاعد وقد غطى وجهه بالبيريه.. وتقدم منه وربت على كتفه فإذا محمد عودة يستيقظ مذعوراً: جرى إيه.. فيه إيه؟

وقال الخميسى لا مفيش حاجه.. دى بس صاحبة شقة الزمالك بتخبط على الباب عاوزة الأجرة! وضحكا كثيراً.. وعندما تكاشفا بصدق اتضح أن الحال من بعضه، فلا سكن لهذا فى الزمالك ولاسكن لذاك فى عابدين، وكلاهما جاء من الريف الجوانى بحثاً عن العمل والرزق والمأوى، وتعاهدا على الصداقة، ثم استسلما للنوم على مقعدين متجاورين أياماً حتى تغيرت الحال وتبدلت الأحوال. وتلك كانت راوية الخميسى لقصة تعارفه على عودة، بينما يؤكد عودة أن الخميسى عدل وأضاف إلى القصة الكثيرمن التفاصيل الكاذبة والتوابل المثيرة.

وعندما سألته حقيقة ماحدث.. قال: لا أنكر الواقعة فى حد ذاتها، لكن الخميسى تغافل عن ذكر الأسباب التى دفعتنى إلى المبيت الاضطرارى فى مقهى الفيشاوى فى هذه الليلة، إذ كنت عاطلاً على شاكلته عن العمل،

فلما ذهبت إلى البانسيون الذى أسكنه فى وسط القاهرة، وجدت صاحبته اليونانية تنتظرنى على الباب فى غضب وأمامها كوم ملابسى وهى تعلن طردى إلى غير رجعة، ولما سألتها عن كتبى وأوراقى قالت: عندما تدفع الإيجار المتأخر عليك منذ ثلاثة شهور.. فكانت مصادفة لقائى المثير بالخميسى فى الفيشاوى. ويضيف عودة: كدت أجن بدون كتبى وأوراقى، وذهبت إلى صديقى اليونانى نيكولا وكان يعمل جارسوناً فى أحد المطاعم، وطالما كان يمدنى بالمعلومات التى كنت أنشرها فى الصحف عن حركة مقاومة الفاشية فى بلاده، إذ كان عضواً عاملاً فيها، وعندما حكيت له مشكلتى مع صاحبة البنسيون أمهلنى أياماً حتى يجد حلاً، وبالفعل جاءنى إلى الفيشاوى وحمل عنى ملابسى إلى بانسيون آخر تملكه يونانية أخرى، وهناك وجدت كتبى وأوراقى كاملة فى انتظارى.. وقال لى نيكولا: أمامك شهر كامل ياصديقى تنام فيه وتأكل على حسابى الخاص إلى حين تجد لك عملاً ومأوى، ولم أنس الخميسى صديقى الجديد فقد دعوته لأن يقاسمنى غرفتى ووجبات الطعام المجانية.

ومرت سنوات ـ والحديث مازال لعودة ـ حتى أتيحت لى زيارة اليونان فى مهمة صحفية، ودخلت أتناول طبق مكرونه اسباجتى فى أحد مطاعم أثينا، لكننى فوجئت بالجرسون يضع أمامى صنوفاً فاخره من الطعام والشراب، وناديت الجرسون قائلاً: يبدو أنك أخطأت الزبون؟ وهنا ظهر نيكولا بشحمه ولحمه وهو يرتدى ملابس أنيقة، وعرفت أنه متردوتيل المطعم، وأخذنا بعضنا بالأحضان والقبلات، وحين جلس معى نتناول الطعام والحديث عن ذكرياتنا المشتركة فى القاهرة، أدركت أنه كان يعلم تفاصيل

اقتسامى والخميسى المأوى والطعام فى البنسيون على حسابه عن طيب خاطر.

وبينما شق محمد عودة طريقه إلى الكتابة والترجمة فى عديد من الصحف والمجلات بالقطعة.. حتى قبله إيميل زيدان محرراً دائماً وبأجر ثابت فى مجلة الاثنين والدنيا سعى الخميسى مع صديقه الشاعر البائس عبد الحميدُ الديب إلى مجلس حفنى محمود باشا وزير المواصلات فى بار اللواء بباب اللوق، وهناك تعرف لأول مرة على الشاعر كامل الشناوى الذى أعجب به شاعراً مطبوعاً وظريفاً ومحدثاً على شاكلته. وقرر الشناوى أن ينتشله من وهدة الضياع والسرمحة. وأختاره محرراً أدبياً فى أخبار اليوم ومن يومها لم يفرق بينهما سوى إقامة الخميسى الجبرية فى السجون والمعتقلات بسبب مواقفه السياسية المناوئه للإنجليز والسراى والحكومات العميله، وكلما داهمته حالة من حالات العشق والغرام الملتهب الذى ينتهى بورطة الزواج وخلفة العيال، والمرة الوحيدة التى فارق فيها كامل الشناوى بإرادته كانت عندما شد الرحال إلى فلسطين للعمل فى إذاعة الشرق الأدنى مؤلفاً ومخرجاً ومذيعاً عام ١٩٤٧.

أذكر أننى سألت كامل الشناوى فى حديث صحفى أجريته معه: هل تمنيت يوماً أن تكون غيرك؟

وفكر لحظات ثم قال فيما يشبه الحسرة أو الحسد: تمنيت أن أكون على شاكلة الخميسى، ألوى ذراع الحياة كلما عاندتنى.. الخميسى فى الحقيقة هو التجسيد الحى لواقع أحلامى التى لم تتحقق أبداً: وكان

الشناوى فى عجب ودهشة دائمة من أحوال الخميسى فهو لم يشك أبداً من مرض رغم نهمه الشديد للطعام وإفراطه فى السهر وغيره، وخوضه لتجارب الحب والإبداع فى كل درب وميدان، وقدراته الخارقه على احتمال الإفلاس والفصل من العمل، إذ سرعان مايقفز فوق المشاكل والصعوبات ويأتى بالمال الوفير وبالمستحيل! ولعل أصدق وصف على وصوله إلى أهدافه دوماً بقوة إرادته وإصراره ما كتبه محمود السعدنى وهو يهدى الخميسى أحد كتبه: إلى الخميسى.. الذى يشبه الكرة.. كلما ضربوه لأسفل قفز إلى أعلى!.

كان الخميسى يدخل غرفة نوم كامل الشناوى الذى يعانى العديد من الأمراض. ويفتح عشرات الزجاجات والعلب الممتلئة بالأدوية السائلة والأقراص. ثم يبتلعها دفعة واحدة.. وكثيراً ما كان يكرر ذلك كلما عاد مريضاً من أصدقائه.. وبعدها يربت على بطنه قائلاً: صحة وعافية! وعندما سألناه ذات يوم: لماذا تفعل ذلك؟ قال ضاحكاً: مش أدوية؟ يبقى لازم بتعالج حاجة.. أى حاجة!

وقد عرف الخميسى بين أصدقائه ومريديه بعبارة مفيش مشكلة.. بمعنى أنه لا يعرف المستحيل كعقبة أمام إصراره على حل المشكلات وتخطى الصعاب.. وأذكر إننى فى عام ١٩٦٤ كنت أتناول معه وزوجته الفنانة الشابة فاتن الشوباشى ــ يرحمها الله ــ طعام الغداء فى شقته بحى معروف عندما دخل علينا الموسيقار الراحل بليغ حمدى ودعاه القديس أن يشاركنا الطعام قائلاً على عادة المصريين بسم الله لكن بليغ اعتذر فى

اقتضاب وقال: ماليش نفس.. ثم دخل إلى الصالون من دون أن يبادرنا كعادته بالبشاشة وكلماته الودودة، وفهم الخميسى أن وراء الأكمة ما وراءها.. فترك الطعام يسأله: مالك شايل طاجن ستك على دماغك ليه؟ فهمس بليغ فى أذن الخميسى يطلب منه ما تيسر لديه من المال بشكل عاجل جداً وعلى الفور، فتش الخميسى فى جيوبه وفى محفظته وأخرج كل ما لديه من المال.. ووضعه أمام بليغ وعدها فلم تتجاوز ٢٧ جنيهاً وبضعة قروش.. فقال بليغ: أحتاج مائة جنيه على الأقل لشراء هدية أقدمها إلى وردة فى حفل عيد ميلادها هذا المساء.

كان بليغ آنذاك ولهان بحب المطربة الجزائرية وردة، وكلما زارها فى منزلها بحى جاردن سيتى يبثها الغرام تحت ستار عرض ألحانه على مسامعها، كان شقيقها دائماً فى انتظاره لا يبرح صحبتهما، وعبثاً حاول استبعاد هذا العزول بشتى الحيل والأحابيل، وحين عرض المشكلة على صديقه وأستاذه الشاعر كامل الشناوى الذى رعى موهبته وشق أمامه الطريق إلى الشهرة، اقترح عليه أن يتبادلا الغرام على الورق.. فكان بليغ يضع فى جيب البالطو رسالة عاطفية إلى وردة، وبينما كان يعزف ألحانه على العود كانت تقترب منه وتلتقط الرسالة خلسة وتضع مكانها الرد على رسالته السابقة.. وكانت تدلل بليغ بكلمة بلبل..

القديس من جانبه أدرك مأزق بليغ الكريم المتلاف الذى يكسب الآلاف ويبددها فور وصولها إلى جيبه، كما لو إنه محطة ترانزيت.. ولا مفر إذن من أن تتفتق قريحته عن حل يسعده حتى يعبر عن خالص عاطفته تجاه وردة فى

مناسبة عيد ميلادها.. هاتف المرابى الذى يقترض منه وكذا كامل الشناوى عبر التليفون يستعطفه حتى يرق قلبه ويمنحه سلفة مالية استثنائية عاجلة فى حدود مائة جنيه.. لكنه أبى وتمنع..

أشعل الخميسى ثلاث سجائر تباعاً وهو يفكر.. ثم سأل بليغ عن الأغانى الرائجة فى السوق هذه الأيام؟

وقال بليغ: الأفراح.. وقال الخميسى: فرجت.. ثم جلس على مكتبه وأشعل سيجارة تلو الأخرى.. حتى انتهى من كتابة أغنية للأفراح بعد نصف ساعة.. وراح يقرأها علينا وكان مطلعها يقول ماتزوقينى ياماما.. قوام ياماما.. ده عريسى هايخدنى بالسلامة ياماما ثم طلب من بليغ أن يقوم بتلحينها سريعاً فسحب العود من فوق البيانو وراح يلحن كلمات الأغنية.

وهكذا نجح القديس بإعجوبة فى حل المشكلة.. إذ بينما كان بليغ مستغرقاً فى تنفيذ أوامر الخميسى، كان فكرى الجوهرى سكرتير القديس الخاص يجرى إتصالاً تليفونياً بشركة صوت القاهرة وطلب حجز استوديو لتسجيل الأغنية واتصل بأحمد فؤاد حسن حتى يجمع أفراد فرقته الماسية.. وقرأ الأغنية أيضاً فى التليفون على المطربة مها صبرى التى أعجبت بها وتهللت أساريرها فرحاً ووعدت بالحضور فى السادسة مساء لتسجيلها.. ولم تمض سوى ساعات حتى كان الخميسى يتسلم٤٠٠ جنيه مقابل حقه فى تأليف الأغنية و٨٠٠ جنية حق بليغ مقابل تلحينها.. وكانت أمامه فسحة من الوقت حيث ذهبت معه الى محل فهمى الميهى الجواهرجى لشراء خاتم من الماس، والتوجه إلى منزل وردة وتقديمه هدية فى عيد ميلادها..

وقبلته عن طيب خاطر ووضعته فى إصبعها أمام جميع المدعوين إيذاناً بتراجع شقيقها العزول عن حضور جلساتهما الفنية العاطفية وإعلان خطبتهما!

أذكر بالمناسبة أن كامل الشناوى كتب عام ١٩٦٤ فى بابه الأسبوعى الشهير ساعات يسخر من فحولة الخميسى ويفضح شبابه الدائم دون أن يذكر اسمه: عرفته منذ ثلاثين عاماً.. شاعراً شاباً خواطره ذكية مشرقة، ووجهه غبى الملامح.. ممتقع اللون.. وكان يغيب عنى فترات من الزمن، فإذا التقيت به أدهشنى أنه يزداد على مر الأيام قوة ونضارة، وقابلته اليوم. إن عمره الذى تجاوز الخمسين قد اختبأ فى قوام شاب رياضى مفتول العضلات، الملامح الغبيه صارت ذكية، واللون الممتقع أصبح كجمرة الخجل؛ وقلت له: إنت ابن فلان؟ ضحك وقال: أنا فلان نفسه!.. ما أعجب صديقى.. إنه مثل الأجل.. يكبر.. فيصغر!

ذات مساء كنت أجلس مع كامل الشناوى فى بهو فندق سميراميس القديم، عندما لمحنا الخميسى فى طريقه إلى كافتيريا نايت آند دراى يرتدى قميصاً شبابياً مشجراً فاقع الألوان، بينما يمناه تتابط ذراع فتاة شابة رائعة الجمال. وأيقنت على الفور أنه واقع لا محالة فى الفخ.

فبعد نصف ساعة نهض كامل الشناوى متجهاً إلى الكافتيريا.. حيث كان الخميسى فى حالة سيطرة مغناطيسية كاملة على سمع ومشاعر الفتاة. بينما تمتد أمامهما أشكال وصنوف شتى من الطعام والشراب.. واقتربنا منهما كما لو أننا نبحث عن مكان.. ولمحنا الخميسى.. وقدم لنا فتاته

الجميلة: مدموزيل بثينة بطلة فيلمى الجديد.. ومد كامل الشناوى يده يصافحها فى أدب جم.. ثم قال فى عبارة وقور: مبروك يابنيتى حظك من السما.. الأستاذ الخميسى وارث خبرة عظيمه فى الإخراج عن ابنه الصغير.. الله يرحمه مات بالشيخوخة!.

وكان الكاتب الإذاعى الشهير محمد كامل حسن المحامى ـ يرحمه الله ـ قد دعانا على العشاء فى قصره الفاخر بشارع الهرم، احتفالاً بمولد موهبة عبد الرحمن الخميسى المفاجئة فى التأليف الموسيقى، وكانت أوركسترا القاهرة السيمفونى قد سجلت له باكورة انتاجه على أسطوانة، وجهها الأول بعنوان لومومبا والوجه الثانى بعنوان شارع الهرم وطلبت الفنانة برلنتى عبد الحميد ـ وكانت بين المدعوين ـ سماع الأسطوانة، وقام الخميسى ووضعها على الجرامفون وقال: نسمع الأول موسيقى ولومومبا.. وعندئذ غافله كامل الشناوى وقلب الأسطوانة على الوجه الذى يحمل اسمه شارع الهرم وأنبعث صوت الموسيقى بينما الخميسى يواصل شرح النمو الدرامى فى موسيقى لومومبا: الحركة الأولى تصور الظلم الذى عاشه شعب الكونجو.. والحركة الثانية تعبر عن نضاله الجسور ضد الاستعمار البلجيكى.. والثالثة تعكس التآمر الاستعمارى واغتيال لومومبا.. والرابعة ذروة انتصار الثورة و.. هنا قاطعة كامل الشناوى ضاحكاً وقال: والحركة الختامية تصور الرقص الشرقى اللى على أصله فى كباريهات شارع الهرم.. وأدرك الخميسى المقلب وفهم مغزاه وضحك مع الضاحكين!

مواجهة خطيرة مع ثعبان كوبرا

يقولون ـ والعهدة على المجربين ـ أن رفقة السجون والمعتقلات، أكثر إخلاصاً ووفاء من رفقة الحياة خارجها، وأحياناً ما تكون أرق وأنبل من العشق الرومانسي الجميل بين الرجل والمرأة، وربما كان التوحد المأساوى من حيث الزمان والمكان بالتوازى مع الإذعان وسلب الحريات سبباً نفسياً ومعنوياً ضمن أسباب أخرى للظاهرة!

والسجون والمعتقلات ليست فنادق خمسة نجوم لكنها أدنى من مستوى غرف الحجز والتخشيبة فى عموم أقسام البوليس ومديريات الأمن فى مصر المحروسة، وذلك أن العيشة داخل الزنازين المغلقة تهذيب نفسى وإصلاح بدنى بالإكراه، ونكد وقسوة وظلام، وما أتعسها النومة على البرش، وقضاء الحاجة فى جردل مجاور، والويل والثبور وعظائم العذاب والمعاناة أضعافاً مضاعفة، إذا كان الزبائن من المثقفين والسياسيين وأصحاب الرأى و.. التهمة المنسوبة لهم ـ ياوقعه سودة وهباب ـ قلب نظام الحكم!

وفى هذا العالم الذى لا يعرفه الغالبية العظمى من الشرفاء وذوى الاستقامه والرشاد، وغيرهم من الذين يمشون جنب الحيط لا لهم فى التور

ولا فى الطحين.. أعنى التدخل فيما لا يعنيهم من شئون الدولة، باعتبارها عارفة شغلها كويس و.. فى هذا العالم القابع خلف أسوار السجون والمعتقلات وقضبان الزنازين وترابيسها المحكمة وصليل إغلاقها المرعب، كانت للقديس تجاربه وحكاياته ونوادره المثيرة ولا تزال رغم مضى السنين وبعد الذكريات تروى على ألسنة الذين خالطوه من رفاق الطريق وعتاة المجرمين وضباط وعساكر السجون، تثير الضحكات أحياناً، وتدعو للتأمل أحياناً، والإعجاب دائماً بهذه الشخصيه الفريدة ذات السمات المركبة والقدرة الفائقة التى كان عليها فى تلوين قسوة الحياة بالبهجة والحبور والعزيمة والأمل فى غد قريب مشرق بالحرية والعدالة والحب، إذ كان يخوض تجربة إحتباس حريته تلو الأخرى، وكأنه يمثل دوراً فى رواية مسرحية أو سينمائية، وأن الآلام النفسية والجسدية التى يكابدها من لوازم الدور، ومن المحتم مهما طال الوقت أن تزول بنهاية الرواية و.. آهى شدة وتزول!

فى أزمة مارس ١٩٥٤ ودوره المشهود فى أحداثها على حد رواية الدكتور رفعت السعيد فى كتابه حول سيرته الذاتية، كان الخميسى قد جرى تصنيفه ضمن عشرات الأدباء والفنانين فى صفوف القوى الديمقراطية المعارضة لثورة يوليو، رغم أنه باعتراف أقرانه لم يكن ماركسياً قحاً، فهو كعادته وبتكوينه المزاجى لم يكن مؤهلاً على الإطلاق للقولبة والتصنيف الأيديولوجى والانخراط فى التنظيمات السياسية أياً كان نهجها وتوجهاتها كما ذكرنا سلفاً، وذلك أنه كان يعشق الحرية إلى حد البوهيمية، وينفر من الالتزام الذى يحد من انطلاقاته وتجاربه ومغامراته ونزواته!

وهكذا وجد الخميسى نفسه قبل أزمة مارس فجأة يساق فى بوكس مباحث أمن الدولة من شارع النزهة بميدان الجيش ـــ حيث كان يسكن ـــ إلى الاعتقال رهن التحقيق فى سجن روض الفرج، وهناك كانت فى انتظاره الدفعة الأولى من المعتقلين.. ومعظمهم من الأصدقاء والرفاق وهم يكابدون حالات شتى من الحزن واليأس والخوف من المجهول!

على أن معنويات المعتقلين ارتفعت إلى ذروة التماسك والجلد بوصول الخميسى، الذى بدأ يوزع عليهم عبارات التفاؤل والفرح والمرح، ثم يدعوهم إلى الغناء الجماعى وترديد الأناشيد الوطنية، أو يداعب الحراس وينسج معهم خيوطاً سريعة من الصداقه والمودة!

كان يسأل كل حارس على حدة عن بلدته أو قريته.. وكان يبتكر من الحيل وصياغة العبارات الجميلة التى تشيد بكرم ونبل أهل هذه البلدة أو فروسية ونضال تلك القرية فى مواجهة الهكسوس والرومان والإنجليز والفرنسيين، وكان ينجح دائماً فى تحقيق مأربه وكسبهم إلى جانبه وانحيازهم للحريه والديمقراطية!

وفى تلك الليلة المدلهمة بالقلق والمنغصات، كان بوكس البوليس السياسى يواصل نقل المزيد من المعتقلين إلى سجن روض الفرج، حتى كان اللقاء بينه وبين الدكتور القشيرى!

كان الدكتور القشيرى يضرب كفاً بكف فى حيرة شديدة لما حدث له، ويتساءل لماذا جىء به فى هذا المكان الموحش ووسط هؤلاء السياسيين المشاكسين..

قال إنه لم يتعاط السياسة فى حياته، فالعلم وحده كان شاغله، والبحث والدراسات والمعامل مهنته، وقال إنه واحد من العلماء الذين كلفهم جمال عبد الناصر بدراسة وإعداد مشروع السد العالى، وأقسم أنه متفان فى أداء عمله، فلماذا إذن يدق البوليس باب بيته فى منتصف-الليل، ولماذا ينزعونه من وسط زوجته وأولاده.. ومن غيره يستطيع أن يكمل دوره فى إعداد مشروع السد العالى الذى ينتظره عبد الناصر ويترقب إنجازه على أحر من الجمر!

هنا قفز شيطان الفكاهة إلى ذهن الخميسى بعد أن وجد فى الدكتور القشيرى ضالته.. وقال فى هدوء استسلام قدرى: عليك أن تتقبل قضاء الله يادكتور بصدر رحب.. فكلنا فى الهم سواسية.. وهؤلاء الذين تراهم من حولك، إما محكوم عليه بالإعدام أو السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة.. انفعل الدكتور القشيرى وهاج وماج وقال: لكنى لم أفعل شيئاً ولم أرتكب جرماً يستحق الإعدام أو المؤبد؟!

قال الخميسى ضاحكاً: ومايدريك يادكتور.. ربما تحدثت مع أحد عن عملك أو أفشيت سراً من أسرار السد العالى؟!

قال الدكتور القشيرى: صدقنى لم أتحدث عن عملى إلا مع زملائى العلماء الذين يشاركوننى إعداد المشروع؟

قال الخميسى: ربما كان وأحداً منهم على علاقة بالمخابرات دون أن تدرى أو مجند فى المباحث ووشى بك بدعوى إنك تثرثر فى أسرار المشروع.. وربما ــ والله أعلم ــ كان بينهم عميل لإسرائيل أو المخابرات المركزية!

ووضع الدكتور القشيرى رأسه بين يديه يحاول استرجاع شريط الذاكرة.. وهو يسأل نفسه.. هل يمكن أن يكون الدكتور فلان.. أو الخبير علان.. وكان يستعرض أسماء زملائه بصوت عال.. ثم ينفى عنهم شبهة العمالة أو الوشاية به.. مستحيل.. وكان الليل قد مضى بطيء الإيقاع.. والخميسى يحاول التخفيف عن الدكتور هول ما ينتظره.. ويدعوه للاستسلام لقضاء الله.. أو يلح عليه بالمشاركة فى الغناء مع رفاقه المعتقلين، حتى لاح ضوء النهار، وعندئذ دخل مأمور السجن ونادى فى صوت أجش: الدكتور القشيرى!

ونهض الدكتور المسكين لا يقوى على الوقوف.. بينما الخميسى يردد على مسامعه كلمات التشجيع على مواجهة المصير الذى ينتظره فى رجولة وثبات. حتى قال المأمور: أسفين جداً يادكتور.. مجرد تشابه أسماء اتفضل روح بيتك.. المتهم الحقيقى شرف السجن واسمه القشيرى برضه، وشغلتة ترزى فى شارع قصر النيل.. وخرج الدكتور القشيرى يرمق الخميسى بنظرات نارية وهو يقول: منك لله ياشيخ.. سيبت ركبى!

وقد حاول الخميسى أن يقنع مأمور السجن بتخصيص عدة زيارات له على خلاف لوائح السجن التى كانت تتيح زيارة أسبوعية واحدة لكل معتقل بدعوى أنه متزوج من ثلاث لكل منهن أولاد منه.. ومن المستحيل أن يجتمعن معاً.. لكن المأمور رفض مخالفة اللوائح.. ومن ثم جاءت الزوجات الثلاث وكل منهن تجر وراءها سرباً من ذريته.

ووقف الخميسى فى شرفة السجن كالأسد الجسور أو القائد الملهم يخاطب الزوجات أو العائلات الثلاث بصوت جهورى: عاوز منكم ترتفعوا

عن الصغائر إلى مستوى الموقف.. القضية قضية الديمقراطية.. يعنى الخلافات بينكم تتحل بالديمقراطية.. بالتعايش والمحبة والسلام الاجتماعى.. مفهوم؟!

وهتف حشد العائلة الثلاثية فى صوت واحد: مفهوم يا قديس!

على أن حياته الاجتماعية المتشابكة، ظلت دوماً تستقبل الجديد من الزوجات وخلفة الأولاد والبنات، فكانت أولهن السيدة هانم والدة ابنه عبد الملك، ثم السيدة شفيقة التى أنجبت له على التوالى ضياء وأحمد وفتحى وعزة وعائشة ومنى، ثم السيدة ألطاف والدة نهاد وعبد الرحمن وعرابى وطارق، وأخيراً الفنانة فاتن الشوباشى والدة خالد وهند، هذا غير من تزوج بهن فى المنصورة قبل قدومه إلى القاهرة، مثل محاسن، ثم خلال غربته عن مصر مثل حياة المذيعة البحرانية، فضلاً عن من وقع فى غرامهن أو وقعن فى غرامه!

عندما تقرر ترحيل الخميسى والرفاق المعتقلين إلى سجن بنى سويف، وكان يضم عشرات المساجين الذين يقضون عقوبات جنائية متباينة فى قضايا قتل وسرقات واختلاسات.. إلخ.. وبعضهم من عتاة المجرمين الذين سبق لهم التردد مراراً على السجون!

واكتشف الخميسى أن للسجن زعيماً معتمداً من بين هؤلاء المجرمين اسمه عبد العال.. وهو شاب مفتول العضلات ذو بأس شديد مرهوب الجانب.. ليسّ من المساجين فحسب ولكّن أيضاً من الحراس والضباط، لكن الخميسى لم ييأس من منازعته على زعامة السجن، فهو بعد أن استمع

من عبد العال إلى قصته، وكيف ضحى بنفسه فى جريمة ثأر لم يرتكبها حتى يفدى كبير عائلته من عقوبة الإعدام أو الأشغال الشاقة.. عندئذ بدأ الخميسى يدغدغ مشاعره ويخلع عليه أوصاف البطولة والشهامة.. ويعده بكتابة قصته فى الصحافة كمثل أعلى للعظمة والأصالة والنبل والمطالبة بتخفيف مدة عقوبته.. وإلى حد تقديم قصته فى السينما وقيامه شخصياً بعد قضاء العقوبة بدور البطولة أمام هند رستم!

ويوماً بعد يوم أصبح عبد العال خاتماً فى إصبع الخميسى ورهن إشارته، وأخذ يعد الأيام والأسابيع والشهور بإنتظار كتابة الخميسى قصته إيذاناً باستجابة الحكومة وتخفيف عقوبته حتى يلتقى بهند رستم فيحتضنها ويقبلها على شاشة السينما.. وعن طريق عبد العال ـــ زعامته وسطوته ـــ كان لبن العصفور وكافة ممنوعات السجن سهلة وميسرة وطوع بنان الخميسى.. وروى لى أستاذنا الكاتب الصحفى محمد عودة ذكرياته العزيزة عن نوادر الخميسى فى سجن بنى سويف.. وكيف تحولت الحياه القاسية داخله على يديه إلى ألوان من التسلية والمتعة.. فهو فى كل يوم يبتكر أسلوباً للتعايش مع الواقع الأليم.. يؤلف الأغانى ويلحنها ويغنيها ويؤلف المسرحيات ويخرجها ويمثلها مع المعتقلين السياسيين والمجرمين العتاة.. يحبك المقالب لهذا أو ذاك من الضباط والحراس، يسخر منهم أو يسرى عنهم.. حتى أحبه الجميع ودانوا له بالطاعة كما لو أنه صاحب طريقة.. وأصبح المستشار الأوحد لدى مأمور السجن فى كل كبيرة وصغيرة.. بل إن كثيراً من الضباط والحراس كانوا يضحون بإجازاتهم الأسبوعية حتى لاتفوتهم نادرة أو بادرة ضاحكة من الخميسى..

وقد ألف الخميسى ولحن للمعتقلين أحد أشهر أناشيد المعتقلات التى ترددت طويلاً بين الزنازين وانتقلت من معتقل لآخر خلال حقبة الخمسينيات.. يقول فى هذا النشيد:

لا اللومان ولا التشريد.. ترهبنا ناره،

إحنا جوه السجن حديد.. إحنا ثواره ،

وانتصار الشعب أكيد.. وكفاحنا كفاحه

ما فيش مساومة ولا مهادنة!

واتسم اللحن بشعبية وسهولة جعلت حفظه سهلاً وانتشاره أسهل.

على أن تجربة الخميسى لم تقتصر على سجن روض الفرج أو بنى سويف، ولكن ملمات حياته السياسية دفعت به مراراً إلى غياهب سجون أخرى ومعتقلات شتى، وروى لى الفنان الراحل حسن فؤاد عن فترة اعتقاله مع الخميسى.. وكان المعتقل لا يفصله سوى جدار من الطوب عن سجن للنساء، وفى همة وداب أخذ الخميسى على عائقة أن يبدأ فى ثقب الجدار خلسة فى وقت الراحة بمسمار صغير،.. ودعا زملاءه إلى مواصلة العمل بالتناوب حتى تم على خير مايرام.. وأصبح هذا الثقب وكأنه سينما نشاهد من خلاله صورة حية ومفتوحة على المرأة التى غابت ملامحها طويلاً عن عيون المعتقلين.. وقال حسن فؤاد ـــ يرحمه الله ـــ أن المعتقلين كانوا يقفون صفاً طويلاً بانتظام ليطلوا من هذا الثقب على الجنس اللطيف السجين وهن يمارسن مهام إعداد الطعام وغسيل الملابس والدلع، وكانت

الفسحة اليومية من حبس الزنازين الفرصة الثمينة للترفيه عن النفس حتى يستمتع كل معتقل بنصيبه من المشاهدة التى لم تكن تستغرق سوى دقيقة على الأكثر.. لكن الخميسى كان يستحوذ على الثقب ويظل ينظر من خلاله دقائق كأنها الدهر.. وكلما أبدينا احتجاجنا.. كان الخميسى تارة يتذرع بأنه صاحب الفكرة.. وتارة أخرى بأنه رجل هرم و.. ياالله حسن الختام، حتى تركنا له الثقب واكتفينا بشرحه الأدبى الممتع لما يراه فى جنة النساء.

ويروى الأستاذ رشاد الملاح رفيق القديس فى سجن أسيوط أن صوته ارتفع فجأه هلعاً وفزعاً من داخل زنزانته الانفرادية، وهو يطلب النجدة لإنقاذه من ثعبان ضخم يهجم عليه، فلما لم يسعفه أحد، صار يصرخ ويولول.. عاوزين تقتلونى يا أولاد الكلب.. افتحوا الباب، ثم راح يدق الباب بكلتا يديه فى عنف حتى هرع إليه الضابط النوبتجى ومعه جنديان، ولما فتحوا باب الزنزانه وجدوا ما يشبه الدودة الصغيرة وهى تتلوى على الأرض، واندهش الضابط قائلاً: إيه الحكايه يا أستاذ عبد الرحمن؟ هو ده الثعبان الضخم برضه اللى قلبت الدنيا عشانه؟ وصاح القديس مستنكراً: هو أنت شفت أبوه؟ ماهو كان هنا وهرب لما زعقت وطلبت النجدة.. وضحك الضابط وأدرك أزمته النفسية من إغلاق باب الزنزانة عليه وحده.. وتركها مفتوحة طيلة اليوم!

لكن ليس فى كل مرة تسلم الجره، فقد حدث بعد أيام أن دخل على زنزانته ثعبان ضخم بالفعل.. وعندما صرخ من أعماقه يطلب النجدة لم

يصدقه أحد، وقد كتب الواقعة كامل زهيرى فى قصة نشرتها مجلة روز اليوسف فى السبعينيات تحت عنوان الشاعر والثعبان نقلاً عن شهودها، وحكى فيها عن ثعبان من نوع الكوبرا الخطير، كان قد روع السجن وسكانه من المساجين والمعتقلين، وعندما تجمع الحراس ببنادقهم لقتله لم يجد ملاذاً غير زنزانة مفتوحة الأبواب كان بداخلها عبد الرحمن الخميسى الذى فوجىء بالكوبرا تتقدم نحوه مرفوعة الرأس فى وضع متحفز للهجوم!

ثبت الخميسى فى مكانه دون أن يبدى حراكاً.. حتى توقف الثعبان على بعد يقل عن شبر واحد.. ونظر الخميسى فى عينى الكوبرا رابط الجأش.. ومرت خمس دقائق.. بينما الحراس والمعتقلون يرقبون الموقف فى فزع وجزع على مصير الخميسى.. ومرت خمس دقائق أخرى وهما على نفس الحال حتى تكلم الخميسى بصوت خافت يخاطب الثعبان دون أن يحرك شفتيه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أنا عبد الرحمن الخميسى.. أنا الشاعر الذى يحب الحياة.. وأنت كذلك تحب الحياة.. ماذا تستفيد من قتلى وأنا لم أبادرك العداء، أنت ضيفى فاهلاً بك.. أعدك بشرفى أن أصرف أعداءك من طريقك إذا انصرفت فى سلام.. وفهم الذين كانوا يراقبون الموقف ملاحظة الخميسى وإشارته للجنود بالانصراف.. فانصرفوا.. وعندئذ أدار الثعبان رأسة بعيداً عن القديس وغادر الزنزانة فى سلام !

وفيما بعد حين كان أصدقاء الخميسى يسألونه: هل حقاً وقعت هذه القصة؟ يجيب: نعم.. فيسألون: لكن بم تفسر انصراف الثعبان؟ فيرد

الخميسى: أفسرها بالحب. الحب طاقة يحسها من هم أمامك، طاقة تنتقل بعدواها الخيرة إلى الحجر، وإلى الجماد، والحيوان، فتنزع منه عدوانيته. وحينما كنت أنظر فى عينى الثعبان كنت أحشد نفسى بكل الحب لهذا الثعبان، ليشعر أننى لا أضمر له شراً. وفى اعتقادى أنه أحس ذلك، فانصرف!

شاهد آخر روى لى من نوادر وحكايات القديس فى السجن العجب العجاب، وهو الكاتب المناضل فتحى الرملى يرحمه الله.. قال: كنا مجموعة من المعتقلين السياسيين فى طريقنا بالقطار من القاهرة إلى سجن أسيوط وأيدينا مقيدة بالكلابشات وقد استبد بنا الحزن والخوف من ويلات المجهول، إلا الخميسى الذى كاد يطير من الفرح.. أعنى تمثيل الفرح.. وكأنه ذاهب إلى نزهة سعيدة، جعل حديد الكلابشات فى أيدينا يصطك بعضه ببعض، ثم طلب من الرفاق أن يحذوا حذونا فى إيقاعات منتظمه، وعندما جاء الضابط المكلف بحراستنا يستفسر الأمر: قال الخميسى: نعمل إيه عشان نعبر عن فرحتنا.. مادام لم يصرف لنا صاجات زى الراقصات!

وأذكر أنه بادرنا ونحن نهبط من القطار لترحيلنا إلى سجن أسيوط والفزع يسبقنا إليه وقال: احمدوا ربنا على الإقامه فى سجن خالى من العقارب والبق.. أمال كنتم حتعملوا إيه لو كانت الإقامة فى سجن قنا، حيث لا شغله ولا مشغله للمساجين والمعتقلين سوى تعقب فيالق العقارب والبق بالبراطيش!

ولما وصلنا إلى سجن أسيوط تقدمنا يهمس فى أذن المأمور بكلمات لم نتبينها، ثم صاح فينا بأعلى صوته كما لو أنه ناظر مدرسه: اتفضلوا يا

أساتذة سلموا واحد واحد على جناب المأمور.. فكان يقدم كل معتقل مسبوقاً باسمه والإشادة بمكانته وعمله وعطائه الوطنى، ولم تمض ساعات حتى كان الخميسى مستشاراً للمأمور والمسئول عن تنظيم شئون المعتقلين.. توزيع الطعام.. الحلاقة.. الكشف الصحى.. الاستحمام.. برامج التثقيف.. وإعداد برامج الإذاعه الداخلية مع الكاتب الصحفى المغامر سعد زغلول فؤاد!

وكان بالسجن مجرمون عتاة محكوم على بعضهم بالأشغال الشاقة وغيرهم بالإعدام، فكانوا فى عجب من أمرنا باعتبارنا معتقلين على ذمة قضايا رأى وقلب نظام الحكم، حتى حسبونا عملاء وجواسيس يجب تجنبهم.. بل إيذائهم، ويذهب إليهم ويشرح لهم موقفنا، وكثيراً ما كان يخفف عنهم قسوة انتظار فترات العقوبة الطويلة ومواجهة تنفيذ حكم الإعدام بشجاعة، وعلاج الانهيارات العصبية بينهم، والأكثر من ذلك إثارة عندما طلب الخميسى من المأمور معاينة حبل المشنقة أو مصاحبة المحكوم عليهم بالإعدام إلى غرفة الشنق بناء على طلبهم، وذلك النشيد الحماسى الذى كنا نردده خلفه وهم فى طريقهم إلى الموت.

ورغم مضى أكثر من أربعين عاماً لا يزال الكاتب الصحفى محمود عبد المنعم مراد يتذكر يوم سيق المعتقلون إلى ساحة السجن، حتى ينال كل منهم نصيبه من التعذيب.. كان الجو مكهرباً بالخوف والأسى والصمت الرهيب حين امتلك القديس شجاعة النطق وشجاعة التساؤل وهمس فى أذنى قائلاً: ترى هل نحن مازلنا أحياء أم فى عداد الموتى؟ ولم أجب عن سؤاله بالطبع إذ كان حالنا يحتمل هذا وذاك معاً.

ومن طريف ما يروى من ذكريات اعتقال القديس، عندما أثار ضجة هائلة أول عهده بالسجون، وكتب عرائض الاحتجاج الصارخة التى وصلت إلى قادة ثورة يوليو وأجهزه الإعلام العربية والأجنبية، ثم إضرابه عن الطعام عدة أيام فى سجن القلعة، واستدعاه الرئيس جمال عبد الناصر إلى مكتبه، وكان وزيراً للداخليه آنذاك ، وسأله عن أسباب احتجاجه فقال: لأننى برىء من أى اتهام موجه إلىّ؟

وسأله عبد الناصر وهو يمد إليه يده بمنشور تحريض مطبوع ضد الثورة وسأله: من الذى كتب هذا المنشور؟ قال: أنا.. وسأله: أليس من الظلم اتهام الضباط الأحرار بالخيانة والعمالة للمخابرات الأمريكية؟ قال: بكل تأكيد! وسأله وهو يقرأ من أحد الملفات: ألم تجتمع يوم كذا وكذا بخلايا سرية وقلت كذا وكذا.. قال: نعم: وهنا تساءل عبد الناصر: أليس من واجبنا إذن اعتقالك من باب التحفظ؟.. قال: بكل تأكيد.. وسأله: لماذا إذن كان ما صدر عنك من ضجيج واحتجاج واضراب عن الطعام فى السجن؟ وفكر قليلاً ثم قال: لمجرد تحسين أوضاع المعتقلين!

وهكذا بينما كان ترحيل المعتقلين من القاهرة إلى السجون فى الدرجة الثالثة، كانت عودتهم منها إلى القاهرة بعد تحسن المعاملة بقطار الدرجة الأولى عام ١٩٥٤ استجابة لمطالب القديس، وفى إحدى دورات اعتقاله، كانت العلاقات بين القاهرة والخرطوم فى أوج الخلاف والتوتر، فلما وجهت الدعوة إلى محمد أحمد محجوب وزير خارجية السودان لزيارة مصر لإجراء مباحثات مع الرئيس جمال عبد الناصر، كان شرطه الوحيد الإفراج

عن صديقه الشاعر عبد الرحمن الخميسى أولاً، وأن يكون فى استقباله على باب الطائرة ثانياً و.. كان له ما أراد!

على أن من أطرف قصص الخميسى داخل سجن روض الفرج قبل ترحيله إلى أسيوط عندما كان الكاتب الصحفى سعد زغلول فؤاد يصدر جريدة صغيرة على ورقة واحدة يوزعها على المعتقلين فيقرأها كل معتقل مقابل سيجارة!. وذات يوم ضبط المأمور النسخة الوحيدة من هذه الجريدة الصغيرة التى كان يكتبها بقلم رصاص على ورقة كراسة، فأمر بإيداع سعد فى زنزانة حبس انفرادى لحين التحقيق معه فيما تضمنته من تحريض ضد الحكومة. وكانت تلك المحاكمات داخل السجن تنتهى فى أحيان كثيرة بجلد المعتقل إذا ثبتت جريمته، وفى الوقت نفسه كان من حق المتهم وفق الأعراف السائدة حينذاك أن ينيب أحداً من زملائه المعتقلين محامياً عنه أمام المحكمة المصغرة المشكلة من المأمور وضابطين. ولم يجد سعد سوى الخميسى يستغيث به لإنقاذه، فهرع إليه قائلاً: الحقنى يا قديس.. أنا ح أتجلد!..

وطمأنه الخميسى، وقال له: ولا يهمك بس خليك مصحصح معايا يوم المحاكمة والباقى علىّ! وفى يوم المحاكمة وقف سعد والخميسى إلى جواره، وبدأ المأمور يتلو التهم: حيازة ورق وأقلام بصورة غير قانونية، توجيه الاتهامات إلى الدولة، تحريض المعتقلين إلخ..

وانتظر المأمور كلمة الدفاع. فتقدم الخميسى بهدوء قائلا: لكن ما أنت عارف الكلام ده كله يا سيادة المأمور قبل سعد ما يكتبه؟. وبهت المأمور

قائلاً: عارفه إزاى يعنى؟.. فقال الخميسى بجرأة وثقة: الله مش سيادتك إللى أمليت على سعد بعض العبارات اللى هنا؟. وذهل الرجل صائحاً: عبارة إيه يا أستاذ عبد الرحمن؟ فقال الخميسى بهدوء: تسمح تورينى الورقة وأنا أقول لحضرتك إيه العبارات اللى سيادتك أمليتها على سعد؟ تسمح. وفى دهشته ناول المأمور الورقة إلى الخميسى الذى تأملها وقال: مثلا العبارة دى الحكومة المستبدة. فصاح المأمور: انت عاوز تودينى فى داهية؟. فقال الخميسى ببراءة: لا أبداً.. لا داهية ولا حاجة. وناول الخميسى سعد زغلول فؤاد الورقة بسرعة قائلاً له بسرعة أكثر: كلها يا سعد!. والتهم سعد الدليل الوحيد لدى المحكمة. وعندما هاج المأمور وماج متهماً لخميسى بتدمير الدليل الوحيد، قال له الخميسى ضاحكا: موش سيادتك أنكرت التهمة أنا كمان قمت بالواجب لإنقاذك منها أنت وسعد.. ويا دار ما دخلك شر!

ويقول الكاتب الساخر محمود السعدنى أنه رأى القديس لأول مرة فى مقهى محمد عبد المنعم بميدان الجيزة مع الناقد الكبير أنور المعداوى، ثم صحبه زكريا الحجاوى بعدئذ إلى مكتبه فى صحيفة المصرى أواخر الأربعينيات وعرض عليه بعض قصص السعدنى فرحب بموهبته وأمده بشحنة هائلة من التفاؤل والأمل، ومن يومها لم تفرق بينهما إحن الحياة ومحنها.. يقول السعدنى: لا أعتقد أن الخميسى اهتز فى حياته إلا مرتين، مرة عندما خاض تجربة السجن، ومرة عندما واجه كارثة وفاة زوجته الفنانة فاتن الشوامى، لا أقصد أن السجن هز الخميسى بأن خلع قلبه من مكانه.. بالعكس، إنه كان ثابتاً طوال فترة السجن وواجه المحنة بشجاعة وصمد لها

حتى النهاية، لكن السجن ترك فى نفسه أثراً لا يمحى، فكان يردد بمناسبة وبلا مناسبة كل شيء مكلبش فى السجن يا ابنى.. الشمس مكلبشه.. والنهار مكلبش.. والهواء مكلبش.. والحياة كلها مكلبشه، وقد ظل بعد السجن لا يطيق الأماكن الضيقة أو المغلقة، ويحب الخلاء والهواء الطلق.

عاشق الكباب

منذ تعرفت على الشاعر القديس منتصف الخمسينيات ولا أعرف له سكناً إلا وكان على مقربة من محل جزارة يبيعه اللحم الجيد إلى حين ميسرة، رغم أن الشعار الذى يتصدر المحلات التجارية والمطاعم وورش الحرفيين بصفة عامة كان موحداً الشكك ممنوع والزعل مرفوع ورغم أن الخميسى كان دائماً مفصولاً من العمل إما لأسباب بوهيمية بحتة أو لأسباب سياسية تنتهى به دوماً إلى السجون والمعتقلات وربما لإفلاس أصحاب الصحف التى يعمل بها، رغم كل ذلك إلا أنه كان ينجح دائماً فى إقناع الآخرين بإقراضه قدر حاجته من المال.. وحتى تأجيل دفع إيجار شقته وثمن طعامه وملابسه وما إلى ذلك من الاحتياجات والخدمات. ومن ذلك أنه كان يشترى السجاجيد من رجل اسمه عبد الحميد بالقسط، وكان الرجل يأتيه أول كل شهر ليحصل على القسط، لكن الخميسى نادراً ما دفع أموالاً فى ميعادها، كان يؤجله. وذات يوم جاء الرجل فى ميعاده أول الشهر يقول له: يا أستاذ عبد الرحمن مش معقول كده.. دلوقت حضرتك متراكم عليك ست كمبيالات.. كل كمبيالة بعشرة جنيه.

فتشاغل الخميسى عنه، مدعياً التفكير والحزن. فقال له الرجل: خير يا أستاذ مالك؟ فأخذ الخميسى يشكو له همومه وديونه ومتطلبات العيال حتى أخرج الرجل من جيبه عشرة جنيهات وأعطاها له والدموع تكاد تفر من عينيه وهو يقول: معلش.. خد ونبقى نضيفها على الكمبيالات اللى مندفعتش!

كان عشقه للحوم بعد طول الحرمان والفاقة التى تجرعها أشكالاً وألواناً فى ريف محافظة الدقهلية ودهاليز القاهرة قبل أن ينجح بصعوبة فى شق طريقه إلى عوالم الإبداع والشهرة، ولم يكن اللحم عشق الخميسى وحده ونهمه إلى تذوقه، إذ أن معظم فطاحل الظرفاء والمتكلمين والمبدعين القادمين من بطون الريف كانوا على شاكلته، وبينهم كامل الشناوى والشيخ عبد الحميد قطامش المحامى والشاعر طاهر أبو فاشا والكاتب الساخر محمود السعدنى وغيرهم كثر.. وذلك أن المفهوم الشعبى العام آنذاك كان يؤكد على أن اللحم سيد الطعام.

كان رطل اللحم لا يتجاوز حسب نوعه وجودته عشرة قروش عهدئذ، إلا أن السواد الأعظم من الفلاحين المعدمين كان اللحم بالنسبة لهم مشكلة اجتماعية واقتصادية عويصة وصعبة المنال.. فهم كانوا يقبلون على شرائه فقط، حين ينادى منادى القرية بعبارة من ده بكرة ويردد الأطفال من خلفه بقرشين وينادى عند المعلم فلان.. ويردد الأطفال بقرشين.

عندئذ يهرع الفلاحون للانضمام إلى الحشد السعيد الذى تتقدمه جاموسة أو بقرة مذوقه بخيوط ملونة، ويتوج رأسها طوق من أغصان الأشجار

والورود.. حتى تصل العروس إلى محل المعلم الجزار الذى يشرع فى ذبحها وتوزيع لحومها على من يرغب فى الشراء بعد تسجيل الأسماء فى دفتر خاص على أن يتم دفع الثمن نهاية جمع المحصول الزراعى.. وغالباً ما يكون السبب وراء التعجيل بذبح الجاموسة أو البقرة كبر السن أو المرض أو تعرضها لحادث أليم أقعدها عن العمل والإنجاب وإدرار اللبن.

على أن قدوم عيد الأضحى أو الوفاء بنذر عند شفاء مريض أو قضاء حاجة.. كانت من المواسم السنوية والمناسبات الاستثنائية التى يتم فيها توزيع اللحوم صدقة أو زكاة على الفلاحين المعدمين.. وقد رأيت بأم عينى بعضهم فى الأربعينيات يمسكون حراباً طويلة يصطادون بها الفئران الغيطى الكبيرة التى تعيش فى أجراف النيل والترع بقرية أبوصير التى لا تبعد سوى ١٥ كيلو متراً عن القاهرة ثم يقبلون على شوائها وأكلها فى لذة.. وذلك مثال بسيط لحال الفلاحين قبل ثورة يوليو!

أذكر كذلك أن مرتب القديس الشهرى فى صحيفة الجمهورية لم يتجاوز مائة جنيه أو أكثر قليلاً عام ١٩٦٢، بينما كان استهلاكه من اللحوم ٨٥ جنيهاً إبان زواجه بالفنانة فاتن الشوباشى يرحمها الله، فكانت تتصل بالجزار تليفونياً ثم تدلى من بلكونة شقتها حبلاً ينتهى بسبت من الخوص حتى يضع فيه طلباتها من اللحوم الممتازة.. وهكذا عرف منزل الخميسى بكباب الحلة الجاهز دائماً لأخذ موقعه بين صنوف الطعام الذى كان يحتفى بتقديمه لضيوفه فى كرم وعن طيب خاطر.

كان الخميسى يقول عن نفسه.. أنا لا أتناول الطعام على شاكلة غيرى من الناس لكنى أتوحد معه.. وأتذوق لذته على مهل كما لو أنى أضاجعه أو

كأنه الطعام الأخير وبعده أودع الحياة.. فكان يضع أمامه صحناً وأسعاً من الصينى يضع فيه اختياراته من كباب الحلة ثم يبدأ فى مطارحة قطع اللحوم كلمات الغزل وعبارات التدليل: تعالى على جنب إنتى ياحبيبتى.. وإنتى ياروحى لسه ماجاش دورك.. قربى عليه ياسنيوره متخافيش، ثم يرصها دوائر أو خطوطاً مستقيمة وبعدها يبدأ فى تناولها قطعة وراء أخرى وهو يصدر أصواتاً عالية كما لو أنه يستمع فى نشوه إلى فاصل من الموسيقى والطرب العاطفى الجميل الذى يشنف الآذان ويأخذ بمجامع القلوب.

وعندما يكون الخميسى مدعواً للعشاء أو الغداء عند أحد الأصدقاء كان لا يدخل كالعادة إلى الصالون وإنما إلى المطبخ مباشرة لمعاينة أصناف الطعام والتأكد من أسلوب الطهى وضبط معايير البهارات، وكان حريصاً على تذوق الطعام قبل تقديمه إلى الضيوف.. يوماً كنا مدعوين أوائل السبعينيات على العشاء فى منزل أحمد دياب السكرتير الأول بسفارة السودان فى جاردن سيتى وكان الحفل على شرف مطرب السودان الكبير الأستاذ عبد الكريم الكابلى.. ووصل الضيوف تباعاً: أذكر من بينهم سفير السودان الأستاذ عبد الكريم ميرغنى وأحمد حمروش رئيس تحرير روز اليوسف والكاتب الناقد رجاء النقاش.. ومعهم عدد كبير من الصحفيين والدبلوماسيين والفنانين.

تأخر وصول الخميسى حتى أشار أحمد دياب بتقديم الطعام.. لكن ما أن أكتمل وضع الطعام على المائدة.. حتى دق جرس الباب ودخل الخميسى وأدرك أنه فاته تذوق الطعام فى المطبخ قبل تقديمه للضيوف، ثم

إنه قارن بين عدد الضيوف وحجم الطعام وعندئذ اختار لنفسه فخذة كبيرة من اللحم المشوى على الفحم الذى يسميه أهل السودان شيه وراح يوهم الحاصرين بأنه بصق فوقها حتى صدقه الجميع وابتعدوا عن مد أيديهم إلى الفخذة التى تفوح منها رائحة الشواء الشهى وراح يلتهمها وحده فى هدوء وتلذذ وبصوت عال أثار من حوله الضحكات.

من غرائب الخميسى ــ تلك الليله ــ أنه اصطحب معه إلى الحفل شاباً طويلاً مفتول العضلات أصلع الرأس قدمه إلينا باسم سمير ولى الدين المستشار فى مجلس الدولة.. وكنا قد انخرطنا بعد العشاء فى حديث ممتع قدم له الأستاذ عبد الكريم الكابلى حول فنون الغناء السودانى بعد فاصل من ألوان غنائه الجميل.. حيث انتقل الحوار تلقائياً إلى العلاقات المصرية السودانية وأوجه قصورها ومعالم ازدهارها.. وأدلى كل من الحاضرين بدلوه إلا هذا المستشار المفتول العضلات الذى ظل صامتاً حتى خلناه مستغرقاً فى تفكير عميق.. وعندئذ بادر السفير عبد الكريم ميرغنى يدعوه إلى المشاركة فى الحوار بدعوى أننا فى شوق إلى الاستماع إلى رأيه ورؤاه.. ونظر المستشار إلى الخميسى كمن يطلب منه الإذن بالحديث فقال له مرسيدس.. وإذا بالسيد المستشار يردد كلمات غير مفهومة.. بيب.. بيب.. ثم يقول له الخميسى: لورى.. ويعود إلى ترديد كلمات أكثر غرابه كالنعير.. عاو.. عاو.. وفهمنا من الخميسى أن سيادة المستشار يهوى تقليد كلاكسات السيارات، وأنه يتردد للعلاج لدى طبيب نفسى وهو فى طريقه إلى الشفاء بإذن الله!

ولم يكن هذا الشاب مستشاراً ولاعلاقة له لا بالسياسة أو الثقافة من قريب أو بعيد.. كان مأمور ضرائب قادماً من الصعيد يجرب حظه فى تقليد أغانى عبد الحليم حافظ أمام ميكرفون الإذاعة.. وعندما رفضته أو لفظته كان الخميسى جاهزاً لاحتضانه واستيعابه.. حيث حلق رأس الشاب بالموسى على شاكلة الممثل الأميركى الشهير يول براينر ثم أشار عليه بالوقوف يومياً فى محل البن البرازيلى بشارع سليمان باشا.. بدعوى أن هذا المكان يتردد عليه الصحفيون والمخرجون، ولابد أنهم سوف يلتفتون إليه ويكتبون عنه، وربما وقع عليه الاختيار للعمل ممثلاً فى أعمالهم السينمائية أو المسرحية..

والعجيب أن أنيس منصور كتب عن ظاهرة هذا الشاب فكان مصدر شهرته حيث تلقفته السينما والمسرح وأصبح ممثلاً شهيراً بالفعل.. وتزوج من الممثلة البدينة ليلى حمدى المعروفة بلقب رفيعة هانم وأنجب الممثل الشاب الشهير البدين علاء سمير ولى الدين.

ولا أذكر إننى رأيت الخميسى خارج بيته، إلا وكان يتصدر مائدة فى مطعم أو حانة أو مقهى، والطعام أو الشقائق والنقانق فى متناول يده وفمه بوفرة.. حتى عندما كان يعمل فى صحيفة المصرى وفى غيرها من الصحف التى فصل منها تباعاً، كان مكتبه مائدة لطعامه وإطعام زملائه، وهو الذى أقنع كامل الشناوى عندما كان رئيساً لتحرير جريدة الجمهورية، وكان على شاكلته محباً للطعام ولوعاً بالسهر، أن يستعيض ما يدفعه كل ليلة ثمناً لطعامه وطعام غيره من الذين يرتادون منتدياته فى الكازينوهات والفنادق

والمطاعم، بصينية العشاء الكبيرة التقليدية التى كان يطلبها من الحاتى أو من الحاج زكى السماك.. ويدعو إليها طاقم وردية المحررين والعمال، وتلك كانت الوسيلة الوحيدة لاستبقاء كامل الشناوى فى العمل حتى موعد طبع الجريدة، حيث يمارس حولها هواياته الأثيرة لفنون الشعر والكلام والسخرية والمقالب الشهيرة!

يوماً دعانى الخميسى وصديقنا المشترك بشير محمد سعيد نقيب الصحفيين السودانيين إلىْ غداء فى مطعم كورسال بشارع الألفى، وغاب عنا دقائق يحدث المترودتيل وإذا بالأطباق والسلطات والمزات تنهال على المائدة كما لو أنها وليمة لجمع كبير من الأحباب، وتعجب الأستاذ بشير وسأله: هل تنتظر ضيوفاً غيرنا؟

فقال الخميسى: بل أنت ضيفنا الكبير الوحيد!

وقال بشير: ولماذا إذن كل هذا الطعام.. هل دار بخلدك أننى فيل أو السيد قشطة؟

وضحك الخميسى وقال فى تلقائية: تلك عقدة نفسية ورثتها من أيام الفقر والعوز عندما كان الطعام يفرغ من أمامى قبل أن تفرغ شهيتى من الشبع وأنات الجوع.. وقد حلت عقدتى يوم أن أتاحت لى الظروف أن أشبع وبقية من الطعام لا تزال أمامى!

أذكر أننى كنت أمشى الهوينا ذات مساء فى ميدان التوفيقية لا ألوى على شىء عندما رأيت الخميسى يقود سيارة صديقنا الدكتور مصطفى مشرفة الفاخرة وكانت طراز بويك أويلى من النوع إلكابورليه المفتوح

السقف فما كاد يلمحنى وإلى جواره زوجته الفنانة فاتن الشوباشى ونادانى حتى توقفت..

وسالنى: رايح فين؟

قلت: موش عارف!

قال: معاك فلوس؟

قلت: جنيه واحد.. بتسأل ليه؟

وقال فى حزم: من غير ليه.. اركب وانت ساكت.

وركبت.. وإذا به يستدير بالسيارة فى الميدان بضعة أمتار ثم يتوقف عند مطعم الكاشف.. وتقدمنى إلى داخله.. وجاء المترودتيل يسأله فى لهفة: فيه حاجة ياقديس؟.. غلط فى الحساب.. ولا نسيت حاجة؟!

وأدركت أنه كان قد غادر المطعم منذ دقائق بعد أن تناول وزوجته العشاء، وبادره الخميسى قائلاً بالفرنسية أنكور يعنى كمان ثم ضحك وقال: الحقيقة العشاء الليلة كان رائعاً وعشان كده اتهضم فى دقائق.. هات لنا من فضلك نفس الطلبات مرة ثانيه، وتعجب المترودتيل قليلاً.. لكن لأن الزبون دائماً على حق، لذا استجاب لأوامر الخميسى على الفور ووضع أمامنا ما يكفى لعشاء ثلاثة أشخاص وأكثر.. وبينما اعتذرت فاتن الشوباشى بأنها لم تهضم العشاء بعد.. انهال الخميسى حتتك بتتك يلتهم نصيبها ونصيبه من الطعام.. فقط حتى يشجعنى على تناول العشاء!..

وكان فى نهاية شارع كلوت بك كُبابجى شهير بلا دكان اسمه عثمان يشوى اللحم فوق عربة على الرصيف، وكانت تربطه بالخميسى

صداقة وعلاقة تعامل منذ ما يقرب من ربع قرن. ورغم الشكوك والتشنيعات التى كان يطلقها كامل الشناوى على هذا الكبابجى بدعوى أنه كلابجى يذبح الكلاب ويشوى لحومها لزبائن أخر الليل من السكارى والمسطولين، إلا أن الخميسى وغيره من الفنانين والصحفيين والمعلمين والصعاليك ظلوا يتقاطرون عليه حتى وافاهم الأجل ووافاه.. وكان من بينهم المنولوجست محمود شكوكو والشاعر مصطفى حمام والمخرج حسن الإمام والفنان فريد شوقى والمعلم دبشة الجزار زعيم حزب مشجعى أم كلثوم والإذاعى مأمون أبو شوشة والمطرب محمد قنديل ومحمود السعدنى والموسيقار بليغ حمدى والصحفى حمدى لطفى.

وكثيراً ماكانت حالة خاصة من الغيبوبة والسرحان أو أحلام اليقظة تراود الخميسى فى الليل، كلما أقبل على إبداع قصيدة أو عمل فنى أو كان فى حالة حب أو تفكير فى الخروج من مأزق.. وعندئذ يركب تاكسياً يدس فى جيب سائقه خمسة جنيهات أكثر أو أقل ثم يطلب منه أن يفسحه فى شوارع القاهرة وضواحيها بشرط ألا يبادله الحديث.. وعندئذ يبدأ فى مناجاة نفسه بصوت عالٍ بينما السائق فى دهشة من أمر هذا المجنون أو الموهوم.. فإذا وصل عداد التاكسى إلى نهاية المبلغ المدفوع.. كان عليه أن يتوقف فى نفس اللحظة أمام عثمان الكبابجى حيث يجلس القديس على الرصيف منكباً على الورق يدون حصيلة مشواره الطويل من الإبداعات وحلول المشكلات وهو منهمك من جماع الكباب!

وسألته يوماً: كيف تأكل كباب عم عثمان بعدما أشاع كامل الشناوى فى كل مكان عن انتمائه إلى فصيلة الكلاب.. أجاب قائلاً: أصل عمك

كامل بتاع صالونات ويكره قعدات الرصيف.. ثم إن كباب عثمان لذيذ حتى لو كان كلاب.. أهى على الأقل أكثر وفاء من البهايم وكتير من الناس!

وكان أبناء الخميسى يسعدون غاية السعادة ويقفزون من الفرحة إذا أعلن الخميسى إفلاسه صارخاً فيهم: ما فيش ولا مليم. خلاص! لأن ذلك معناه أنهم سيأكلون فقط الكباب والريش. فقد كانوا فى الأيام العادية حينما يكون مع الخميسى فلوس يأكلون أى شيء كباقى خلق الله، لكنهم كانوا فى أيام الفلس يأكلون فقط الكباب! والسر فى ذلك أن الخميسى كان له صديق اسمه الحاج شعراوى صاحب محل كباب فى شارع التحرير، فكان إذا أفلس تماماً ضرب له تليفون: يا حاج ابعت لنا كام كيلو كباب، وفراخ، وسلاطات على النوتة!. وظلت بقية حساب الحاج شعراوى تطارد الخميسى حتى الاتحاد السوفيتى، فكان يرسل له من هناك دفعات متتالية من الفلوس المدين بها! وكان أولاده حينما يغيب الكباب فترة يسألونه: أنت ح تفلس إمتى يا قديس؟!!

قصة اكتشاف سعاد حسني

مما لاشك فيه أن اكتشاف القديس للفنانة سعاد حسنى، إنما كان الاختبار الحقيقى والنجاح الأكيد لأبرز قدراته الفذة على الغوص فى أعماق المجتمع، والفوز بأثمن مخبوءاته من الجواهر واللآلئ الثمينة، فما أن منحها فرصة الضوء حتى تألقت وأبدعت!

وعلى غير ما تردد ونشر حول همزة الوصل فى معرفة القديس بسعاد حسنى، تارة عبر علاقة الخميسى بالمهندس الزراعى كمال منسى زوج شقيقتها المطربة نجاة الصغيرة، من خلال علاقات قديمة تعود إلى رفقة النضال السياسى ضد الملكية والاستعمار والإقطاع، وتارة أخرى عبر رفقة السجون والمعتقلات مع أحد إخوتها من أبيها حين كان يقضى مدة العقوبة بعد ثبوت اتهامه كخطاط محترف بتزوير العملات الورقية فئة المائة جنيه، إلا أن الحقيقة تكذب الروايتين جملة وتفصيلاً.

والحكاية رواها القديس لأول مرة فى حلقات نشرتها صحيفة السياسه الكويتيه إبتداء من شهر يناير عام ١٩٧٧ يقول فى تقديمه لها:

كانت سعاد حين دخلت البيت واقفة تغسل ملابسها وتدعكها دعكاً بيديها.. وحين أفكر مسترجعاً قصة ظهور سعاد حسنى على شاشة السينما العربية، تتوافد متزاحمة جملة من التساؤلات إلى ذهنى:

ـــ إذا لم يمنح أحدنا الآخر، فكيف يمكن أن يتعلّم الصغير من الكبير أن يمشى؟

ـــ هل حقاً تلعب المصادفة دوراً مهماً فى حياة الإنسان؟ إن المرء بالحتم لا يخلق بإرادته هو، إنما الصدفة التى تقع فى حياته فيقتنصها وتتبدل حياته، أو لا يهتم بها، فتمر به دون أن تحدث فى حياته أثراً ملحوظاً. ذلك لأن مقوماتها ترد إليه من خارج نفسه، ومن خارج حياته الشخصية.

ـــ هل لابد من ربط الموهبة بالتعليم وبالبيئة الثقافية؟ وهل هناك علاقة بين الموهبة والعلم؟ وما هى تلك العلاقة؟ ماهو حجمها وأثرها؟ ولو أنه من السائد ضرورة انصهار الموهبة فى بوتقة الثقافة كى تصبح سبيكة من ذهب القدرة.

ـــ هل كان من الأفضل لسعاد حسنى ذاتها، من الناحية الشخصية، لو ظلت فى دائرة الظل تعيش، أم كان الأحسن لها أن تخرج من الظل كما حدث، وأن تحيا كما هى اليوم تحت الأضواء.. نجمة ساطعة؟.

ـــ هل ترانى أسأت إلى سعاد حين فتحت أمامها باب النجوم أم ترى أنى أحسنت؟

هذه وغيرها من التساؤلات المتلاحقه المختلفة، تطرح نفسها على عقلى، حين أفكر فى حكاية سعاد حسنى النجمة الأولى للسينما العربية اليوم.

ومع ذلك فالأرجح أن استعراض تلك الحكاية، قد يجيب عن بعض تلك التساؤلات، إجابات مباشرة، من ثنايا القصة وتفاصيلها.

على أنه قد يتساءل بعض القراء: لماذا يعنى أديب مثلى بأن يكتب قصة اكتشافه لسعاد حسنى النجمة السينمائية؟ وهل مثل هذا الموضوع يستحق من الخميسى أن يمنحه وقتاً وجهداً؟ أو ليس من الأفضل أن يتفرغ الخميسى ويستغل وقته وجهده فى نظم قصيدة أو كتابة قصة؟ وفى رأيى أن تقديمى لقصة سعاد حسنى يحمل دليلاً قاطعاً على أن الشعب غنى بمواهب أبنائه البسطاء العاديين، وأن تلك المواهب إذا وجدت الرعاية اللازمة، شقت طريقها إلى أعلى المستويات، صاعدة، متألقة، تبهر الناظرين. هذا، إلى جانب إنى، بالقدر المتاح، سأحاول أن أعالج قصة سعاد، غير منعزلة عن الظروف الاجتماعيه التى صاحبتها، نشأة سعاد ونموها، وتطورها. إن سعاد حسنى جزء حى من تلك الظروف، إلى حد ما، وعكستها فى الحياتين الخاصة والعامة على السواء. وذلك، بما سلكت سعاد، وتصرفت أمام الأحداث.

وعندى أن مثل هذا الموضوع، بما يتضمنه من عرض ومناقشة بعض القضايا الثقافية والفنية، جدير بأن أفرغ له الوقت، بأن أمنحه ما هو قمين به من الجهد.

والواقع أن جملة ظروف وملابسات ومصادفات مدهشة، تضافرت على بزوغ نجم سعاد من الظل إلى النور، فقد حدث أن الدكتور لويس عوض أنشأ جماعه الجرامفون فى كلية الأداب جامعة فؤاد الأول التى تغير

اسمها إلى جامعة القاهرة بعد ثورة يوليو ـــ إثر عودته نهاية الأربعينيات من بعثه دراسية فى الخارج ونيله شهادة الدكتوراه، وقد اختار القديس لإلقاء محاضرات على أعضاء الجماعة عن الموسيقى إلسيمفونية والتذوق الموسيقى، بعد سماع أعمال كبار المؤلفين الموسيقين عبر الإسطوانات، فكان لقاؤه بشاب مثقف نابه من رواد ندوات الجمعية يدعى عبد المنعم حافظ يعمل بالتدريس، حيث توثقت بينهما الصداقة شهوراً ثم اختفى فجأة، ومرت سنوات حتى التقى به من جديد، ودعاه لزيارته فى منزله بحى شبرا.. يقول القديس: وكانت سعاد حسنى حين دخلت إلى البيت واقفة لصق حوض مياه فى الممر، تغسل بعض ملابسها، وتدعكها دعكاً بيديها، وخصلات شعرها تغطى جبينها، وأجزاء من وجهها، ولم أكن أدرى لحظتها، أن جدائل شعرها المنسكبة، تختزن وراءها تلك اللؤلؤة النادرة المثال، والتى أصبحت تخلب بالفن قلوب الملايين.

على أن القديس أدرك بفطنته وثاقب نظره أن سعاد ليست ابنة عبد المنعم حافظ، إذ كانت آنذاك فى السابعة عشرة ربيعاً، وبدوره أدرك عبد المنعم حافظ ما يدور فى عقل القديس من مقارنات وتخمينات، ومن ثم أطلعه على طلاقه من زوجته الأولى، وزواجه بالسيدة جوهرة أم سعاد وشقيقتها الكبرى كوثر والصغرى صباح من زوجها الأول محمد حسنى.

كان القديس الفنان المخضرم يعرف مدى السوء الذى كانت عليه أخلاق محمد حسنى، وصلافته فى معامله المطربة نجاة الصغيرة ابنته من زوجة أخرى، فهو لم يكن يراعى ذمة ولا ضميراً وهو يقتر عليهما فى الطعام، بل

كان يسقيها الخل كذلك عنوة حتى يمنع نموها وتظل دوماً نحيفة، وبذلك تظل أمام جمهورها المعجب بصوتها الغض الرقيق المطربة الصغيرة والطفلة المعجزة التى تقلد أم كلثوم فى غنائها ووقفتها وحركاتها وسكناتها، إذ كان يعتقد أنها لو بدت كبيرة السن وممتلئة فربما فقد الذهب الذى تبيضه الدجاجة بعد كل حفلة تغنيها نجاة!

من هنا رق قلب القديس لسعاد حسنى، فلا بد أنها شربت من كأس العذاب الذى شربت منه نجاة، فما أن فرغت من غسل ملابسها وجلست إليه، حتى راح يحادثها، ويستنطق مخارج الكلمات والحروف على شفتيها، ولاحظ أنها تجهل العربية الفصحى وكتابتها، وعرف أنها انقطعت عن الدراسة امتثالاً لقسوة والدها محمد حسنى..، لكن ملامحها الصافية وسنها الضاحك وبراءتها كانت كافية للتعبير عن مشاعرها وخبيئة أحاسيسها بعفوية وصدق!

لم يستغرق التفكير وقتا طويلا من القديس، فبعد أيام كان قد اختمر قراره على اختيارها لبطولة فيلم حسن ونعيمة الذى كتب له القصة والسيناريو والحوار، لكنه تحسب موقف هنرى بركات مخرج الفيلم، من ثم عهد للممثل إبراهيم سعفان تعليمها اللغة العربية وقواعدها وتدريبها على الإلقاء، وكان يعمل آنذاك ممثلا فى فرقة عبد الرحمن الخميسى المسرحية فما أن اختبرها القديس واجتازت الامتحان بنجاح حتى صحبها إلى الإستوديو للوقوف مباشرة أمام الكاميرا.

هنا كانت المفاجأة، إذ رغم أن هنرى بركات لم يكن يدرى شيئاً عن قرار القديس، إلا أنه أعلن أن نتيجة التست أى الاختبار، سواء من حيث

الشكل أو التعبير والإلقاء تؤكد نجاح سعاد حسنى كوجه سينمائى من حيث المبدأ، ولكن فى أى دور؟

عندئذ واجهه القديس باختيارها لبطولة فيلم حسن ونعيمة، فكان الخلاف بينهما حاداً، إذ كان يرى فى هذا الاختيار مغامرة غير محسوبة العواقب، ولعده أسباب:

أولاً باعتبارها وجها جديداً، ومكانها بالتالى فى دور ثانٍ أو ثانوى.. الثانى حتى لو كانت تصلح لدور البطولة، فهى تحتاج إذن إلى ميزانية خاصة للدعاية لها والتعريف بها حتى يقتنع الموزعون بتسويق الفيلم وثالثاً أن محرم فؤاد الذى اختاره القديس ليقاسمها البطولة وجه جديد أيضاً، ولم تكن قد تحققت شهرته بعد، ولم يعرف كمطرب إلا فى ملهى عطيات حسين وغيره من ملاهى كورنيش الإسكندرية وهذا لا يكفى.. رابعا لأن العند يولد الكفر وذلك أن القديس كان قد عرض بطولة الفيلم من قبل على فاتن حمامة وعبد الحليم حافظ، وعندما طلبا قراءة السيناريو والحوار أولاً، استشاط غضباً، واعتبر هذا الشرط إهانة وتشكيكاً فى باعه العريض كمبدع وحرفى، وأقسم بأغلظ الإيمان أن يبحث عن بديلين غيرهما حتى ولو كانا مجهولين وبلا تجربة من باب التحدى!

وهكذا أمام عناد القديس ورهانه على نجاح الفيلم على غرار النجاح الساحق الذى كان يجذب الناس للاستماع إلى حلقات مسلسل حسن ونعيمة عبر الراديو أذعن بركات لمشيئته، ووافق محمد عبد الوهاب باعتباره صاحب شركة صوت الفن منتجة الفيلم، وبرر بركات فيما بعد اقتناع عبد

الوهاب بنجمين جديدين لأول مرة، أنه وضع فى حساباته أن نجاح مسلسل حسن ونعيمة إذاعياً، دعاية مجانية لا بأس بها للفيلم. وهكذا مرت المغامرة بنجاح ساحق! وكسب القديس الرهان، فقد حقق الفيلم نجاحاً وإيرادات غير مسبوقة لم يتوقعها أحد، وما أن وضع سعاد حسنى على أول درجات سلم الشهرة، حتى تركها وتفرغ لاكتشاف غيرها، لتصنع مجدها وحدها بجهودها وإمكاناتها الذاتية، فكانت تستشيره بين الحين والآخر فى شئونها الفنية ويستجيب، وعندما عرض عليها المنتج السينمائى تكفور احتكارها لبطولة أفلامه، كان رأيه أن تظل حرة بلا قيد حتى تختار ما يناسبها، وتخوض تجربة العمل مع المخرجين الشبان الذين نالوا قسطاً وافراً من الدراسة الأكاديمية، وذوى الاتجاهات الفنية الجديدة، وأصحاب الموجة الحديثة!

أذكر بالمناسبة واقعتين هامتين، الأولى ذات صلة وثيقة بحياة سعاد حسنى الخاصة، عندما انبرى القديس لحمايتها والدفاع عنها دون أن تطلب منه العون، إثر محاولة أحد المسئولين مضايقتها لأسباب مجهولة، عندئذ كرس القديس علاقاته الحميمة مع كامل الشناوى وإحسان عبد القدوس وشعراوى جمعة لإبعاد هذا المسئول عن طريقها، بعد أن كادت تعتزل الفن والناس بسببه والثانية عندما عرف اعتزامها احتراف الغناء إلى جانب التمثيل، ورأى أن هذا الخيار من شأنه أن يشتت إعجاب الجمهور بها كممثلة قديرة، وربما أثار غضب نجاة الصغيرة أيضاً، ولا مانع من الغناء الخفيف بين فيلم وآخر حسبما يقتضى دورها.. واستجابت لرأيه!

على أى حال ظلت سعاد حسنى على وفائها لأستاذها، تشيد فى كل أحاديثها الصحفية بفضله فى اكتشافها، وبدونه كان مصيرها ومكانها فى

الظل..زوجه وأم أولاد، ومن علامات وفائها أنها كانت تتردد على أسرة الخميسى بعد أن هاجر من مصر وتعرض عليهم أن تقدم لهم أى شىء يحتاجونه. ولم يكن ذلك غريبا عليها فقد كان وفاؤها بلا حدود، وشهامتها أيضاً! ومن ذلك أن الخميسى أخفى لديها الدكتور أنور عبد الملك فترة وكان مطاردا من مباحث أمن الدولة قبل أن يرتب له سفره من مصر إلى باريس! وظلت هذه القصة طى الكتمان لا يعلم بها إلا قلة قليلة.

وقد أكد لنا الخميسى عام ١٩٦٤ ـــ على ما أذكر ـــ أن سعاد حسنى على علاقة عاطفية بعبد الحليم حافظ، ثم عاد وأكد أنهما على وشك الزواج، ثم أفضى إلينا أخيرا بأن عبد الحليم يحاول التحايل على نصيحة الدكتور ياسين عبد الغفار الذى رأى أن حالته الصحية لا تسمح له بالزواج.

وكان عبد الحليم قد عبر فى حديث إذاعى عام ١٩٥٦ عن شوقه للتعرف إلى عبد الرحمن الخميسى من كثرة ما قرأ له وسمع عنه من أصدقائه.. وكان الخميسى رهن الاعتقال حينذاك، وتشاء الصدفة فيما بعد أن تدخل ضياء ابنة الخميسى المستشفى لإجراء عملية جراحية، ولما سألها الخميسى عن أى شىء تطلبه قالت: نفسى أشوف عبد الحليم حافظ. وقال الخميسى لابنته: بس كده؟ خمس دقايق وجاى لك. ولم يتخيل أحد أن يعود الخميسى بعبد الحليم فى يده إرضاء لرغبة ابنته، لكن هذا ما حدث. فلم تمر نصف ساعة حتى دخل الخميسى ومن خلفه عبد الحليم الذى ظل يداعب ضياء ويهون عليها خوفها من العملية وهو جالس قربها يداعبها ويغنى لها، بينما الأطباء والممرضات والمرضى يتقاطرون على غرفتها لرؤية

وسماع عبد الحليم حافظ، وبعدها توثقت صلته بالخميسى، خاصة أن عبد الحليم كان قد غنى للخميسى من قبل أغنية بعنوان الأصيل الذهبى مع بداية مشوار عبد الحليم الغنائى، مطلعهايقول:

الأصيل الذهبى انساب فى الأفق الحبيب

رقصت فى ركبه الساحر أطياف الغروب

تتهادى فى السما ألوانه تسبى القلوب

فيغنى الزرع والطير على الوادى الخصيب

وقد وجدت أصل هذه الأغنية بالكامل منشوراً فى مجلة الإذاعة المصرية بتاريخ ٢٩ يناير ١٩٤٩ وكتب فوقها: الأصيل الذهبى ــ نظم عبد الرحمن الخميسى ــ لحن عبد الحميد توفيق ذكى، بينما ضاع تسجيل عبد الحليم للأغنية بصوته فى أضابير الإذاعة.

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى يكتشف فيها الخميسى موهبة فى الفن والأدب والصحافة، لكن تجربته أو مغامرته فى اكتشاف سندريلا الشاشة العربية سعاد حسنى ولدت لديه رغبة عارمة فى أن يحقق ذاته كمخرج ومنتج سينمائىٌ مسئول عن العمل من الألف إلى الياء، أن يكتب أدباً ويبدع فناً بلغة الكاميرا!

عساكر إنجليز من النوبة

خاض الخميسى تجربة الإخراج والإنتاج السينمائى فى جسارة وإصرار جامح، عندما كون شركة الفنية للسينما ضمته وعدداً من أولاده، بينهم كاتب السيناريو والحوار، وبينهم الموسيقى، ومدير الإنتاج، وفى ذلك الوقت كان تدبير التمويل اللازم لعملية الإنتاج سهلة وميسورة، بفضل وجود مؤسسة السينما كقطاع دولة، فكانت المؤسسة تقدم سلفة مالية للمنتج تكاد تفى باحتياجات إنتاج الفيلم، وتتولى التوزيع. وكان رئيسها عهدئذ الدكتور عبد الرازق حسن الاقتصادى واليسارى السابق.

ومن حسن حظ الخميسى أن مؤسسة السينما التابعة للقطاع العام كانت قد نهضت للقيام بالمهمة على أكمل وجه.

قام الخميسى بدءا من عام ١٩٦٥ بإخراج أربعة أفلام كتب قصصها وحواراتها وشارك فى إعداد السيناريوهات ووضع الموسيقى التصويرية لها، وأنتج ثلاثة منها هى:

الجزاء عام ١٩٦٥، ثم عائلات محترمة عام ١٩٦٨، ثم الحب والثمن فى أكتوبر ١٩٧٠ ــ وأخيرا زهرة البنفسج عام ١٩٧٢. فإن كانت هذه

الأفلام لاتقل من الناحية الفنية والحرفية عن الأفلام السائدة وقتذاك، إلا أنها تميزت عنها من زاوية المضمون الاجتماعى والسياسى، وأبرزها فيلم الجزاء.. يقول محمد عودة فى مقال نقدى عن الفيلم: هذه قصة مصر، وهى قصتنا جميعا، وكانت جرأة أن تقتحم السينما هذه القصة، وأن تحاول تقديم فصل قد يكون قصيرا ولكنه رئيسى منها، وأن يقدمه عبد الرحمن الخميسى فى فيلم الجزاء، وليس هناك من يستطيع أن يغوص فى ثنايا روح مصر مثل الخميسى، وليس هناك من يستطيع أن يترجمها إلى لغة سينمائية مثله عندما دخل بالكاميرا منطقة لم تدخلها من قبل، واختار فترة قبيل ثورة ١٩١٩ بكل نبضها واضطرامها وبكل خيالها واشتعالها، ودخل الخميسى المجال الروحى الحقيقى لحياتنا، ورسمه بصدق وتعمق وموضوعية، وذلك كمصرى يكتشف نفسه، وليس كتاجر يبيع صوراً وانفعالات، وقد قال هذا الفيلم أهم حقيقة وصور أقدس منطقة، وجاء كله كقصيدة سينمائية تحوى كل الأصالة، وكل الحرارة الجياشة التى تطبع فن الخميسى شعراً أو نثراً أو مسرحاً أو سينما أو موسيقى !

وكتب عميد الإمام يقول: إن هذا الفيلم سيقضى حتما على الأسطورة الشائعة فى الوسط السينمائى.. أسطورة أن الفيلم الوطنى لايمكن أن يحقق نجاحاً شعبياً، أو يفلح فى جذب ونيل إعجاب الجماهير، وقد اختار عبد الرحمن الخميسى السنوات الطافحة بالقلق التى سبقت ثورة ١٩١٩ موضوعا لأول فيلم يخرجه للسينما المصرية وكتب القصة والسيناريو والحوار، كما اشترك مع أندريه رايدر فى وضع موسيقاه التصويرية التى

كانت من أبدع ما عرفته الأفلام العربية من موسيقى تصويرية، وكانت من غير شك من أسباب النجاح الكبير الذى حققه هذا الفيلم

وكان هناك كثيرون ــ وأنا منهم ــ يشفقون على الخميسى من تجربة الإخراج السينمائى، فعلى الرغم من أنه مجموعة فنانين موهوبين فى شخص واحد، وعلى الرغم من أنه حقق شيئا لم يحققه فى التاريخ البشرى إلا أفراد قلائل، وهو أنه نبغ فى جميع الأعمال الفنية التى أداها على تنوعها.. إلا أن طريق الإخراج السينمائى كان طريقاً جديداً تماماً عليه.. وهو طريق أقل ما يقال عنه أنه ملىء بالحفر والمطبات.

فقد برز الخميسى كشاعر وكاتب قصة وتمثيلية، ومخرج مسرحى وإذاعى وملحن ومؤلف موسيقى، وبرز أيضاً فى مجال الصحافة كاتب مقال، وصحفياً أيضاً، لكن كل هذا لم يكن كافيا لضمان نجاحه كمخرج سينمائى، لاسيما أن الإخراج علاوة على أنه فن فهو تكنيك وحرفية، إلا أن الخميسى رغم كل المخاوف حقق فى ميدان الإخراج السينمائى نجاحا لا يقل عن النجاح الذى حققه فى جميع الأعمال التى أقدم عليها من قبل وقفز إلى الصفوف الأولى بأول فيلم قدمه للسينما عام ١٩٦٥ وهو الجزاء . ونصب عينه الانحياز الثابت والغريزى إلى قضايا الشعب فكان موضوعه ثورة ١٩ ونضالها ضد المحتل الانجليزى، وكان اتجاهاً جديدا على السينما المصرية التى غرقت حينذاك فى موضوعات كثيرة ليس من بينها تاريخ الشعب المصرى وكفاحه. وكان ذلك أول تحدٍ، وكان التحدى الثانى أن الخميسى غامر كعادته فلم يستعن بنجم شباك مشهور واحد، ولا بنجمة

شباك واحدة، التحدى الثالث أن الخميسى نفسه كمخرج وكاتب سيناريو كـان اسـمـا جـديدا هو الآخـر فى هذا المجـال! ورغم ذلك.. أتقنوا أدوارهم وقدموا عملاً جيداً ونظيفاً!

على أن النجاح الذى حققه الخميسى فى فيلم الجزاء كمخرج تفوق عليه كـمؤلف للقـصـة وكـاتب للسيناريو والحوار، فـضـلا عن نجـاحـه كموسيقى، ويكفى أنه قدم قصة سينمائية لايحس المرء بالملل لحظة أثناء مشاهدتها، على الرغم من خلوها من عناصر التشويق التقليدية التى اعتادت قصص الأفلام العربية أن تعتمد عليها!

وأما نقيب الصحفيين، حافظ محمود فقد كتب يقول: لقد كان الظن السائد أن ثورة ١٩١٩ قامت فجأة بلا مقـدمات شعبية، وكان هذا خطأ كبيرا تعرض فيلم الجزاء لتصحيحه، لقد كان الجندى البريطانى هو سيد الطريق فى تلك الآونة، وعلى قـارعـة الطريق أراد جندى بريطانى أن يغـازل فتاة مصرية، فتصدى له أخوها واستطاع أن يحميها، لكن دفع الثمن بين جدران السجون، وكانت هذه بداية القصة، بداية ترمز إلى الغليان فى نفوس الشباب دفاعاً عن شرفهم، وللدفاع عن هذا الشرف تكونت جماعة سرية، ولم يكن ممكناً إلا أن تكون جماعة سرية، فقد كان الجهر بمقاومة الانجليز مستحيلاً فى تلك الفترة التى تغلغلت فيها القوات البريطانية حتى فى أقسام البوليس.. وحتى فى أزقة الأحياء الشعبية.

وما أيسر على كاتب أو مخرج من التقاط واقعة سجلها التاريخ بالتفصيل ليصنع منها قصة أو فيلما يصفق له النقاد، لكن الطريق الصعب هو طريق

اكتشاف المجهول من تاريخ الشعب وتصوير هذا المجهول قصة أو فيلما. وقد اختار الخميسى هذا الطريق ولم يته فيه، بل سار فى أحداث قصته وكأنه يعيشها، لقد كنت أخشى ما أخشاه، أن تنسينا أمجاد الحاضر تضحيات الماضى، فإذا بكاتب من الحاضر يسجل هذه التضحيات لأول مرة فى قصة سينمائية تعتبر نمطاً من أنماط التفكير الحر، فيما ينبغى تذكره من أمس هذا الشعب الذى يكافح الظلم والطغيان على طول الزمان.

وكتب محمود السعدنى يقول: أخرج الخميسى فيلمه الأول الجزاء وهو فيلم وطنى جيد لولا فقر الإنتاج، فقد ظهر فى الفيلم عساكر إنجليز فى لون أهل النوبة، وعندما أبديت للخميسى ملاحظتى هذه كان جوابه: أعمل إيه.. مفيش فلوس! ولكن الفيلم رغم فقر الإنتاج كان جيد الإخراج، والقصة كانت من النوع الذى تتحاشاه السينما المصرية، فهو عن كفاح الشعب المصرى ضد الاحتلال، وكان هذا أفضل أفلامه، لأن فيلم عائلات محترمة كان أشبه بأفلام حسن الإمام، أما فيلم زهرة البنفسج الذى قام عادل إمام ببطولته فقد عرض فى دور السينما لمدة ثلاثة أيام فقط!

وكتب أحمد صالح فى مجلة آخر ساعة، يقول: أشفق على ماضى الخميسى الأدبى أن يمحوه حاضره السينمائى وكان ذلك الرأى ينصب على أفلام الخميسى اللاحقة فقط وليس على فيلمه الأول الجزاء.

وقد حاول الخميسى فى فيلم عائلات محترمة أن يفضح بقايا الأرستقراطية التى مازالت تحيا عهد الثورة، بأسلوب كوميدى ساخر، بينما تعرض فيلم زهرة البنفسج لقصة بعيدة إلى حد ما عن خيال المجتمع

المصرى، إذ كان بطله عالم ذرة يتعرض للإشعاع النووى وتصبح أيامه معدودة. جدير بالذكر أن الخميسى كعادته قدم فى زهرة البنفسج وجها جديدا لبطولة الفيلم هو محمد لطفى مع زبيدة ثروت وعادل إمام، لكن التوفيق لم يحالف النجم الجديد.

وتقول الناقدة السينمائية خيرية البشلاوى: بعد أن عايشت الخميسى فترة قيامه بإخراج فيلم عائلات محترمة: قصة الفيلم تخرج عن مفهوم القصة بالمعنى التقليدى، لأنها استعراض ضاحك.. دامع.. لالتقاء نوعين من الحياة، النوع الأول هو طبقة المستبطلين الذين ألفوا أن يعيشوا الرفاهية على حساب كد الآخرين، والنوع الثانى هو طبقة الذين يمجدون العمل ويجدونه أشرف قيمة على سطح الأرض، ومن هذين اللقائين بين الحياتين تنبثق قصة الفيلم بالضحكة الدامعة وبالإرادة فى انتهاج سبيل النفع .

وتقول خيرية البشلاوى: وقد اختار الخميسى أن يصور أعماق حياة الناس العاديين مباشرة، من خلال وجودهم الاجتماعى فى العمل والحب واللهو فى كل مكان، دون تقيد بالبناء التقليدى للعمل السينمائى، وكرس كل طاقته كقصاص وكاتب سيناريو ومؤلف موسيقى وشاعر ومصور من أجل خدمة الفيلم، وقد أنفق الخميسى على مشهدين من ديكور الفيلم ثلاثة آلاف جنيه، والمشهدان عبارة عن قصرين تسكنهما العائلتان المحترمتان فى الفيلم، ثم استعان بعد ذلك بالأماكن المختلفة التى توفر له بعض النفقات، وفى جرأة يحسد عليها أسند الخميسى أدواراً رئيسية إلى مجموعة من الوجوه الجديدة التى انتشرت حولنا فى سعادة ونحن نناقش موضوع

الفيلم ـــ تتدخل من آن لآخر لكى تستشير القديس كما يحلو لهم أن يلقبوا الخميسى.. هذا الفنان الذى عاش الحياة طولاً وعرضاً ونهل منها وتجرع كؤوس مرارتها. من الوجوه الجديدة قدم مديحة كامل التى يسميها آنا مانيانى وهى ممثلة تعمل فى فرقة تحية كاريوكا، إلى جانب ١٥٠٠ كومبارس أنفق فى اختيارهم قرابة شهر كامل، إلى جانب حسن يوسف وناهد شريف وعبد المنعم ابراهيم وعدلى كاسب ونوال أبو الفتوح ونادية سيف النصر .

أذكر أن الخميسى دعانا إلى عرض خاص لفيلم عائلات محترمة ثم دعانا فى نهاية العرض إلى احتفال بالمناسبة فى شقته، وكان الطعام كبابا ونيفة وحمام وبكميات وافرة، ثم بدأ يستمع للآراء المختلفة فى الفيلم.. نقداً وتقييماً، وبينها ما هو سلبى وما هو إيجابى، وظل يستمع فى هدوء واهتمام دون أن يقاطعنا، فلما انتهينا قال: ليس من حقى أن أدافع عن الفيلم ولا الترحيب بتقريظه، فالعمل الإبداعى هو الذى يتحدث عن نفسه. ثم ضحك عالياً وقال: وعلى العموم هذا الفيلم ليس للأكاديميين.. وإنما لشباب السينمائيين وعليهم أن يقتدوا بحسناته، ويتجنبوا سيئاته!!

وقد أخرج الخميسى فيما بعد فيلمين آخرين الحب والثمن عام ١٩٧٠ . بطولة أحمد مظهر وزيزى البدراوى وصلاح السعدنى، ثم زهرة البنفسج أواخر عام ١٩٧٢ بطولة زبيدة ثروت وعادل إمام، وقد ظل يعمل فى زهرة البنفسج إلى حين قرار الرحيل من مصر إلى بيروت نهائياً، ولذلك لم يتمم العمليات السينمائية الخاصة بالفيلم، وترك علب أفلام

مصورة فى مؤسسة السينما دون أن تمكنه ظروفه السياسية الطارئة آنذاك من الإشراف على المونتاج، والمكساج وغير ذلك.

ومع ذلك فإن ناقداً سينمائياً مثل سمير فريد، كان له رأياً محتلفاً كتبه فى جريدة الجمهورية عن تجربة الخميسى السينمائية، قال: قد يكون عبد الرحمن الخميسى ظاهرة فذة فى حياتنا الثقافية ولكنه ليس هكذا فى السينما، إنه عبقرى مارس كل الفنون وله فى كل منها أعمال لها أهميتها، وهو مناضل وطنى ورجل ثورى له تاريخه الحافل، ولكن فيلميه :الجزاء، و عائلات محترمة ليست لهما أية أهمية. إن لهما موضوعين غير مبتذلين، الكفاح ضد الاحتلال الانجليزى فى الفيلم الأول، وكشف ضحالة بقايا الإقطاع والأرستقراطية بعد الثورة فى الفيلم الثانى، ولكن الموضوعات كما قال الجاحظ يوما ملقاة على قارعة الطريق، ولن يكون هناك عمل فنى له أهميته بموضوعه فقط، وإنما بأسلوبه أيضا وليس للخميسى أسلوب سينمائى، كما أنه لا يسيطر على أدواته الحرفية ويبدو دائما فى غير أرضه .

وبالرغم من ذلك فقد قدم الخميسى خلال رحلته السينمائية عدة وجوه جديدة أبرزها سعاد حسنى ومحرم فؤاد فى فيلم حسن ونعيمة عام ١٩٥٩، وحسين الشربينى وشمس البارودى فى الجزاء، وكذلك صلاح السعدنى فى الحب والثمن ، ومحمد لطفى فى زهرة البنفسج وغيرهم كثيرون.

وكتب الشاعر أحمد حجازى مقالاً عن تجربة الخميسى الفنية وشطحاته فى روز اليوسف وقال: دفعتنى إلى التفكير فيما تنطوى عليه نفس هذا

الفنان من عمق وخصوبة واندفاع! لقد بدأ الخميسى حياته شاعرا ثم تحول إلى كتابة القصة، ثم حاول كل شئ فى المسرح.. الكتابة والإخراج والتمثيل.. واكتشاف الوجوه الجديدة! ولا شك أن فى كل ما يصنعه الخميسى شيئاً جديراً بالاحترام.

والحقيقة أن الخميسى فى انتقاله من فن لآخر، فإنما كان يعبر عن طموح شخصى لاقتحام مجالات التعبير المختلفة بغض النظر عما سيحصده فيها. قال عنه الدكتور مصطفى محمود فى روز اليوسف: أحب أن أشاهد الخميسى فى دور هاملت.. إن وجهه خلق لهذا الدور ، وفى الحقيقة فلم يكن للخميسى وجه هاملت فقط ولكن كل حيرة هاملت وتردده كذلك!

والمعروف أن زوجة الخميسى الفنانة فاتن الشوباشى توفيت بالإسكندرية يوم الجمعة ٢٣ يوليه ١٩٦٨ أثناء تصوير فيلم عائلات محترمة، ولم تكن قد تجاوزت الثانية والثلاثين من عمرها، بينما هى فى المطبخ تعد الطعام لابنتها الصغيرة هند، فانفجرت فيها أنبوبة البوتاجاز واشتبكت النيران فى ملابسها وجسدها، ونقلها الأهل إلى مستشفى المواساة بالاسكندرية وهناك فارقت الحياة.

وقد لجأ الخميسى إلى محراب الفن يبحث فيه عن السلوى والعزاء، واستطاع أن يتحدى المأساة بالعمل، واستمر منهمكا فى إنهائه بعد أن حلت به كارثة الكوارث.

وأيا كان اختلاف التقييم النقدى لتجربة الخميسى السينمائية، فإن الأمر الجوهرى فيها هو رغبة الخميسى العارمة فى تجريب الأشكال الفنية،

والتعبير عن نفسه بجرأة، واقتحام مجالات الفن المختلفة دون تردد، وأحيانا دون سابق خبرة. وبالرغم من أى شيء فقد كانت للخميسى رؤيته للعمل السينمائي وقد كتب ذات يوم عند ظهور فيلم الحب والثمن يقول: إن الفيلم كتابة بالكاميرا، ولابد للكاتب إذا ما كانت اللغة هى أداته أن تتوفر له وجهة نظر، ومن ثم لابد له، من باب أولى، إذا كانت الكاميرا أداته، من وجهة نظر أو رؤية اجتماعية، لذلك أهتم عادة بتأليف أفلامى أو بوضع السيناريو الخاص بها، على أساس أن الفيلم بقصته، بالسيناريو الخاص به، بموسيقاه، بإخراجه، هو كتاب واحد لايمكن أن يكتبه كاتبان!

وكتب الناقد الفنى جليل البندارى على طريقته بأسلوبه الساخر فى عاموده الصحفي أنا والنجوم بصحيفة الأخبار يقول:

سألت عبد الرحمن الخميسى شاعر الفقر والحب والشجرة: ماهى مقومات المخرج السينمائى، فقال: 1 ـــ الموهبة ٢ ـــ تربية الوجدان الفنى والإنسانى ٣ـــ الخبرة البشرية والاجتماعية ٤ ـــ ولابد لكل هذا أن يعتمد أساسا على المنهج العلمى الذى يحدد به وجهة نظره فى الحياة والناس.

والمعروف أن الذين غيروا اتجاه السينما فى أوروبا خلال السنوات الماضية هم فنانون مثل عبد الرحمن الخميسى يؤلفون ويخرجون أفلاما يقولون فيها كلمة يبنون بها الإنسان من الداخل.

وأنت إذا زرت عبد الرحمن الخميسى فى بيته بكفر سليمان باشا، خيل إليك أنك فى معهد للتمثيل والموسيقى.. ومن كثرة الضجيج الذى يعلو حولك.. فقد تطلب شرطة النجدة لتقول أنك دخلت هذا المكان خطأ، فبيته لايختلف كثيرا عن مستشفى المجاذيب!

ونجد الخميسي في حديث صحفي معه يحدد موقفه من الفن السينمائي قيمة ودوراً فيقول:أرى أن الفيلم السينمائي بتحريكه المباشر لأمواج الشجن والفرح واليأس والأمل، وبما يتضمنه من المشاهد المتسلسلة داخل السرد السينمائي، إنما يعمل من أقصر الطرق على إثراء الوجدان البشري وصقله، ويجذب المتفرج بقوة أكثر، وبفاعلية أعمق إلى موقف يقبله أو يرفضه، فينحاز فيه إلى شيء ضد شيء آخر، إن الفاعلية الأكثر تأثيرا تتوفر للسينما بوصفها أوسع الفنون الجماهيرية تأثيرا وانتشاراً وهذه الفاعلية هي أحد الأسباب التي دفعتني إلى الكتابة بالصورة المتحركة.

إن لي رسالة انسانية أريد أن أبلغها إلى الناس، ومادمت قد استطعت أن أطوع أداة السينما، فلا ينبغي أن أحجم عن استخدامها.. وهذا أنا أفعل. وهناك في الحقيقة سبب آخر، هو أنني مارست التعبير بالكلمة وبالنغمة، وعن طريق المسرح والإذاعة، ونموت في تجارب مختلفة من الفنون، وأنتجت فيها، ولما كانت السينما هي فن الفنون، فقد رأيتها هي الفن الأكثر اتساعا لقدراتي في الخلق الفني!

وقد أتيحت لي الفرصة مرارا لمتابعة تجارب الخميسي في الإخراج السينمائي، وكنت أرى كم كان سعيدا وكأنه وجد نفسه أخيرا في هذا الدرب من إبداعاته حتى نهاية العمر، وكم كانت عنايته كبيرة بإشاعة الفرح والبهجة والسعادة بين كل العاملين معه من الممثلين والفنيين والعمال وكأنهم أصدقاؤه وأولاده، وفي تلك الفترة كان الخميسي يرتدي القمصان الشبابية الزاهية الألوان، ويضع فوق رأسه قبعة، ويركب سيارة كابورليه أمريكاني اقترضها من صديقه الدكتور مصطفى مشرفة، إذ كانت

سيارته الهيلمان التى أطلق عليها اسم عزيزة لم تعد تسعفه لقدمها وكثرة أعطالها فى إنجاز أعماله وتوفير المظهر اللائق به كمنتج ومخرج سينمائى وكان الخميسى يقول عن السيارة الهيلمان العجوزة إنها منحرفة أخلاقيا ، لأنها ما أن ترى أي ميكانيكى سيارات فى أى شارع حتى تسارع برفع ساقيها له تطلب الإصلاح!

وذات مساء كان قد انتهى من تصوير بعض مشاهد من فيلمه عائلات محترمة وركبت إلى جواره، فما كاد يدير الموتور فى طريق العودة إلى القاهرة والعرق يتصبب من جبينه من الإرهاق وشدة الحرارة، حتى تعلقت فتاتان من الكومبارس بباب السيارة يسألانه: رايح فين يا قديس؟ وابتسم وقال: رايح مطرح ما أنا رايح؟ وقالتا: ممكن توصلنا؟ قال: بس أنا رايح أسهر! قالتا: يبقى ح نسهر معاك!

ولم يكن فى نيته السهر، لكنه لم يتراجع، وقاد السيارة إلى شارع الهرم وتوقف أمام ملهى رمسيس، وهب صاحبه سعيد مجاهد لاستقباله، فلما جلسنا على المائدة تقاطرت عليه الراقصات والفنانات اللاتى يقدمن برنامج السهرة وغيرهن من محترفات الترفيه عن الزبائن، هذه تطلب منه فرصة عمل فى أحد أفلامه، وغيرها تطلب مشروباً على حسابه، ثم مال برأسه نحوى وهمس قائلاً: آديك شفت اليوم اللى بقى فيه الخميسى حسن الإمام!

انتهت السهرة وقاد السيارة إلى حى الحسين الذى كان يسميه الحى اللاتينى المصرى، وقد أصبحنا خمسة بعد أن وجد الصحفى فؤاد معوض

الشهير بلقب فرفور فى الملهى واصطحبه معنا وجلسنا حول مائدة حافلة بأطايب الكباب الذى تولى إعداده صاحب المحل المعلم نيوكا بنفسه، وهذا لقبه، إذ كان محله مقصد فنانى آخر الليل.. ومضى الوقت سريعاً حتى فوجئنا بضياء الفجر يغمر الكون، وعندئذ مال الخميسى برأسه نحوى هامسا: بص كده فى وش البنتين. فلما دققت النظر وجدت أن المكياج على وجهيهما قد ساح من شدة الحرارة والعرق.. وأن جمالهن الفتان الذى رأيناه فى الملهى قد هرب مع ظلمة الليل وخلف وراءه آثار الزمن والمشاغبات.. فعاد الخميسى يهمس: شفت بقى ليه أنا بأحب الليل؟ مش بيقولوا الليل ستار؟!

وكنت قد سألت الفنان عادل إمام عندما شرعت فى وضع كتابى عن الخميسى إن كانت الأسباب المادية هى الدافع وراء عدم تكرار تجربته فى العمل السينمائى معه، فقال لى: القديس كان عمنا، والعمل معه متعة، ولو قال لى اشتغل معاه بلوشى كنت وافقت.. المسألة فى الورق يعنى النص المكتوب.. أنا طلبت منه أقرأ السيناريو أولاً، ولما اعتذر قلت يفتح الله!

وفى رثائيته النثرية للخميسى التى نشرتها مجلة الكواكب فى أبريل ١٩٨٧ للشاعر الرقيق فؤاد بدوى ذكر أنه هجر دراسة الطب وتفرغ للأدب إثر قراءته لمجموعة الخميسى القصصية قمصان الدم على أمل أن يصل يوماً إلى ماوصل إليه من قمة الإبداع، ويذكر أنه دعا بعض الأصدقاء لاحتفال بفندق شيراتون بمناسبة زواج عادل إمام، وجاء الخميسى يسألنى ما الذى اخترت أن أقدمه للمدعوين، وعندما عرف أن الدعوة قاصرة على مجرد

مشروب واحد، عندئذ صحب الجميع إلى شقته بشارع عدلى، وفى الطريق كان قد مر على مطعم فى قلب القاهرة وأوصاه بموافاته بوليمة فاخرة، ومر على كشك سجائر واشترى للمدخنين كماً هائلاً من علب السجائر الروثمان، وقضينا الليلة فى الشراب والطعام والتدخين ونحن لا نمل سماع حكايات الخميسى ونوادره و أشعاره.

وكنا نجلس ذات مساء فى منتدى محمود السعدنى بمقهى المعلم حسن عوف إلى جوار كوبرى عباس بالجيزة، عندما توقفت أمام المقهى سيارة رمسيس موديل ١٩٦٢، وخرج منها عادل إمام فرحاً بشراء أول سيارة فى حياته، ثم ما لبث أن خرج منها الخميسى، ثم تبعه خروج صلاح السعدنى وسعيد صالح وماهر تيخة، وكان الفنانون الشبان الأربعة حينذاك ظاهرة جديدة فى الوسط الفنى، تجمع بينهم زمالة الدراسة الجامعية والثقافة وخفة الظل والشيطنة، وأذكر فى تلك الليلة أننى سألت الخميسى: أيهم تجد فيه نفسك أو بعضا منها؟ وقال دون تردد: الواد صلاح السعدنى.. الوارث الوحيد لكل حسناتى وبعض سفالاتى!

وأحسب أنه لاتكتمل الإحاطة بإبداعات الخميسى فى السينما دون التنويه بدوره الرائع الذى قام به كممثل فى فيلم الأرض عام ١٩٦٩ الذى أخرجه يوسف شاهين، حين تقمص فى براعة شخصية الشيخ يوسف المناضل القديم الذى شارك فى ثورة ١٩١٩ ثم تدحرج به الحال وافتتح دكاناً فى القرية وتحول إلى مرشد لقوات الهجانة لضرب الفلاحين المتمردين بالكرباج!

فريد الأطرش من عائلة كوسة

لو أننا أحصينا كم وألوان مقالب الخميسى الساخنة ونوادره الساخرة لما اتسع لها هذا الكتاب، لكن لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله، خاصة أن الإحاطة بهذا الجانب من حياته، جزء لا يتجزء من التكوين المزاجى لتلك الشخصية الفريدة المركبة، إذ تمثل أسلوبه الحيوى فى إضفاء البهجة والمسرات على كآبة الحياة وكراهيته للنمطية والجمود، والتعبير التلقائى عن وجهة نظره وموقفه الاجتماعى إزاء تصرفات بعض الناس ممن شاء حظهم العاثر الوقوع تحت طائلة نظرته النقدية الثاقبة، فما أن يتحقق الهدف وتدرك الضحية المغزى وتستوعب الدرس، حتى يبادرها بالصفح الجميل ويغمرها بالود والمحبة!

صديقنا الكاتب الصحفى فاروق القاضى كان من هؤلاء، مناضل اشتراكى ماركسى.. لكنه يتوق لحياة الرغد والأبهة، يدخن السيجار وعلى دراية بفنون الإتيكيت ويهوى الملبس الأنيق والشراب الجيد وأكل الفوجراه والشاتوه بريان، فلا عجب إذن أن يخلع عليه كامل الشناوى لقب البارون

الاشتراكي، وقد حدث أن التقى فاروق القاضى والخميسى ضمن الوفد المصرى لمجلس التضامن والسلم العالمى فى جولة سياسية بدأت باستوكهلم مروراً ببرلين الشرقية نهاية بموسكو، وكان من عادة السوفييت الترتيب الجيد لاستقبال الضيوف وتلبية طلباتهم قبل وصولهم بفترة كافية إلى موسكو، وأبدى الخميسى رغبته فى زيارة بعض المتاحف ومشاهدة عروض الباليه والموسيقى والالتقاء بالشعراء والأدباء، بينما طلب فاروق القاضى — وكان يعمل محرراً للسياسة الدولية بصحيفة القاهرة — إجراء حوار مع نيكيتا خروتشوف زعيم الاتحاد السوفيتى حينذاك وسكرتير الحزب الشيوعى وهو أعلى منصب سياسى فى البلاد، لكن الإجابة كانت غير قاطعة، إذ كان خروتشوف مشغولاً آنذاك فى إعداد خطابه السنوى الذى سيلقيه أمام اللجنة المركزية.

بوصولهما إلى موسكو كانت المفاجأة عندما تحدد الموعد الذى طلبه فاروق القاضى وبدأ فاروق فى إعداد ١٤ سؤالاً لطرحها على خروتشوف، وعندئذ أصر الخميسى على أن ينضم إليه فى لقائه بخروتشوف بحجة أنه لم يكن يتصور أن الموافقة على إجراء حوار مع خرتشوف بهذه السهولة، ثم إنه أيضاً ممثل لصحيفة الجمهورية لسان حال ثورة يوليو، وربما فُسر استبعاده من اللقاء لغير صالح العلاقات بين البلدين، ووافق فاروق القاضى على مضض.

فى الكرملين كان خروتشوف بانتظارهما هاشاً باشاً، والخميسى أكثر منه هشاشة وبشاشة وهو يعبر — نيابة عن الشعب المصرى وتنظيماته السياسية والجماهيرية ومنظماته الشعبية — عن بالغ الشكر والتقدير للشعب

والحزب والقيادة السوفيتية على موقفها الباسل فى درء العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ ، ثم روى الخميسى كعادته قصصاً وحكايات ممتعة أثارت ضحكات خروتشوف، بينما كان فاروق القاضى المسكين يحاول عبثاً تحين الفرصة لإجراء الحوار دون جدوى، وكلما هم بطرح سؤال كان الخميسى يقاطعه بدعوى أن الأولى بالإجابة عن مثل هذه الأسئلة موظف صغير فى الخارجية السوفيتية لا زعيم كبير فى مقام خروتشوف! ثم التفت الخميسى إلى خرتشوف وقال له: المهم الآن التأكيد على رغبتنا فى تعميق أواصر النضال المشترك فى مواجهة الإمبريالية العالمية، وكان خروتشوف يراقب الجدل المحتدم بينهما ويطلب من المرافق أن يترجم كل ما يدور ولا يتوقف عن الضحك و.. هكذا ضاع السبق الصحفى على فاروق القاضى، واستفرد الخميسى بخروتشوف فى سلسلة مقالات نشرت بجريدة الجمهورية حينذاك لفتت الأنظارلطرافتها!

وفى أحد اجتماعات مؤتمر الشعب العربى فى طرابلس، انبرى على عقلة عرسان رئيس الوفد السورى ورئيس اتحاد الكتاب العرب، يحمل الماركسيين وزر ما حل بالأمة العربية من نكبات.. وطلب الخميسى الكلمة وقال: تعقيبا على حديث الأستاذ عا.. عا.. عا.. ! فتساءل أحدهم: من هو عا.. عا.. عا؟ وأجاب الخميسى ضاحكا: إنها الحروف الأولى من على عقلة عرسان! اختصارا لاسمه! و.. ضج المؤتمر بالضحكات والتصفيق، فكان ذلك أبلغ رد على تحامله على الماركسيين العرب.

وكان للخميسى تابع مخلص كظله حتى بداية الستينيات هو الصحفى سمير سويلم، وحين قرر أن يخرج من عباءته سافر للعمل فى لندن، ومن

الصحافة كان طريقه سالكاً سمساراً للعقارات في عاصمة الضباب، بعده جاء الدور على فكرى الجوهرى الذى أتى الخميسى به من قرية سند بسط، وقد رأينا فكرى في البداية يرتدى الجلباب الريفى فترة معايشته للخميسى في مسكنه المجاور للمكتب الذى كان يدير منه فرقته المسرحية بشارع الجمهورية، وكان العساكر والمخبرون في قسم عابدين المجاور يعرفون الخميسى جيداً، إذ كان في غدوه ورواحه يلقى عليهم السلام ويحدثهم ويعزم عليهم بالسجائر الروثمان.

ذات ليلة نفدت سجائر الخميسى وكان عليه مواصلة كتابة سيناريو فيلم حسن ونعيمة فأيقظ فكرى لشراء السجائر، فهبط إلى الشارع حوالى الثانية فجرا وخلال عودته اعترضه شاويش الدورية: انت مين يا ولد؟ فقال فكرى بعظمته المألوفة المزيفة: انت موش عارف انا مين؟! انا يا حضرة الصول سكرتير الفنان والشاعر الكبير عبد الرحمن الخميسى؟ نظر إليه الشاويش متفحصاً من فوق لتحت وقال مندهشاً: بقى معقول واحد جعر زيك يبقى سكرتير الأستاذ الخميسى؟.. ليه؟.. ما لقاش في الكون غيرك؟.. تلاقيك حرامى.. ايوه باين عليك حرامى.. شكلك كده جديد على المنطقة.. قدامى على القسم وهناك نعرفلك صرفه، ثم جره من قفاه للتحقق من شخصيته، وصاح فكرى: إذا كنت موش مصدقنى الميه تكدب الغطاس.. أنا ح انده من هنا على الأستاذ الخميسى.. يطلع من البلكونة ويقول لك أنا مين.. ووقف فكرى أسفل البلكونة ينادى بأعلى صوته: يا أستاذ عبد الرحمن.. يا أستاذ عبد الرحمن، وسمع الخميسى الصوت وخرج إلى البلكونة يستطلع الأمر، فرأى فكرى والشاويش قابضاً على ذراعه فقال من أعلى: إيه.. فيه إيه

يا شاويش؟ قال الشاويش: لا مؤاخذة يا أستاذ عبد الرحمن.. الولد الصايع ده بيقول إنه السكرتير بتاعك.. معقول؟ وتعلقت عينا فكرى من أسفل بشفتي الخميسى وهو يطل من البلكونة.. لكنه فوجئ به يقول للشاويش: سكرتيرى إيه؟ أنا عمرى ما شفته قبل كده.. ده لقيتوه فين؟.. وانفرجت أسارير الشاويش وهو يشد فكرى من قفاه قائلا: أنا نظرتى ما تخيبش.. معقول واحد عره زيك يبقى سكرتير؟ وصاح فكرى: يا أستاذ عبد الرحمن بلاش هزار وحياة أبوك.. دول حايسجنونى بصحيح.. فقال الخميسى: إمش ياواد غور من هنا.. هيه تلاقيح جتت ولا إيه؟! وحياة أبوك يا شاويش تعرف لنا الواد ده حكايته ايه وتبلغنى.. باين عليه رد سجون.. ثم انسحب الخميسى إلى داخل الشقة يضحك، بينما كان الشاويش يستكمل مهمته التى بدأها بجرجرة فكرى إلى قسم عابدين للتحقق من شخصيته.. حتى لحقه الخميسى وعاد به إلى شقته وهو يقول: كده برضه يا فكرى تسقط فى أول اختبار للثبات والتصرف فى الأزمات.. تعيش وتاخد غيرها!

وكان الخميسى قد وجد لفكرى سكناً فى حى معروف قريباً من سكنه الجديد بجوار سينما أوديون بشارع أحمد سعيد، فلما سمع عما يجرى فى هذا المأوى من مهازل فكرى وأصدقائه، تمشى على قدميه لمداهمته، فى الوقت الذى كان بعض فتوات الحى الأشداء من أولاد البلد قد عقدوا العزم على تأديب فكرى جزاء مساخره، وراحوا يتبادلون عليه اللكمات فى الزقاق الضيق، وفكرى واقف بينهم بقامته القصيرة وعوده النحيل لا يكاد يبين، وعندما لمح الخميسى أراد أن يستنجد به، لكنه خشى أن يحسبه الفتوات جباناً رعديداً، فصاح بالإنجليزية: دونت ليفت مى يا قديس، يعنى لا

تتركنى يا قديس، ومع انهمار اللكمات على فكرى من كل جانب صاح به الخميسى هو الآخر بالإنجليزية: بت يو ول دو إنى ثينج آى آسك يو؟ ومعناها لكن عليك أن تفعل أى شيء أطلبه منك.. فصاح فكرى وهو يتفادى اللطمات التى تنهال على وجهه: أوف كورس.. بت دونت ليفت مى يا قديس بليز. وكان الفتوات يضربونه ويستغربون هذه اللغة بينهما.. وهنا تدخل الخميسى فأوقف المعركة بدعوى عدم التكافؤ بين الجانبين، وأن الصلح خير!

علقة ساخنة ثانية أكلها فكرى عبر تدبير محكم شارك فيه الخميسى وكامل الشناوى الأول أوعز لفكرى بأن: عمك كامل بك حط صوابعه فى الشق من ابن أخيه سيد الذى يسكن معه.. فهو دائما يتباهى بأنه ملاكم لكنه مجرد فتى بدين وجبان رعديد يخاف من ظله، ورغم ذلك لا يكف عن التدخل فى شئون عمه، ودائم التصنت على مكالماته التليفونية مع الفنانات، فضلاً عن إهمال دروسه ومعاكساته لبنات الجيران، ولا أريد منك سوى تخويفه لكى يكف عن إزعاج عمه المسكين.. . وتساءل فكرى: طيب وإيه المطلوب منى؟ قال له الخميسى: ولا حاجة.. بس تكلمه فى التليفون من وقت للتانى.. تقول له يتصرف كويس مع عمه وإلا ح تضطر إنك تؤدبه! . وذهل فكرى قائلا: أنا أؤدبه؟ ده ملاكم يا قديس يضرب عشرة زيى؟ ده يموتنى؟! . فطمأنه الخميسى: لا.. ما حدش ح يقول له ثم إنه جبان زى ما قلت لك.. احنا بس عاوزين نخوفه عشان يبطل يضايق عمه ويلزق لضيوفه ويتصنت على مكالماته.. بس تكلمه فى التليفون تخوفه. وبدأ الخميسى والشناوى فى حضور سيد يقصان مختلف الحكايات

الخرافية عن قوة المعلم فكرى، وأنه أسقط بضربة ذراع واحدة عشرات الرجال في سوق النصرية، لأن بائعا تجرأ وقال له: مش عاجبك الفاكهة ما تشتريش!! فما كان من فكرى إلا أن أسقطه بضربة، فلما تكاثر الآخرون أوقعهم جميعا. وأخذوا يلقون فى روع سيد الملاكم أن فكرى شخص خطر وقوى ومتصل بالعصابات! وفى نفس الوقت كان فكرى يتصل بسيد من آن لآخر من شقة الخميسى ليقول له: أنا بلغنى إنك مضايق عمك كامل بك.. وأنا بأقول لك احترم نفسك يا إما ح آجى لك وأعرفك مقامك! .. وبدأ سيد يخشى فكرى من كثرة ما سمعه عنه من حكايات تصفه وكأنه شمشون الجبار! . ووصل الأمر حد أن سيد وهو الملاكم القوى الحائز على الكؤوس والميداليات أخذ يستعطف فكرى فى التليفون قائلاً له: والله أنا بطلت أتصنت على المكالمات.. وبطلت ألزق لضيوف عمى.. حتى اسأله! فيواصل فكرى تهديداته قائلا: أنا ممكن أخلى الدبان الأزرق ما يعرفلكش طريق جرة!..

وكان فكرى مطمئناً إلى أن الخميسى والشناوى لن يشيا به إلى سيد. وهكذا أصبح سيد معبأ بالخوف من فكرى، حتى جاء يوم، اصطحب فيه الخميسى فكرى إلى شقة كامل الشناوى، وكان سيد جالساً معهم، فلما جاء الطعام ـــ وكان فسيخاً ـــ مد سيد يده ليتناول فسيخة كبيرة، فقال له الخميسى: إيه قلة الأدب دى؟ مش تسيب الفسيخ الكبير لعمك؟ ولا يعنى لازم نجيب لك المعلم فكرى يؤدبك؟.. فصمت سيد.. وقال الخميسى فجأة مشيرا إلى فكرى: المعلم فكرى آهو!! ونظر سيد فرأى أمامه فكرى قصيرا نحيفا، فذهل من أنه ظل شهرا كاملا يعانى الخوف بسبب هذا

الشخص الضئيل، فصرخ قائلا: هو ده المعلم فكرى؟ قال الخميسى: أيوه.. إيه مش مالى عينك؟. فما كان من سيد إلا أن أطاح بفكرى بضربة واحدة قذفت به من حيث مائدة الطعام إلى قرب باب الشقة! وأخذ فكرى يصيح: دى خيانة يا قديس.. خيانة! وهناك انقض فكرى على ساق سيد يعضها فى غفلة منه، فصرخ سيد صائحا بتعض يا جبان؟! فصاح به الخميسى: يا أخى سيبه يعضك عضة من نفسه!

وعندما احتج فكرى غاضبا من المقلب الذى شربه قال له الخميسى: عشان تبقى تضبط مواعيدك معاى بعد كده!

ومع دخول الخميسى حقل الإنتاج السينمائى كانت فرصة فكرى للتعرف على الوسط الفنى، ومن ثم بدأ يدبر أمره لخوض تجربة الإنتاج السينمائى كمدير إنتاج مع آخرين من وراء ظهر الخميسى، فكان يضرب للخميسى موعداً ويأتيه متأخراً معتذراً بانشغاله فى أمر هام، وأراد الخميسى أن يلقنه درساً آخر فقال له: انا داخل الاستوديو لتصوير فيلم الجزاء.. والمره دى شغلك موش مدير إنتاج.. لكنها فرصتك كممثل وحا تاخد فى الدور ٢٠٠ جنيه. ووثب فكرى غير مصدق: معقول يا قديس؟ قال: طبعاً عشان تعرف إنى بأعزك. ومع بداية التصوير كان المشهد لمقهى شعبى يقتحمه جنود الاحتلال البريطانى بقيادة ضابط.. وهو أشرف فهمى الذى أصبح فيما بعد مخرجاً سينمائياً شهيراً. وكان المفروض أن يبعثر الجنود الانجليز فى المشهد كراسى المقهى ويستهزئون بالجالسين.. وقال الخميسى لفكرى: وانت باعتبارك مواطن مصرى حر عليك أن تنهض وتحتج قائلاً: ايه ده؟

دى بلدنا واحنا ما نسمحش بكده! وجلس فكرى مع رواد المقهى ممسكاً بجريدة يتصفحها وهو يشرب كوب شاى ويدخن الشيشة، وأعطى الخميسى بصفته مخرجا للفيلم إشارة التصوير.. فدخل أشرف فهمى والعساكر كأنما يبحثون فى المقهى عن الفدائيين المصريين.. وعندئذ نهض فكرى كما هو مرسوم له فى الدور محتجاً على الإنجليز صائحاً ايه ده؟ دى بلدنا واحنا ما نسمحش بكده؟ فوجئ فكرى بصفعات الضابط الانجليزى تنهال على وجهه، ولم يكن يجرؤ على الاحتجاج أو الخروج من المشهد، لأنه يعلم كم يكلف ذلك مالياً، لكنه بعد انتهاء تصوير اللقطة اتجه نحو الخميسى يسأله: ايه.ده يا قديس.. انت ما قلتليش ان فيه ضرب؟ قال: وحياة أبوك يا فكرى انا موش فاضى دلوقتى.. وبعدين ايه يعنى قلمين على وشك نصور بيهم عدوان الانجليز والإمبريالية على الشعوب النامية؟ اعتبرها تضحية وطنية يا أخى! وسكت فكرى بينما أصر الخميسى بذرائع مختلفة على إعادة تصوير نفس المشهد ثلاث مرات تلقى فيها فكرى كل مرة عددا لا يحصى من الصفعات الساخنة!! والمشكلة بعد ذلك عندما عرض الفيلم، واكتشف فكرى أن هذا المشهد لا وجود له أصلا وتم حذفه. وربما كانت عملية تصويره أونطة !

على أنه فى أواخر عام ١٩٧١ كان فكرى الجوهرى يقدم نفسه للناس باعتباره مدير إنتاج سينمائى، وكان قد شرب المهنة عبر الخميسى الذى نجح إلى حد كبير فى إعادة صياغته إنساناً جديداً مستقلاً يستطيع أن يعتمد على نفسه، له طموحاته المشروعة، ومن هنا كان تعلقه الشديد وحبه ووفاؤه له، ولا أعتقد أن هناك مثله ذاكرة ومرجعية مؤتمنة على كل شاردة وواردة من

صولات وجولات الخميسى الإبداعية وشطحاته ونزواته الشخصية، وأذكر أن آخر ما دبره الخميسى من مقالب لفكرى، عندما أوشك الخميسى على دعوة إدارة التجنيد للقبض عليه بدعوى فراره من الخدمة العسكرية رغم بلوغ فكرى سن الخامسة والأربعين، خاصة أنه كان يحمل بطاقة شخصية قديمة تؤكد أنه لا يزال طالبا، لكن الخميسى عدل عن استكمال المرحلة النهائية للمقلب عندما قرر الرحيل إلى الخارج، حيث بلغت رسائل فكرى إليه زهاء ١٥٠ رسالة كانت كلها تؤكد شعوره باليتم والوحدة من بعده رغم كل مقالبه!

وكان الخميسى يحب الدكتور يوسف إدريس حباً جماً، فهو الذى اكتشف موهبته الأدبية مبكراً وهو طالب بكلية الطب، ودافع عن نشر قصصه فى صحيفة المصرى تباعاً، وتنبأ بسطوع نجمه مراراً فى عموده اليومى من الأعماق، إلا أنه كان شديد الاستياء من هجومه الساخر شفاهة وكتابة ضد صديقه الشاعر كامل الشناوى رئيس تحرير الجمهورية، وكان الخميسى ينجح فى المصالحة بينهما، لكن سرعان ما يعود يوسف إدريس إلى الهجوم، حتى وقع بينهما ما دفع كامل الشناوى إلى كتابة قصيدته الشهيرة لا تكذبى، على نحو ما أشرت إليه بالاتهام فى كتابى آخر ظرفاء ذلك الزمن، بل إن يوسف إدريس لم يتورع عن الاعتراف لى شخصياً بأنه المعنى بالخيانة، ولهذا قرر الخميسى تلقينه درساً موجعاً..

لقن الخميسى ممثلة ناشئة كانت تعمل معه فى فيلم عائلات محترمة كيف تقنع يوسف إدريس عبر أسلاك التليفون، بأنها قرأت كل إبداعاته

القصصية وأنها من أشد المعجبات بفنه، وأنها فتاة عربية لها محاولات في كتابة القصة، لكنها لا تجرؤ على نشرها، أولاً لأنها أديبة مغمورة وثانياً لأن والدها أمير عربى.. يرفض أن تنفس عن مكنوناتها على الملأ، ولو حدث ذلك لربما قتلها..

المهم أن المكالمة التليفونية بينهما انتهت بموعد للقاء فى جناحها بفندق ناسيونال الكائن آنذاك فى شارع سليمان باشا، لكى تطلعه على إبداعاتها ومدى صلاحيتها للنشر من عدمه.. واستدركت الفتاة تلفت نظره إلى ضرورة التسلل إلى جناحها الخاص دون أن يشعر أحد بذلك فى الفندق، خشية ما لا يحمد عقباه لو علم والدها الأمير عبر جواسيسه بخبر اللقاء المرتقب.

فى الموعد المحدد كان عبد الرحمن الخميسى ومحمد عودة يقفان خلف الواجهة الزجاجية لمحل أحذية مقابل للفندق يملكه أحد أقارب الخميسى، حين وصل يوسف إدريس بسيارته الفولكس ودخل الفندق وهو يرتدى بدلة صيفى شاركسكين بيضاء وفى يده باقة من الورود الحمراء.. ومرت ربع ساعة لا أكثر خرج بعدها يوسف ادريس مشيعاً بلكمات عمال الفندق وهو يصيح :أنا الدكتور يوسف إدريس.. والله لأوريكم يا كلاب.. ثم ركب سيارته واختفى.. لكن الخميسى نفسه وهو صاحب المقلب دهش لما حدث.. ودخل إلى الفندق يتحرى الأمر، فنزلت عليه الإجابة كالصاعقة، حين قال له موظف الاستعلامات: يا سيدى ده أفندى طويل وعريض وبيقول إنه دكتور، لاقيناه بيتسحب فى ممرات الفندق.. مشينا وراه لغاية ما

وقف قدام الغرفة رقم ١١٣ وراح مخبط الباب.. تعرف ساكن فيها مين؟ سائح فرنسى شاذ موسخ سمعة الفندق.. يبقى يستاهل اللى جرى له ولا لأ؟.. وقال الخميسىَ: يستاهل ونص!

كان الموسيقار فريد الأطرش قد أعجبته القصيدة التى كتبها كامل الشناوى فى عيد ميلاده ومطلعها: جئت يا يوم مولدى.. جئت يا أيها الشقى، فطلب منه الموافقة على تلحينها وغنائها فى فيلم رسالة إلى امرأة مجهولة و.. وافق، وبعد نهاية العرض الأول للفيلم وجد كامل الشناوى فى انتظاره خطاب شكر من فريد الأطرش مرفق به ٣٠٠ جنيه ثمن القصيدة، وعبثاً حاول الشناوى عبر الناقد الفنى جليل البندارى تنبيه فريد الأطرش إلى ضرورة الوفاء بالثمن الذى يتقاضاه شاعر كبير مثل الشناوى مقابل أى من قصائده المغناة وهو ألف جنيه، لكن فريد رفض، فأعاد له الثلاثمائة جنيه محتجاً ولم يتلق رداً!

وعرف الخميسى ما حدث، شاهد فيلم رسالة إلى امرأة مجهولة، ثم كتب مقالاً نارياً فى صحيفة الجمهورية، انتقد فيه ألحان فريد الأطرش وأسلوب غنائه، وهاجم بقسوة دور فريد كمطرب يتهم الصحفيين بالرشوة، مؤكداً على أن فريد لا ينتمى من قريب أو بعيد إلى عائلة الأطرش الدرزية العريقة فى لبنان، وإنما إلى عائلة كوسة، وكان يقصد عائلة أخرى ينتمى فريد الأطرش إليها بصلة نسب وتدعى قوسة. و.. دفع فريد مبلغ القصيدة كاملاً، واعتذر على صفحات الجرائد للصحفيين، بدعوى عدم مسئوليته لا عن قصة وسيناريو أو حوار الفيلم!

وفى رد فريد الأطرش بجريدة الجمهورية بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٦٢ كتب: أما عن القول بأننى تعمدت تجريح كرامة الأدباء والشعراء فى فيلم رسالة من امرأة مجهولة، فهو تعمد لاتهامى بجريرة لم أرتكبها، فالمعروف أن هذا الفيلم ليس من إنتاجى وأننى لم أكتب حواره.. وكنت مجرد ممثل فى الفيلم.. مع تقدير أن الكلمات التى وردت على لسان بطل الفيلم تقصد فئة من الناس لايخلو منها أى مجتمع .

ولا ينسى محمد صبرى كبير المصورين فى دار الهلال مدى حياته انتقام الخميسى منه، إذ قام الخميسى بزيارته يوماً بمكتبه، وجاءت فنانة مشهورة كان صبرى قد ضرب لها موعداً للتصوير ضمن تحقيق صحفى تنشره مجلة الكواكب، وعلى ما يبدو أن صبرى استغرق وقتاً طويلاً فى عمله، ونسى أن يعتذر للخميسى الذى كان فى انتظاره، وقرر الخميسى أن يلقنه درساً فى المقابل، وبعد أيام دق التليفون فى منزل محمد صبرى وكان الوقت منتصف الليل، رفع السماعة وجاءه صوت الخميسى: انت فين يا راجل.. ليك وحشه بصحيح.. لابنشوفك ولا بنسمع صوتك.. قال محمد صبرى: مشاغل العمل زى ما انت عارف.. بالمناسبة أنا كنت عاوز اعتذر لك ع اللى حصل منى.. وقاطعه الخميسى: ده انا اللى عاوز اعتذر لك يا راجل عشان طبيت عليك مكتبك من غير ميعاد.. انا طالبك عشان حاجة تانية خالص.. عندى هنا الفنانة العظيمة (...) بتسلم عليك.. أصل جايبه معاها وجه جديد للفيلم بتاعى.. جمال ودلال سبحان الخلاق.. قلت أكلمك تجيب الكاميرا تصورها يمكن تنفع فتاة غلاف.. وآهى فرصة نشوفك ونقضى السهرة مع بعض.. خد كلمها اهيه.. وانساب إلى سمع

صبرى عبر التليفون صوت أنثوى رقيق: بونسوار يا صبرى بك.. الأستاذ الخميسى شوقنا لحضرتك خالص.. احنا مستنيينك.. اوعى تتأخر.. فقال وهو يمنى نفسه بسهرة سعيدة وتصوير وجه جديد على نحو ما وصفه الخميسى من جمال ودلال: مسافة السكة يا مدموزيل!

وبينما كان محمد صبرى يرتدى ملابسه ويجهز معدات التصوير دق جرس التليفون: الوه.. أنا الخميسى.. كويس إنى لحقتك قبل ما تنزل من البيت.. أصل الواد فكرى الملعون ما جاش النهاردة.. نزلت أدور على البواب ملقتهوش.. عاوزك وانت جاى تشترى شوية حاجات نكرم بيها ضيوفنا.. أكل وشرب وسجاير وشوية فاكهة فى حدود الميت جنيه اللى معايا موش اكتر!

بعد نحو الساعة كان محمد صبرى يدق بقدميه باب شقة الخميسى، إذ كانت يداه تحملان لوازم السهرة السعيدة ومعدات التصوير، وفتح الخميسى الباب مرحباً متهللاً: ياه يا محمد.. أنا آسف تقلت عليك.. وتناول عنه حمله الثقيل ثم أغلق الباب فى وجهه قائلا: ما تآخذنيش أصل أنا مشغول دلوقتى! وقضى السهرة منفرداً بالوجه الجديد!

فى صحيفة الجمهورية عرف عن أحد كتابها الأدباء نرجسيته المفرطة، وإحساسه الكاذب بتفوقه على أقرانه ممن كان يرى أنهم حازوا الشهرة والمناصب الرفيعة دون وجه حق، فكان ينفس عن إحباطاته ألواناً وأشكالاً من الغيرة والحسد والنميمة، ولم يكن صعباً أن يدبر له الخميسى مقلباً محبوكاً، وبينما كان هذا الكاتب جالساً فى صالة التحرير، دخل عليه

الموظف المسئول عن استقبال الأخبار والتقارير التى تبثها وكالات الأنباء على جهاز التيكرز وهو يصيح بأعلى صوته: مبروك يا أستاذ (...) جائزة ملكة بريطانيا، ثم قدم له برقية وردت من وكالة رويتر عبر مكتبها فى لندن، تتضمن قرارا من قصر باكنجهام بمنحه جائزة ملكة بريطانيا وقدرها مائة ألف جنيه استرلينى، بعد أن وقع عليه اختيار لجنة التحكيم كأفضل أديب غير بريطانى لعام ١٩٦٩.

وكاد صاحبنا أن يطير من الفرح وهو يعرض الخبر الذى نقله جهاز التيكرز من لندن، فلما جاء الدور على الخميسى قرأ شريط التيكرز بعناية، ثم نهض ينهال عليه بالأحضان والقبلات مهنئاً وقال: والله صبرت ونلت.. تعرف أنك ثانى أديب بعد أرثر ميللر يفوز بجائزة ملكة بريطانيا، وهنا بدأ الشك يتسلل إلى نفسه وظن أنه ضحية خديعة وقال: لكنى لم أتقدم لهذه الجائزة.. فكيف أفوز بها؟ لكن الخميسى طمأنه إلى أن الفوز بهذه الجائزة يتم عبر الاختيار وليس عبر المسابقة.. وفى تلك اللحظة دخل موظف التيكرز يقدم نفس الخبر نقلاً عن وكالة أنباء الشرق الأوسط، وهنا اطمأن صاحبنا وأيقن بصحة الخبر، لكنه عاد يتساءل: يا ترى ح استلم الجائزة فى مصر ولا فى لندن وازاى؟ قال له الخميسى: يا أخى اصبر شوية على رزقك.. ضرورى الإنجليز عاملين حسابهم من الناحية دى وحايبعتوا لك جواب بالمفيد!

ولم تمض دقائق حتى كان الفصل الثانى من مقلب الخميسى، فكما دبر تزوير برقيات وكالات الأنباء كما لو أنها وصلت على التيكرز، دق

تليفون صالة التحرير وكان على الخط المستشار الثقافي للسفارة البريطانية فى القاهرة يطلب الأديب الفائز بجائزة ملكة بريطانيا، ويطلب منه بلغة إنجليزية قح ضرورة التواجد صباح الغد بمكتبه ومعه جواز سفره لمنحه تأشيرة دخول بريطانيا وتذكرة السفر إلى لندن.. ولم يكن المستشار الثقافى البريطانى المزيف سوى الكاتب الصحفى سامى داود. و.. لم يغمض للكاتب الأديب جفن حتى الصباح من توالى الأصدقاء والأقارب الذين جاءوا لتهنئته وارتشاف أكواب الشربات!

فى العاشرة من صباح اليوم التالى كان صاحبنا يقدم نفسه إلى موظف الاستعلامات بالسفارة البريطانية ويطلب منه التنبيه على المستشار الثقافى بوصوله فى الموعد.. ولما التقى به المستشار فى مكتبه أنكر أن تكون هناك جائزة باسم ملكة بريطانيا، وأكد له أنه لم يطلبه عبر التليفون فكيف يحدد له بالتالى موعدا؟ فلما عرض عليه برقيات وكالات الأنباء، أجرى المستشار اتصالاً تليفونياً بوكالة رويتر التى كذبت الخبر جملة وتفصيلاً، ولم تكن هناك ثمة ضرورة بالتالى أو بالثالث للتحقق من صحة الخبر عبر وكالة أنباء الشرق الأوسط، وقفل صاحبنا راجعاً إلى عمله بصحيفة الجمهورية وقد جن جنونه مما حدث، حيث وجد فى انتظاره رسالة على مكتبه تحمل توقيع عبد الرحمن الخميسى خيرها فى غيرها.. انتظر جائزة الملكة حتشبسوت !

وكما كان الخميسى مولعاً بحبك المقالب الساخنة من قبيل السخرية أو التعبير عن رأيه وموقفه من الناس، كان فى نفس الوقت راضياً مبتهجاً، عندما يأتى عليه الدور ويقع ضحية مقالب أصدقائه على نحو ما حدث

أواخر الستينيات.. حين التقى مصادفة بصديقه الكاتب محمد عودة وفى صحبته تلميذته الآنسة سهير فهمى المعيدة وقتئذ فى قسم اللغة الفرنسية بكلية الآداب جامعة القاهرة ومحررة الشئون الثقافية حالياً بمجلة إبدو التى تصدر بالفرنسية عن مؤسسة الأهرام، حيث قدمها محمد عودة للخميسى على أنها مدموزيل نادين بينو الباحثة الفرنسية بجامعة السربون، وأنها جاءت إلى القاهرة لجمع ما تحتاجه من المواد التاريخية حول تأثير الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على الثقافة المصرية تمهيداً لنيل شهادة الدكتوراه!

وصدق الخميسى كلام عودة، وذلك أن سهير فهمى لا تختلف من حيث الملامح وبياض البشرة والشعر الكستنائى ودرايتها بأصول الاتيكيت عن أية أوربية متحضرة، فضلاً عن إتقانها الفرنسية كأهلها ونطقها للعربية الفصحى المكسرة كعادة الخواجات المستعربين، وكأى مصرى شهم بادر الخميسى إلى وضع خبراته فى خدمة ذلك الهدف الثقافى المصرى الفرنسى المرتقب، وقدم لها عنوانه ورقم تليفونه، فلما طلب منها عنوانها ورقم تليفونها اعتذرت فى أدب جم بدعوى أنها لا تزال ضيفة على المستشار الثقافى الفرنسى ولا تود إزعاجه، ووعدته أن تتصل من جانبها به حين تبحث لها عن شقة مفروشة، وتليفون خاص بها!

ولم يمض أسبوع حتى كان الخميسى قد غرق فى المقلب الذى دبره عودة حسب الخطة التى رسمها لسهير فهمى، حين قبلت دعوته على العشاء فى مطعم راق وأخذ يحدثها عن نفسه ومشواره الإبداعى، ويصحبها إلى معالم القاهرة الأثرية وأحيائها الشعبية، ويغدق عليها الهدايا الشرقية من

بازارات خان الخليلى، وهى فى كل الوقت تبدو مندهشة ومأخوذة بحديثه الآسر وثقافته الواسعة، إلى الحد الذى جعلها تتمنى من صميم قلبها أن تعيش وسط الشعب المصرى العظيم، وعندئذ كان الخميسى على أهبة الاستعداد لتحقيق أمنيتها، حيث عرض عليها أن يستأجر لها شقة مفروشة على حسابه، حتى يتفرغ لمساعدتها فى إعداد رسالة الدكتوراه، ولأن إشارته كانت ذات مغزى ومعنى، فقد راحت تعتذر بلغة عربية فصحى مكسرة فى دلال، بدعوى أنها تفضل لقاء العمل فى المحلات العامة، والأماكن المفتوحة، ولم يجد الخميسى بدا من استخدام آخر أسلحته فصارحها بحبه فقالت أنها لا تزال متعلقة بفتاها الذى ينتظرها فى باريس، وتحتاج إلى وقت أطول حتى تقتنع أنه البديل الأفضل، فلما عرض عليها الزواج أمهلته حتى تفكر، ثم اختفت ولم تعد تتصل به كعادتها، وخشى أن يسأل عودة عنها، فيكشف له بذلك أنه كان يلتقى بها من وراء ظهره..

وذات مساء ــ وكان قد مضى على اختفاء سهير ثلاثة أسابيع ــ دخل الخميسى كافتيريا نايت آند واى بفندق سميراميس القديم، وتسمرت قدماه، فقد رأى سهير فهمى تجلس وسط مجموعة من الصحفيين والمثقفين المصريين،، وناداها وهو مقبل عليها فى لهفة :نادين بينو.. اين انت ياندين؟ ثم مد يده مصافحاً الجميع فقد كان يعرف معظمهم، وما لبث أن أدرك ــ عندما وجدهم يتحدثون معها باللهجة المصرية الدارجة وليس اللغة العربية الفصحى المكسرة التى يتحدث بها المستعربون ــ أنه شرب المقلب حتى الثمالة، وهكذا عندما التقى محمد عودة بادره ضاحكاً وقال: جايب لى واحدة أرمنية من الضاهر ــ يعنى حى الظاهر ــ وتقول لى المستعربة

الفرنسية مدموزيل نادين بينو، وحياتك أنا فقست المقلب من أول يوم وأكلته بمزاجي! وقال له عودة: تعيش وتاخد غيرها يا قديس.. ما يقع إلا الشاطر!!

وكان الخميسى قد وقع فى شبابه فى غرام فتاة بالمنصورة دون أن يكلمها أو تكلمه، عندما رآها لأول مرة وهى تطل من شباك منزلها وهو فى طريقه إلى المدرسة الثانوية، لا يفصل بينهما سوى أرض فضاء مسورة، وبعدها ظلت تنتظره فى غدوه ورواحه فى شباك منزلها وقد غطت شعرها بغلالة خفيفة تهفهف للنسيم، وراح خياله الخصب يتفاعل مع أشواقه إليها شعراً رقيقاً مشبوباً، فلما تجرأ وتخطى الأرض العزول التى تفصل بينهما، واقترب أكثر بحيث لم يعد يفصله عنها شيء، أصابه الإحباط وانفجر ضاحكاً، حين اكتشف أن محبوبته ليست سوى قلة من الفخار وقد غُطيت بقطعة من الشاش المبلل حتى تبرد، وعندئذ أدرك أن العتب ـــ كما يقولون ـــ على النظر!

لكننا بالفعل شهدنا قصة حب من نوع خاص، ربطت بين الخميسى وشجرة باسقة دائمة الخضرة فى المكان الذى أقيم عليه كازينو النهر على شاطئ النيل بالقاهرة، فكان يحج إليها، ويتأملها عن بعد، أو يتفيأ ظلالها وهو يتغزل فى مفاتنها كما لو كانت حسناء هيفاء، وقد حزن حزناً شديداً عندما ذهب لزيارتها وقد أرداها أصحاب الكازينو قتيلةً على الأرض فكاد يشتبك معهم وهو يتهمهم بالوحشية، حتى أكدوا له أن السوس نخر فيها وأن لكل أجل كتاباً! ولهذا أطلق جليل البندارى على الخميسى شاعر الحب والفقر والشجرة .

من طرائف ثقته بالنفس ونظرته التى لا تخيب فى اكتشاف المواهب، عندما كان يقوم بإخراج مسلسل إذاعى من تأليفه، وحين فشل أحد الممثلين فى إداء دوره فى المسلسل، رغم منحه فرصة الإعادة خمس مرات، استشاط غضباً وحمله إلى خارج الاستوديو، وعندئذ لمح شاباً يجلس فى الممر، فسحبه من يده إلى داخل الاستوديو، ثم قدم له النص وطلب أن يقرأه، ثم طلب منه أن يمثله ونجح أيما نجاح، وبعدها انفتحت أمامه أبواب التمثيل والشهرة عبر البرنامج الفكاهى الشهير ساعة لقلبك ومنه كان طريقه لأدوار البطولة فى السينما والتليفزيون، ولم يكن هذا الشاب سوى فؤاد المهندس الذى كان حينذاك بالمصادفة ينتظر فى الممر شقيقته الإذاعية الكبيرة صفية المهندس!

وقد تعرف الخميسى على السيدة أم كلثوم عبر صديقها الأثير الشاعر كامل الشناوى، فكان اللقاء بينهما حافلاً بالضحكات والسخريات واستدعاء عيون الشعر القديم والحديث، وبينما كان الحديث سجالاً، جاء ذكر سيدة مجتمع معروفة مات لها أربعة رجال تزوجتهم تباعاً، عندئذ حبكت النكتة مع أم كلثوم وقالت :الله.. هى دى اللى بيقولوا عليها كل من عليها فان ؟!

وكانت أم كلثوم قد طلبت من الخميسى أن يختار إحدى قصائده حتى تغنيها، وأمهلها حتى ينفعل بحدث وطنى أو قصة حب جديدة، لكن سرعان ما فرق بينهما رحيل كامل الشناوى عام ١٩٦٥.

وللخميسى قصة أدبية غاية فى الإثارة بعنوان النوم، ولعلها تشى بشكل غير مباشر بمراحل تشرده وفقره وصعلكته، فكثيراً ما اضطرته ظروفه للنوم

في المساجد والحدائق والمقاهى، وقد عرفت الخميسى بعد أن أصبح له سكن معروف يطل على حديقة الأزبكية، وآخر فى شارع فؤاد (٢٦ يوليو)، ولا ظوغلى وحى معروف، شأن تقلباته فى أعماله وإبداعاته. ويقول محمود السعدنى: كانت هموم الحياة ومطالبها وكثرة العيال والأتباع، هى التى تفرض عليه الهروب أحياناً من مكان لآخر، والقفز أحياناً من عمل إلى آخر، ولعل عدم الاستقرار كان الصفة التى لازمت الخميسى، وحتى البيوت التى سكن فيها تنوعت بالتزامن مع تقلب ظروفه الاجتماعية حسب الظروف والأحوال. وكان يسكن فى بعمارة شاهقة تطل على حديقة الأزبكية لها شرفة واسعة كان يحلو للخميسى أن يجلس فيها ليالى الصيف. وذات ليلة مقمرة جذبنى الخميسى من يدى ووقف ينظر إلى الحديقة، وقضى وقتاً طويلاً وهو صامت لا يتكلم، وفجأة، قال لى وهو يضغط على ذراعى: شايف الجنينة دى؟ وشايف الدكة اللى هناك؟.. أنا نمت عليها كتير وكانت الدنيا برد. لا غطا ولا أكل ولا مستقبل ولا أى شىء.

ولم ينتظر منى رداً أو تعليقاً، تركنى عند حافة الشرفة وعاد إلى مكانه الذى اعتاد أن يجلس فيه. وخيل إلىّ أن الخميسى كان يحدث نفسه ولا يتحدث معى، وظننت أنه اختار هذه الشقة بالذات لأنها تطل على هذه الحديقة وعلى هذه الدكة، ولكن ظنى لم يكن فى محله، فلم يلبث الخميسى أن هجر هذه الشقة أيضا وذهب إلى حى السيدة زينب، وسكن فى عمارة حديثة هناك، وقضى فى هذه الشقة سنوات قبل أن يهجرها إلى شقة إخرى.

وقال لى الخميسى أن صديقه فى الصعلكة الشاعر البائس عبد الحميد الديب لازمه بعض فترات ضياعه حتى وجد لنفسه زوجة تملك شقة متواضعة فى حى الحسين، فلما هلّ عليه شهر رمضان أوصى المسحراتى أن يدق على طبلته دقة خفيفة إلى جوار شباك الشقة حتّى يستيقظ لتناول طعام السحور. وحدث ذات ليلة رمضانية أن المسحراتى راح يدق دقاً عنيفاً بشكل متواصل. فلما استيقظ عبد الحميد الديب سأل المسحراتى فى غضب: طلبت منك أن تدق مرة واحدة دقاً خفيفاً.. فلماذا تدق بشكل متواصل وبعنف؟ فقال المسحراتى: لأننى مضطر للسفر إلى قريتى لمدة أسبوع لوفاة أحد أقربائى. قلت أدق الطبلة بما يكفى فترة غيابى!

وقد يخال للبعض أن الخميسى صاحب فكر علمانى، وهذا صحيح، لكن روحه حين تصادف الظروف والأجواء التى تحرك خباياها، سرعان ما تشع رومانسية وتفيض بالروحانيات، وحدث يوماً عندما فرغت من تناول الغداء فى منزله وهممت بالمغادرة سألنى إلى أين؟ وقلت: رايح أصلى العصر فى مسجد السيدة نفيسة، وإذا بالبشر يكسو ملامحه، وقال: والله فيك الخير.. ده وحشتنى بشكل، ده أنا من محاسيب السيدة نفيسة، فكم آوتنى فى مسجدها عندما جئت القاهرة ولا سكن لى أو معين.. انتظرنى قليلاً حتى أتوضأ.. سوف اصطحبك لزيارتها!

وفى مسجد السيدة نفيسة صلينا العصر جماعة، ثم نهض لزيارة الضريح، ورأيته يطوف حوله ويبكى لأول مرة ويتمتّم بالدعاء، وراح يوزع النقود على المشايخ والمساكين، فلما ركب إلى جوارى فى سيارتى ظل ساهماً وقد غلبه

الوجد والخشوع، فلم أشأ أن أقطع عليه صمته، حتى قال: لم أقصدها يوماً فى محنة أو كرب.. إلا وكانت أبواب السماء مفتوحة للاستجابة لدعائى، ومضت دقائق وقال: كمل بقى جميلك وخدنى أزور مسجد الست فاطمة النبوية، وهناك صلينا المغرب وبكى للمرة الثانية أمام الضريح، ثم جلس على الأرض وتناول مصحفاً وراح يتلو القرآن بصوت مسموع، وفى طريق العودة قال لى مبتسماً: أنا حفظت نص المصحف وعمرى ثمانى سنوات.. وكان صوتى جميلاً!

فى أخريات أيامه بموسكو، صحا يوماً من النوم ونظر طويلاً إلى وجهه فى المرآة.. وقال محدثا نفسه فى سخرية وأسى: يارب زهقت من الوش ده.. بقالى ستين سنة باشوفه هو هو، يارب غيره بقه! ، وكان كثيرا ما يردد: قضيت عمرى كله والناس تتفرج على بفضول، متى يأتى اليوم الذى اتفرج فيه على الناس وهم يجهلون من أنا!

لقاء ضاحك مع جمال عبد الناصر

لا نعرف لماذا لم يستمر الخميسى فى العمل سوى بضعة شهور بدار أخبار اليوم، انتقل فى إثرها إلى صحيفة الكتلة وكانت لسان حال الجناح المنشق عن حزب الوفد بزعامة مكرم عبيد فى أعقاب صدور كتابه الشهير الكتاب الأسود ضد النحاس باشا عام ١٩٤٣، ولأن الخميسى كان وقتئذ من الشباب البارزين فى الحزب الوطنى الذى أنشأه الزعيم مصطفى كامل، وخلفه فى زعامته حافظ رمضان من بعد رفيق كفاحه محمد فريد، وظل الحزب على مبدئه لا مفاوضة مع الإنجليز إلا بعد الجلاء عن وادى النيل، من هنا اقتصر نشاط الخميسى فى صحيفة الكتلة على نشر إبداعاته الشعرية والقصصية والكتابة فى شئون الأدب والموسيقى والفن، وامتنع عن الدفاع عن مواقف الحزب السياسية، إذ كان يشعر أنه يحلق خارج سربه، وهذا ما يفسر ترحيبه فى تلك الفترة بعرض الإذاعى الكبير محمد فتحى للعمل بإذاعة الشرق الأدنى فى يافا بفلسطين، وهناك أنجبت زوجته السيدة شفيقة كبرى بناته ضياء، التى مازالت تحمل شهادة ميلاد مصرية من يافا.

يقول الخميسى فى أوراقه: وافقت على العمل بإذاعة الشرق الأدنى لانحيازى للديمقراطية وعدائى المستحكم للمحور النازى الفاشى الذى روع العالم باغتياله الجماعى لخصومه ومناوئيه فى المحارق وغرف الإعدام بالغاز، ثم لأن اختيارى لتلك المهمة كان متزامناً لاختيار نخبة من أصدقائى الأدباء والفنانين الشبان، وبينهم سامى داود، وعميد الإمام، وسيد بدير، وناصر النشاشيبى، وعبر تلك الصحبة الجميلة تبددت وحشتى فى أول عهدى بالاغتراب والإقامة خارج مصر، وانفتحت شهيتى للعمل معهم كفريق.. مذيعاً ومترجماً وممثلاً ومؤلفاً للبرامج والتمثيليات التى قمت بإخراجها.

عن هذه الفترة من حياة الخميسى كتب الشاعر الفلسطينى معين بسيسو يقول: محطة إذاعة الشرق الأدنى فى يافا الفلسطينية والعام ١٩٤٣، وصوت الشاعر محمد مهدى الجواهرى يدوى وراء الميكروفون بقصيدة ستالينجراد، ينتهى، يقدم الميكروفون إلى توفيق الحكيم، ومنه ينتقل إلى إبراهيم المازنى والعقاد وأحمد صافى النجفى، وبين كل قصيدة وحديث إذاعى، كان المذيع يقطع الإرسال بفاصل غنائى جديد لأم كلثوم، أو محمد عبد الوهاب، أو فريد الأطرش..

كانت التعبئة ضد الفاشية على أشدها، وكانت أصداء المعارك فى الحرب العالمية الثانية، تتساقط مطراً فوق مدينة يافا، التى سقطت بعد سبع سنوات فى أيدى الفاشيين الإسرائيليين الجدد، وفى بيت مطل على البحر فى يافا، وعلى بعد مائة متر من محطة الشرق الأدنى، كان عبد الرحمن الخميسى يعيش تلك المرحلة.. ويعمل فى الوقت نفسه مسئولا عن القسم الأدبى الموجه ضد الفاشية.

ومن الميكروفون المضاد للفاشية، وفوق الأرض الفلسطينية، بدأت قسمات وجه الخميسى تتحدد، وبدأ ارتباطه كشاعر بالنضال السياسى.

كانت الرسالة المصرية، رسالة أحمد الزيات، قد قدمت عبد الرحمن الخميسى كوجه من أبرز الوجوه الشعرية فى تلك المرحلة.. مرحلة الرومانسية الثورية التى كانت تجسدها الأصوات الشعرية لأبى قاسم الشابى وإبراهيم ناجى وأبى شادى، هذه المدرسة التى استلهمت الكثير من الحملة التجديدية التى شنها الثوريون على مدرسة شوقى التقليدية.. واستلهم عبد الرحمن الخميسى الكثير أيضاً، ومن خلال اتصاله بالمعركة الوطنية السياسية، وبحركتها الأدبية بدأت قصائده تظهر على صفحات مجلات رابطة المثقفين العرب، فلما انتهت الحرب العالمية الثانية باندحار الفاشية، كان على الخميسى أن يحزم أوراقه ويبحث عن أرض معركة جديدة، فترك يافا عام ١٩٤٨ عائداً إلى القاهرة، ليساهم فى معركة أخرى ضد الذين أرادوا أن يكونوا ورثة الفاشية..

وبدأت خطوات الخميسى فى شوارع القاهرة، هذه الشوارع التى حملها كالخارطة فوق ظهره ومضى بها، وهو يحمل إلى جانبها كل ما استفاده من حركة الشعر الثورية الفلسطينية، إلى جانب الدروس الأدبية التى تعلمها من أستاذه خليل مطران والدروس السياسية التى تعلمها من أستاذه الآخر سلامة موسى.

ورغم ما حققته أعمال الخميسى فى إذاعة الشرق الأدنى من شهرة على المستوى العربى، إلى حد أن الصحافة العربية خلعت عليه لقب صاحب

الصوت الذهبى، إلا أنه استجاب لنداء زكريا الحجاوى للعودة إلى القاهرة فوراً، بعد أن رشحه للعمل بصحيفة المصرى لسان حال حزب الوفد التى كان مديراً لتحريرها، خاصة بعد أن عرف الخميسى باتجاهها لإفساح المجال للكتاب والأدباء الشبان، لمنافسة غيرهم من كبار الكتاب الذين كانوا يتربعون وقتئذ على عرش الصحافة والأدب، ومن بينهم محمد التابعى وأحمد الصاوى محمد وعباس محمود العقاد وطه حسين وعبد القادر المازنى.

فى جريدة المصرى وجد الخميسى أن عليه أن يفرغ طاقته فى العمل، وأن ينافس جمعاً من أفضل الكتاب والأدباء الشبان، وبينهم زكريا الحجاوى ومحمود عبد المنعم مراد وحسن فؤاد وعثمان العنتيلى وعبد الرحمن الشرقاوى وسعد مكاوى، فضلاً عن بعض الكتاب والأدباء غير المتفرغين، ممن ينتمون إلى الطليعة الوفدية وكانوا يمثلون الجناح اليسارى الذى يسعى إلى تجديد الخطاب السياسى لحزب الوفد وتضمينه أفكاراً جديدة تتراوح ما بين العدالة الاجتماعية والاشتراكية، وانتزاع مقدرات الحزب من هيمنة بعض الباشوات الإقطاعيين الدخلاء، وكان فى مقدمة ذلك الجناح اليسارى الناقد الكبير محمد مندور وعزيز أحمد فهمى ومصطفى موسى وعبد المحسن حمودة.

والحقيقة أن أحمد ومحمود أبو الفتح صاحبى المصرى كانا من ذوى النهج الليبرالى، ومن ثم نشأت علاقة صداقة حميمة بين الخميسى وأحمد أبو الفتح حتى أن الخميسى أطلق اسم أحمد أبو الفتح على ابنه أحمد

الخميسى الذى أصبح كاتباً وأديباً فيما بعد، ولم يكن أصحاب المصرى يصادرون رأياً لكاتب حتى لو اختلفوا معه، وربما كان لتلك التوليفة الصحفية والسياسية والفكرية فضلاً عن شعبية حزب الوفد، أثر هام فى صعود نجم المصرى وحيازتها للمصداقية السياسية وارتفاع أعداد توزيعها، فى الوقت الذى كانت فيه المنافسة على أشدها بين الأديب سعد مكاوى عندما نشر حلقات روايته الرائعة السائرون نياماً وبين الخميسى الذى فاجأ الجميع بمغامرته لإعادة كتابة ألف ليلة وليلة فى حلقات ممتعة استمرت أكثر من عام تحت عنوان ألف ليلة وليلة الجديدة بأسلوب حديث شيق أشبه بالسهل الممتنع، راعى فيه الاختصار وعدم الإملال، وتجنب عيوب العمل القديم من حيث السجع والبذاءة والجنس الفاضح، فأدى ذلك إلى مضاعفة توزيع المصرى وكذلك مرتب الخميسى وشهرته، وقد طبع هذا الإبداع غير المسبوق عدة مرات فى جزءين فى سلسلة كتب للجميع نال عنها الخميسى نصيباً مادياً مجزياً!

ويكتب وديع فلسطين فى مجلة الهلال ديسمبر ١٩٩٩ عن نشاط الخميسى فى تلك الفترة قائلا: كانت صحافة مصر أثناء الحرب العالمية الثانية وما انفكت تستورد ورق الصحف من الخارج.. وتدخلت وزارة التموين واحتكرت استيراد الورق وتوزيعه على الصحف، كما تقرر تخفيض عدد صفحات الصحف اليومية إلى أربع صفحات مع احتجاب كل جريدة مرة فى الأسبوع.. وكانت الجريدة تباع بخمسة مليمات فقط! وحتى لا تحتجب الجريدتان الرئيسيتان وهما الأهرام والمصرى فى يوم واحد أسبوعيا، فقد توافقت الجريدتان على أن تحتجب إحداهما فى يوم الجمعة فتنفرد

الأخرى بالسوق وتحتجب الثانية فى يوم السبت فتنفرد الأولى بالسوق.. وقامت المصرى بتخصيص الصفحة الأخيرة من عددها الأسبوعى لتقديم مادة أدبية مشوقة تبارى فى إعدادها تأليفا وترجمة عدد من الشبان الموهوبين فى مقدمتهم عبد الرحمن صادق، وسعد مكاوى، وعبد الرحمن الخميسى، وعبد الرحمن الشرقاوى..

بعدها أصبح للخميسى باب يطل منه على القراء كل صباح تحت عنوان من الأعماق ، كما شرع فى الوقت نفسه فى نشر إبداعاته فى الشعر والقصة وترجمة الأعمال الأدبية العالمية لموباسان وتشيخوف مما جمعه فى كتابه يوميات مجنون وكذلك كتابة المقالات النقدية وغيرها مما يعنى بالتذوق ونشر الوعى الموسيقى، ونجد فى روايته ــ التى لم تنشر حتى الآن فى كتاب ــ تحت عنوان الساق اليمنى تنبؤاته بعمليات نقل وزراعة الأعضاء فى الجسم البشرى، والتى تحققت بعد ذلك بنحو ربع قرن، عندما اختار بطل الرواية وقد أصيب فى حادث بتر ساقه اليمنى واستبدالها بساق شخص مجهول بعد موته، وكيف تخيل المشاعر والأحاسيس الجديدة التى طرأت عليه بعدها، وروى الكاتب الساخر محمود السعدنى أنه زار الخميسى يوماً فى مكتبه بصحيفة المصرى، فشاهده يزرع غرفته جيئة وذهاباً وهو يحدث نفسه متسائلا عن أى التعبيرين يكون أكثر دقة على لسان البطل.. هذه ليست ساقى أم.. ليست هذه ساقى! وذلك فى معرض الإشارة لدقة الخميسى البالغة فى اختيار الكلمات.

السعدنى ذكر لى أن الخميسى اشتبك على صفحات المصرى فى معركة عنيفة مع الكاتب اللامع محمد التابعى حول الموسيقى والطرب

والمفاضلة بين عبد الوهاب وأم كلثوم انتهت بهزيمة التابعى الماحقة، ثم توقف عن ملاحقته استجابة لطلب صديقه الشاعر كامل الشناوى الذى ينتمى للتابعى بصلة قرابة!

وقد دافع الخميسى بحرارة فى السنوات السابقة على الثورة عن المطالب المشروعة للحركة الوطنية المصرية فى مواجهة القصر والاحتلال الانجليزى من خلال بابه اليومى الثابت من الأعماق ، وكان بذلك معبرا عن حالة جديدة وجيل جديد من الكتاب والمفكرين الذين ظهروا بعد جيل الرواد الأوائل من أمثال طه حسين والعقاد والمازنى وعلى عبد الرازق وسلامة موسى ومحمد حسين هيكل والحكيم، وكان جيل الرواد قد أدى دوره إلى حد كبير فى الدعوة الملحة إلى الليبرالية، والتنوير. إلا أن جيل الخميسى والشرقاوى وسعد مكاوى كان الجيل الأقرب لفكرة الثورة على القصر، والتصدى للاحتلال، والإطاحة بالملكية. ومع ذلك فإن فكرة الثورة التى شابتها أحلام الرومانسية كانت أقرب عند الخميسى لنبض الشارع المصرى منها لحركة لم يخطر على بال أحد أن تأتى من داخل الجيش، ويقوم بها مجموعة من الضباط والعسكريين. وكان الخميسى يرى دوره، ودور الكاتب عامة على النحو الذى طرحه بنفسه فى مقدمة كتابه المكافحون عام ١٩٥١ حين كتب قائلا: على الكتاب أن يحطموا أقلامهم إذا ألمت بالوطن النكبات، ولم يشهر كل منهم يراعه كالحسام يفلق به رؤوس الجائرين، عليهم أن يكسروا أقلامهم إذا لم يلبوا صرخة الوطن الجريح، عليهم أن يجندوا هذه الأقلام، ينفخوا القوة منها فى الأرواح، ويجعلون صريرها دويا متواصلا فى الضمائر والقلوب.. ومصر السخية العظيمة جديرة

بأن نقدسها ما طلع الصباح وما جرى النيل، وإذا أهاب داعى الوطن فعلينا أن نخوض الهول والموت . وفى العاشر من أكتوبر ١٩٥١ يكتب الخميسى في بابه من الأعماق بالمصرى يقول بأسلوبه النارى:

كان أمس زئيرا راعدا، وطوفانا من الحماس الغامر وشمسا مشرقة باهرة الأضواء.. الزئير ألفته صرخات الملايين بسقوط الاستعمار ومعاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى ١٨٩٩، وطوفان الحماس كان ينصب من قلوب الملايين تمجيدا لهذه الخطوة الباسلة التى قطعت بها الحكومة العلاقة بين مصر الضحية وإنجلترا الغاصبة المفترسة.. كان أمس يوما خالدا كفن فيه المصريون ماضى الاحتلال، وأهالوا عليه التراب، وكان عيدا مجنون الأفراح.. القيد انكسر.. فانطلقوا أيها المواطنون إلى أرض الحرية ولا تدعوا للغاصبين فرصة أخرى.. اغسلوا جراحكم، وقفوا صفا واحدا باسلا تحت شمس الحياة . إذ كانت الثورة المرتقبة عند الخميسى هى ذلك الطوفان من التدفق الشعبى، ولهذا كانت علاقته بالجيش منذ البداية معقدة، رغم أنه كان من الداعين للثورة.

ويذكر السفير المصرى عبد الرءوف الريدى فى جريدة الوفد بتاريخ ٣٠ أغسطس ١٩٩٩ تحت عنوان عبد الرحمن الخميسى جزءا من المشهد المعقد لعلاقة الخميسى بالثورة قائلا: إن جريدة المصرى ظلت تقوم بدورها الرائد فى التعبير عن تطلعات الشباب الوطنى طوال الفترة التى شهدت المعارك ضد الانجليز فى القناة، كما ظلت بعد الثورة تدافع عن عودة الديمقراطية حتى آخر يوم من حياتها عندما صدر آخر عدد منها بعد أزمة مارس ١٩٥٤ والذى أعلنت فيه لقرائها أن ذلك هو آخر يوم فى عمرها .

وربما لم يكن موقف الخميسى ذلك بعيدا عن ميوله الاشتراكية التى عبر عنها بمقال رثاء عام ١٩٥٣ نعى فيه ستالين تحت عنوان، وقفة خشوع أيها الرفاق .. ويذكر أحمد أبو الفتح ـــــ رئيس تحرير المصرى فى تلك الفترة ـــ على صفحات الوفد أيضا فى ٩ سبتمبر ١٩٩٩ قصة علاقة الخميسى بقيادة الثورة فى مطلعها، وتخوفه من الديكتاتورية فيقول: أذكر أن الخميسى كان فى الشهور الأولى من الحركة سريع الحساسية مما سيحل بمصر على يد الديكتاتورية.. وكان ينشر كلمته يوميا فى جريدة المصرى، وأخذ من آن لآخر يوجه اللوم بأسلوبه اللولبى إلى من انخدعوا فى حركة الجيش. وفى يوم من الأيام حضر إلى مبنى جريدة المصرى ثلاثة من ضباط الجيش وهددوا الخميسى بأشد العقوبات إذا وجه أى نقد للحركة. وفى نفس اليوم كتب الخميسى كلمته وكلها مدح فى حركة الجيش، ثم كتب فى آخر سطر يا مهلباية.. يا ! الأمر الذى يقطع بأنه لم يكن يمدح بل كان يسخر من هذه الحركة. وفى الليل حضر الضباط الثلاثة والشر فى أعينهم وصرخوا فى وجه الخميسى بالشتائم والتهديدات.. وبكل قدرة الخميسى على التمثيل أبدى استغرابه لتصرف الضباط وقال: لقد مدحت حركة الجيش مدحا كاملا.. ماذا تريدون بعد ذلك؟

فقال له الضابط: هل هذا مدح أم مسخرة؟ ماذا تقصد بـ يا مهلباية.. يا ؟

وأبدى الخميسى المزيد من الدهشة وقال: إيه حكاية يا مهلبايه يا التى تتحدثون عنها هذه؟. فألقى أحد الضباط بالجريدة فى وجهه قائلا: لماذا اختتمت كلمتك بهذه العبارة الساخرة؟

وقال الخميسى: أنا لم أكتب أبدا هذه العبارة، ولابد أن يكون قد تم وضعها بطريق الخطأ، إذ كان مكانها برنامج الراديو الذى تنشره الجريدة كل يوم، وفى هذا البرنامج كانت أغنية لمحمود شكوكو باسم يا مهلباية..يا ! وهكذا أنقذ الخميسى نفسه من براثن الانتقام!

وثمة مقال هام للخميسى يوضح موقفه من الديمقراطية منشور فى مجلة الكاتب بتاريخ ١٥ أكتوبر ١٩٥٢ بعنوان بعض ما يريده الشعب يقول فيه الخميسى: ليس معقولا أن يرضى رجال الجيش بمحاولة إقامة الحاجز الفاصل والسد الحائل بينهم وبين الشعب.. لذلك ينبغى على رجال الجيش والحكومة أن يرحبوا بالنقد النزيه، لأنه المرآة التى تعكس الملامح عكسا حقيقيا، ولأنه عمل ضرورى للتبصير والتوجيه والتقويم، ولأنه هو المانع من الزلل، وهو المصحح للخطأ، وهو الدافع إلى البناء السليم. وإنى أدعو اليوم كل صاحب فكرة أن ينقد تصرفات الحكومة، فيقول مثلا أن الأستاذ سليمان حافظ قد لعب دورا ضارا حين هدم النظام الحزبى، وعطل حرية تكوين الأحزاب.. ولو كان الجيش قد وجد مقاومة صلبة عنيدة لذلك القانون لطالب فورا بإلغائه.. وهذا أنا أقول إن الشعب من أجل الديمقراطية والسلام يطالب بإلغاء الأحكام العرفية فورا.. هذا أنا أقول إن الشعب يطالب من أجل الديمقراطية والسلام بإعادة الحياة النيابية إلى البلاد، لأن التأييد الذى منحه الشعب للجيش ما زال معلقا فى الهواء يبحث له عن جسم مادى يتقمصه، وليس غير الحياة النيابية جسم يتشكل به هذا التأييد.. هذا أنا أقول إن الشعب من أجل الديمقراطية والسلام يريد العفو الكامل الشامل

عن المسجونين السياسيين.. هذا أنا أقول اكتبوا، وانقدوا، ووجهوا، فإن الجيش جيش الشعب، وإن الرقابة للشعب وحده، والكلمة للشعب وحده!

ومن أطرف نوادر الخميسى التى يرويها زملاؤه فترة عمله بالمصرى، عندما دخل عليه ذات مساء مكتبه بالدور الثانى رجل مديد القامة يرتديقميص وبنطلون، وسأله : من فضلك فين مكتب أحمد ابو الفتح؟

لكن الخميسى ظل منكباً على الكتابة وكأنه لم يسمع شيئاً، ومن جديد أعاد الرجل السؤال عليه، فما كان منه إلا أن انتفض من مكانه وقال: انت موش شايف انى مستغرق فى التفكير والكتابة؟.. ثم هل تعتقد أن شكلى وهيئتى يوحى لك أنى ساعى.. اتفضل يا أستاذ من غير مطرود إلى الدور الأول ووجه سؤالك ده إلى موظف استعلامات؟ وقطع عليه الرجل استرساله فى تأنيبه بأن أدار له ظهره وانصرف.. ولم يكن ذلك الرجل سوى البكباشى جمال عبد الناصر!! ولم ينقض على ذلك اللقاء سوى أسبوعين حتى اندلعت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ونشرت الصحف وبينها المصرى صورة اللواء محمد نجيب وأعضاء مجلس الثورة الضباط الأحرار آنذاك، لكن الخميسى لم يدر بخلده أن جمال عبد الناصر بينهم، إذ كان بشحمه ولحمه ذلك الرجل الى لم يحسن استقباله فى مكتبه، ومرت عدة أسابيع إلى أن توجه اللواء محمد نجيب إلى دار الهلال للقيام بواجب الزيارة لصديقه حلمى سلام مدير تحرير مجلة المصور تقديراً لدوره فى كشف المستور عن الأسلحة الفاسدة التى حارب بها الجيش المصرى فى فلسطين، فى الوقت الذى قام فيه جمال عبد الناصر بزيارة مماثلة لصحيفة

المصرى لتقديم واجب الشكر لصديقه أحمد أبو الفتح الذى كان يوافى حركة الضباط الأحرار أولاً بأول بمعلوماته عن تحركات الملك والحكومة والسفارة البريطانية، واستكشاف ردود أفعال هذه الدوائر إزاء منشورات الحركة وتحركاتها.

وبينما كان أحمد أبو الفتح يقدم لعبد الناصر كتاب المصرى ومحرريها جاء الدور على الخميسى وعند ئذ بادره جمال عبد الناصر متسائلاً: يا ترى يا أستاذ عبد الرحمن فاكرنى؟

وقال الخميسى وهو يحاول استرجاع شريط ذكرياته: الحقيقة موش فاكر انى اتشرفت بحضرتك قبل كده!

قال عبد الناصر: إذا كنت نسيت أفكرك. لما دخلت عليك مكتبك من حوالى شهر واحتجيت بأنك موش ساعى ولا موظف الاستعلامات.. وقلت لى روح ابحث بنفسك عن أحمد أبو الفتح؟ و.. انفجر الجميع فى الضحك حتى قال الخميسى: سيادتك كنت لابس مدنى.. أعرف منين إنك ضابط، وحتى لو كنت لابس ميرى.. اشعرفنى انك من الضباط الأحرار وانك جاى لمهمة عاجلة؟.. ثم اننى كنت مستغرقاً فى العمل.. فهل تسمح سيادتك لأحد أن يقطع عليك عملك وأنت مشغول بالإعداد لحركتكم المباركة؟!!

وقال عبد الناصر: على كل حال يا أستاذ عبد الرحمن نحن نعتز بك وأمثالك من الكتاب الشرفاء الذين سخروا أقلامهم للدفاع عن القضية

الوطنية.. ولو انك عزمتنى على كباية شاى لحكيت لك كل ما قرأته من كتاباتك التى كانت تعبر بحق عما يجيش فى صدور الضباط الأحرار.

وقال الخميسى: لكن تقول إيه سيادتك فى حظى النحس ومخى الزنخ؟!

ومن باب التوثيق، فقد روى لى الفنان الكاتب زكريا الحجاوى تفاصيل ذلك اللقاء المثير بين جمال عبد الناصر وعبد الرحمن الخميسى، وأكدها من بعده صديقه محمد عودة، والمرة الوحيدة التى روى فيها الخميسى هذه القصة بنفسه كانت ليلة وفاة جمال عبد الناصر، حيث رأيته للمرة الأولى يبكى.

وكتب الخميسى بعد ذلك مقاله المؤثر فى وداع عبد الناصر بجريدة الجمهورية فى الرابع من أكتوبر ١٩٧ . تحت عنوان أمام جثمان الشهيد الراحل يقول: اليوم نقف فى موكب وداعك الحزين الباكى، مذهولين، يمتصنا الشجن، وتمزقنا اللوعة الضارية . ذلك على الرغم من أن الخميسى لم يكن من الوجوه المدللة فى العهد الناصرى حتى أن لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكى فصلته مع عدد من كبار الصحفيين من جريدة الجمهورية، ويحكى محمود السعدنى قصة مثيرة فى هذا الصدد يقول فيها أنه فوجئ عندما اتجه إلى عمله بصحيفة الجمهورية بالمدير الإدارى يستدعيه ويسلمه خطابا بفصله، وعلم السعدنى أن هناك مجموعة أخرى مفصولة منها الخميسى، لكن السعدنى بحبه المعروف للمقالب والمزاح لم يقل شيئا للخميسى، فقط اتصل به وقال له: الحقنى يا عم عبد الرحمن؟ فجاءه صوت الخميسى: فيه إيه؟ قال له: تصور النهاردة رحت الجريدة لقيت

خطاب بفصلى! . قال الخميسى مستغربا: مش معقول يا محمود.. لما يفصلوك أنت يبقى مين اللى يقعد ويكتب؟ وثار وهو يضيف: ده كلام فارغ.. أنت بتتكلم منين؟ قال السعدنى: من الجريدة. قال له: طيب استنى عندك ما تمشيش أنا جاى لك دلوقت أشوف إيه الموضوع ده. وأنهى السعدنى الحوار وهو يضحك فى سره، فقد كان يعرف أن الخميسى نفسه سيتسلم خطابا مماثلا! . وعندما وصل القديس إلى مقر الجريدة راح يهون على السعدنى: ما يهمكش.. أنا لازم أرجعك. ودخل إلى المدير الذى سلمه هو الآخر خطابا مماثلا! وخرج الخميسى مذهولا يقول: الله.. ده الحكاية بجد بقى!

واصطحب الخميسى السعدنى إلى خارج الجريدة وكان مقرها فى شارع قصر العينى بجوار جريدة الشعب، واستوقف الخميسى سيارة تاكسى، وقال للسائق: ع الشعب.. فظن السعدنى ــ حسب حكايته ــ أن الخميسى سيجد له ولنفسه عملا فى صحيفة الشعب، فلما اقترب التاكسى من مقر الشعب قال السعدنى: بس هنا يا أسطى. فقال الخميسى:

لا يا ابنى كمل على طول.. على ميدان التحرير.. أنا قصدى ع الشعب اللى قاعد فى القهاوى فى ميدان التحرير! ..

وتحضرنى والحديث لا يزال عن فترة عمل الخميسى فى صحيفة المصرى واقعتان جاء ذكرهما فى مقال للأستاذ منصور العربى فى الكتاب التذكارى الذى صدر تكريماً للخميسى عرفاناً بدوره ومواقفه الأدبية

والسياسية تحت عنوان عبد الرحمن الخميسى.. الكلمة والموقف الصادر عن دار الوحدة فى بيروت..

الواقعة الأولى: حول اشتغاله فترة من الوقت كاتباً سياسياً فى مجلة الحوادث القاهرية الناطقة بلسان حزب الوفد فى الأربعينيات إلى جانب صحيفة المصرى، وقصة هروبه واختفائه فى الفيوم، إثر مقالة نارية هاجم فيها الإقطاعيين والرأسماليين المتقاعسين عن الوقوف إلى جانب الحركة الوطنية فى مواجهة الملك والإنجليز، حيث صدر قرار من النيابة بالقبض عليه بتهمة العيب فى الذات الملكية.

الواقعة الثانية: الاستشهاد بكتاب الدكتور سيد أبو النجا ذكريات صحفية وكان من أبرز الأعلام المنشئين للصحف المصرية حيث أشار إلى استفتاء علمى مدعوم بالإحصاءات حول أكثر الكتاب المصريين شعبية قام بالإشراف على تنفيذه شخصياً أواخر الأربعينيات، وأسفرت نتيجته عن فوز عبد الرحمن الخميسى الكاتب بصحيفة المصرى بالمرتبة الأولى.

وقد توقفنا بدرجة من الإسهاب عند فترة المصرى، لأنها الفترة التى لمع فيها الخميسى أشد ما يكون، وهى أيضا الفترة التى انتهت باعتقاله فى ١٥ مارس ١٩٥٣ حتى ١٢ ديسمبر ,١٩٥٦ أيضا لأن الأربعينيات شهدت ذروة انتاج الخميسى شعرا وقصة وترجمة وتأثيرا صحفيا، وبدءا من ١٩٥ . أخذت تصدر كتبه المكافحون الذى ضم سيرة حياة عدد من عشاق مصر ونجوم التنوير مثل عبد الله النديم وجمال الدين الأفغانى وعمر مكرم، وصيحات الشعب الذى اشتمل على قصصه القصيرة فى نوفمبر ١٩٥٢ ، و

رياح النيران فى نفس العام، وقمصان الدم فى مارس ١٩٥٣ والتى أهداها إلى: الرفاق خلف الأسوار وأمام الأسوار داخل السجن الكبير. ولا يكشف هذا الإهداء وحده عن علاقة الخميسى المعقدة بالثورة، فقد لاحظ الناقد الكبير محمود أمين العالم فى مقال له بمجلة القاهرة فى يونيو ١٩٨٧ ملاحظة غريبة وهى أن كل قصص مجموعة أمينة التى صدرت فى الستينيات خالية من تاريخ كتابتها، باستثناء ثلاث قصص منها قصة عروس أبو الفوايد المؤرخة بعام ١٩٥٣، وتحكى قصة فلاح ناضل من أجل أن يجمع مهر عروسه وما أن ينجح فى مسعاه حتى يفاجأ بأنها أصبحت زوجة لعسكرى يغادر بها القرية. ويتساءل محمود العالم عما إذا كان حرص الخميسى على تأريخ هذه القصة هو إشارة رمزية لموقفه المبكر من حركة الجيش عام ١٩٥٢؟

ولم يكن موقف الخميسى الثورى فى كتاباته يختلف عنه فى شعره، فقد لاحظ الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى فى مقال له بروز اليوسف عام ١٩٦٢ أن شعر الخميسى لم يتضمن ــ خلافا للكثيرين فى عصره ــ مديحا فى ملك أو حاكم قبل الثورة، وتكفى نظرة على المجلات التى كان الخميسى ينشر بها حينذاك لإدراك حجم القصائد التى خصصها شعراء كبار لمدح الملك فاروق، وغيره وهو ما لم يفعله الخميسى أبدا. وسنجد على سبيل المثال فى مجلة الرسالة بتاريخ ٩ أبريل ١٩٤٥ قصيدة رومانسية للخميسى بعنوان خواطر فى الظلام جنبا إلى جنب مع قصيدة أخرى للشاعر الكبير محمد الأسمر بعنوان رضا الفاروق جاء فى مقدمتها: الآيات الآتية نظمها الشاعر الكبير محمد الأسمر بمناسبة إبلال صاحب

المقام الرفيع أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى من مرضه الذى فاجأه وهو يشيع جنازة اللورد موين .. لم يكتب الخميسى شيئا من هذا النوع.. ويختتم حجازى مقاله بملاحظة هامة قائلا: ولعل الخميسى هو الشاعر الوحيد الذى خلا ديوانه من أشعار المديح والمجاملات بين شعراء الجيل الذى ظهر فيه .

وبإحكام الثورة إشرافها وتوجيهها لوسائل الإعلام، دخل الخميسى مرحلة أخرى جديدة بعمله فى صحيفة الجمهورية بعد خروجه من المعتقل. وهناك كان لقاؤه الضاحك الثانى مع رجل آخر من قادة اللثورة هو أنور السادات! ويروى موسى صبرى فى فى مجلة آخر ساعة بتاريخ ١٩٨٧/٤/١٥ تلك القصة على النحو التالى:

كان الخميسى يعمل فى صحيفة الجمهورية عندما كان يرأس إدارتها أنور السادات.. وقدم تقرير إلى أنور السادات بأنه لايقدم أى إنتاج، ودائم الغياب.. فقرر وقفه عن العمل. ولما تلقى خطاب الوقف عن العمل حضر إلى الجمهورية وطلب لقاء السادات، ونصحه أصدقاؤه بألا يطلب هذا اللقاء، لأن السادات فى قمة الغضب، وقد ينتهى الأمر إلى فصله.. ولكنه أصر، واستقبله السادات، وبعد عشر دقائق كان السادات قد ألغى قرار الوقف.. وأعطاه علاوة!

ـــ كيف حدث هذا يا عبد الرحمن؟!

وأجاب بضحكة عريضة: إنه رجل يقدر الموهبة!

وحول هذه الواقعة ذكر لى كامل الشناوى أن السادات استدعاه إلى مكتبه وكان فى حالة غضب شديد لغياب الخميسى عن الحضور وقلة انتاجه، إذ كان يعرف صداقتنا الحميمة، ولذلك أوصانى بالتنبيه عليه أنه لن يقبل هذا الإهمال وهدد بفصله، ولشد ما كانت دهشتى عندما رأيت الخميسى يخرج من مكتبه ويقدم لى ورقة بإمضاء السادات موجهة لى بصفتى رئيس تحرير الجمهورية تفيد موافقته على منحه علاوة شهرية ومكافأة مجزية. وعندما سألت الخميسى كيف حدث ذلك قال: أفهمت السادات أن المسألة ليست بكم الانتاج ولا دوام الحضور، وإنما بمضمون الإبداع وتأثيره على الجماهير ومردوده على توزيع الجريدة وأعجبه هذا الرأى وكافأنى عليه.

الليل من ضرورات الإسراء الشعري

على الرغم من مواهب عبد الرحمن الخميسى المتعددة التى تفتحت فى مختلف بساتين الأدب والفن، وأينعت قطوفاً متباينة من أشكال وألوان الإبداعات الناضجة، تظل تجربته الشعرية أثرى ما خلفه وراءه وأبقى فى سجل الخلود، ولم لا؟ وقد ولج ساحة الشعر وصال وجال ولم يكن سوى فتى غض الإهاب، حتى تراكمت قصائده فى ديوان كامل ولم يتجاوز من العمر سبعة عشر عاماً، لكن لأن هذا الديوان لم يحظ آنذاك بفرصة النشر والنقد والتقييم، وربما لأن الخميسى نفسه لم يحرص بالشكل الواجب للحفاظ على قصائده من الاندثار والنسيان فى زحمة الزمن وتقلبات الحياة، لذلك لم يصلنا منها سوى النذر اليسير الذى ظل محفوراً فى ذاكرته، ومنه هاتان القصيدتان: الأولى بعنوان ثورة كتبها عام ١٩٣٨ وهو فى نحو الثامنة عشرة ويقول مطلعها:

ماذا تريد الزعزع النكباء — من راسخ أكتافه شماء؟
تتكسر الأحداث تحت يمينه — وتميد من صرخاته الغبراء
ويمزق الظلمات عن فجر له — فيه حياة عذبة ورجاء

ويدك بالإيمان كل كـريهـة ... وتمـل مـن أوصـاله الأدواء
ويبيت ينفث قلبه في شدوه ... فلذا تهيم بصوغها الشعراء
في كـفـه قـدر كنين ترتمي ... من حـوله الأهوال والأرزاء
الشوك ياكم داسه مستهزئا ... ومشى تزمجر فوقه الأنواء
والنار يعبرها فتسكن روحه ... لكنهـا في روحـه أنداء
والصعب تمحقه خطاه ولا تني ... تجتـازه ما مسها اعياء

مـاذا تريد الزعـزع النكبـاء ... من راسخ أكتـافه شمـاء؟
سأردها مدحورة مجنونة ... تعوى فتعوى حولها الأجواء
وأعيش كالبركان أقذف من فمي ... حـمـمـا يموت بنارها الأعداء
إني خلقت لكي أعيش وينحني ... من حَولىَ الإصباح والإمساء!
البـاب تقـرعه رياح ملمـة ... مـاذا تريد الزعـزع النكباء؟

وفي القصيدة الثانية صرخة وتعود لنفس العام ١٩٣٨ يقول:

حَتَّامَ أضحك والآفاق باكية ... والشمس تحجبها الأنواء والظلم
والريح قد زأرت في السهل فاختنقت ... بها الأزاهير صرعى وهي تبتسم
والسيل يجرف من يلقاه مزدهرا ... حيا، ويترك من أحرى به العدم
والنار تأكل ما اخضرت منابته ... أما الهشيم فتحمى عمره الرمم
علام أضحك يا ويلاه من زمني ... وشاطئ فوقه الأهوال ترتطم؟
لكنها ضحكة البركان قاذفة ... من قلبي النار أذكى أصلها الألم
إني أقول لهذا الظلم في صلف: ... اشرب دمائي.. واثمل أيها النهم
وخذ.. فهذا فؤادي في يدي قلق ... واشبع.. فهيهات يغشى بهجتي سأم
هيهات تبلغ إذلالي وتخضعني ... إني عتي.. قوي ثائر برم!

وهكذا تشى بواكيره الشعرية بشحنة هائلة من التمرد والثورة على وضعه الخاص وعلى الوضع العام، ورفضه للواقع الاجتماعى برمته، كما تحمل شحنة أكبر من الشوق الإنسانى للتغيير، وإحلال العدالة محل الظلم.

وعلى حد ما يقوله الناقد الكبير غالى شكرى فى مقال له بعنوان الشاعر هو القصيدة بمجلة اليسار العربى كان الاختمار الرئيسى فى الشعر والنقد حينذاك هو أن الشعر صوت صاحبه وليس صوت السلطان، أى أن للشاعر ذاتا تحس وتشعر وتعبر هى النفس أو الوجدان ، أو القلب .. وكانت الأنا أو الفرد هى الخميرة الشعرية الرئيسية

على أن الخميسى حين فرض نفسه شاعراً مغواراً على محافل القاهرة الأدبية عام ١٩٣٨ ، ظل يؤثر نشر قصائده الجديدة فى الصحف والمجلات الأدبية حتى عام ١٩٥٨ ، حيث اقتنع بنصائح أصدقائه لإصدار أول ديوان له واختار له عنوان أشواق إنسان ضمنه تسع من مطولات قصائده، فكان موضع حفاوة النقاد على اختلاف توجهاتهم ومدارسهم الأدبية، إذ رأوا فيه السمة الأساسية المسيطرة على مختلف مراحل حياة الخميسى المتمثلة فى ذلك الشوق النبيل الذى يرفض كل ما هو كائن من ظلم اجتماعى وقهر سياسى، والحلم بما يجب أن يكون عليه المجتمع الذى تسوده العدالة والحرية والحب.. فماذا قالوا:

الدكتور لويس عوض: الخميسى شاعر مفطور لا يصنع شعره ولا يقوله إلا إذا اضطربت به نفسه، ففاضت به فطرته حتى لم يعد يطيق السكوت، وليس معنى هذا أن نفسه لا تهتز لشعر الحياة إلا نادراً، فأنا أعرف الخميسى

وهو صديقى منذ عشرين سنة، وأعرف عنه أن نفسه قطعة حية من شعر الحياة، وأن حياته ذاتها قصيدة عصماء، كثيرة الألوان، ترق أحياناً وتصفو كأنها الغدير الأزرق الرقراق، وتهدر أحياناً كأنها البركان قاذف الحمم، الخميسى صادق حين يقول لقارئه: هذا الديوان.. كل قصيدة فيه مسقية من وجدانى، مورقة برحيق ألمى أو أملى، بدموع يأسى أو فرحى، متوردة بدمى.

انظر مثلاً إلى قصيدته فى الليل التى كتبها عام ١٩٣٨ ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره بعد، ومطلعها:

أسدل الليل يا حبيبى ستوره ومشى فى جوانب المعمورة

كاهناً تخفق الشموع على كفيه حيرى، كأنها مذعورة

هذه القصيدة التى أعدها من أروع ما نظم الخميسى مادة وبناء، بل من أروع ما نظم شعراء العربية فى نجوى الليل، ونجوى الحبيب البعيد، تدور فى الظاهر حول رغبة الشاعر فى بلوغ الحبيب النائى:

أيها الليل!! ليتنى كنت نجماً عائماً فى مياهك الزرقاء

أقطع الظلمة الأتيةَ لهفان إلى مخدع الحبيب النائى

ولكنها فى باطنها تحمل معانى أخرى تصور يأس الإنسان من بلوغ المنى العلوية النورانية لعلة ما فى تكوينه من طين وأوحال.. وحين نقرأ قوله:

أنا أهواك يا ظلام فأطفئ لى دراريك واستمع لنحيبى!

نعرف أن الشاعر يخاف الضياء، ويلتمس خلاصه فى عتمة الليل البهيم الذى انطفأت نجومه، وهو ما عشق الليل إلا لخوفه من مواجهة الحقيقة فى وضح النهار، فالليل عنده بمثابة دثار يتدثر به الإنسان ليخفى عورته، كأنه آدم الخجلان بعد طرده من الجنة، يهرب من النور، ويختفى فى أظلم الكهوف حتى لا يرى ما به من نقص. ثم يشير إلى احتمائه بظلام الليل بأنه هروب من الحقيقة حيث يقول:

وارتياحى إلى الظلام، ويأسى   وحنينى إلى السكون الرحيب

وهروبى من الحقيقة يا ليل   فأترع بخمرة الوهم كوبى!!

ولكن هذا التصور ليس كل الأمور فى الحقيقة، إذ نجدها فى وصف الشاعر محاولته بلوغ الحبيب النائى متقمصاً أجمل ما فى الطبيعة من عناصر وألوان.. نجدها فى قوله:

أيها الليل، ليتنى كنت عصفوراً،   طليقاً مع السنا والهواء
كنت نقرت فوق نافذة المحبوب   أدعوه لاستمع غنائى
ليغنى معى، ويحكم قيدى   بين كفيه راضياً بشقائى
غير أنى يا حسرتا آدمى   قيدتنى أرضيتى فى بنائى

فجوهر الاختيار الشعرى عند الخميسى إذن، هو خلاص النفس الشاعرة فى أغانى السعادة الحزينة، لكنه وا أسفاه حبيس بيت الصلصال، الذى يمنع الروح من الطيران، ويلوث الحب بأوحال الأرض:

غير أنى يا حسرتا آدمى..   قيدتنى أرضيتى فى بنائى!

نعم ليته هواء يجمع العطر من ثغور الأقاحى والرياحين، ويحمل الطيب إلى فؤاد الحبيب، ويمضى فى هذه الأمانى الجميلة كأنه مؤلف موسيقى يعالج تيماً فى مختلف حركات سيمفونية، ويعود دائماً أبداً إلى موضوعه الأصلى:

أيهـــا الليل ليت أنى هواء ســـابح فى حـــديقـــة زهراء

فهذا إذن لب قصيدة عبد الرحمن الخميسى فى الليل، فالحب الحقيقى عنده هو جوهر الروح، وهو من وحدة الأرواح، والشاعر المحب يجتهد فيما يشبه الرياضة الروحية أن يبلغ سماواته الصافية العميقة، ولكن أوصال المادة، وأشواق الجسد تقيد الروح بإسار من حديد، وتحول دون طيرانها إلى الملأ الأعلى، ولهذا التمس الشاعر سكونه وانطلاقه فى الليل، بمثابة الإسراء الشعرى إلى نجم بعيد، والليل هنا ضرورة من ضرورات هذا الإسراء الشعرى، لأن ظلمته تحجب عن الشاعر عورة الجسد، وتمكنه من التوهم أنه روح خالصة حرة من كل إسار دنيوى، وهذا معنى قول الشاعر أن التماس الليل، يتضمن هروباً من الحقيقة، الليل عنده شاعر حالم وساحر يبهر النفوس، وشاد ينصت الوجود لموسيقاه، وعابد محرابه السماء الكبيرة، لأنه يخفى فى ظلمته حرارة الحياة المادية وقذارتها، حتى يحجبها عن النفس الشاعرة، وبذلك تتوهم الروح أنها وحيدة فى هذا الكون، تنتشى نشوة الصوفية، وتغنى غناء الهزار الطليق، وتسبح تسبيح الملائكة، وترف رف النسيم المعطر، وتتحد بالوجود الأعلى كما تشاء..

ويرى د. لويس عوض أن الخميسى هو آخر الرومانسيين فى الأدب العربى الحديث وأنه ورث الرومانسية عن خليل مطران، وأدباء المهجر، ومدرسة أبولو، وتعلم قواعدها على زكى أبو شادى، وصديقه ابراهيم ناجى.

وبينما كانت ثورة الجزائر فى أوجها، كان عبد الرحمن الخميسى يتداعى لها بالمقال أحياناً وبالشعر حيناً، على نحو ما جاء فى قصيدته أبو القاسم الجزائرى، فهو لم يكتب لنا مقالاً منظوماً ـــ كما يقول الدكتور لويس عوض ـــ يدافع فيه عن حرية الجزائر، ولم ينزل إلى أدب الشعارات التى تتحدث حديثاً صاخباً عن الحرية، وتندد تنديداً أجوف بالطغيان، بل جسد كل معانى الإنسانية فى صورة أشخاص وأحداث، ونزل بنا من خواء المجردات الباردة إلى عالم الأحياء الذين ينبضون بالحرارة والحياة!

والقصيدة تروى قصة فلاح جزائرى خرج إلى السوق يشترى لعبة لابنه الصغير، وثوباً جديداً لزوجته ليلى عليه ورود حمراء، وكأنما قصد الشاعر بحمرة الورود بهجة هذا المهرجان الأحمر، وعاد الفلاح قاصداً بيته جذلان فرحاً ورأى اليوم حوله كأن اليوم عيد، ولكن ما إن بلغ باب السوق حتى رأى جنداً كثيرة تعترض الطرقات، وفى عيونهم نظرات المجانين.. يقول الخميسى:

وعلى هاماتهم خوذاتهم.. جند فرنسا

وبأيديهم سلاح خائف يرعش يأساً

وقائدهم يزأر هائجا من حوله سياج:

من مطارق وبنادق

وحديد وحراب ومشانق.. وبيارق

رفرفى بالعار يا أعلامهم.. عار الهزيمة!

وقبض الجند على أبى قاسم، ووضعوه فى الأغلال..

ومزقوا اللعبة والثوب الذى فيه ورود ،

مزقوا أمل الطفل الصغير

وانتظار الأم أن تفرح بالثوب الحرير!

وانقطع الأمل فى عودة أبى القاسم إلى زوجه وولده، فقد حكم عليه بالإعدام جزاء له على جريمته.. وأية جريمة؟!.. أن يخرج إلى السوق ليشترى ثوباً جديداً نقشت عليه ورود حمراء! وهنا نعرف سر هذه المأساة، دون أن يلمح الشاعر بكلمة واحدة: نعرف أن أبا القاسم لم يخرج إلا ليشترى له شيئاً آخر شبيهاً بالثوب الجديد، حياة الحرية التى يخرج البسطاء الجزائريون كل يوم ليشتروها بدمائهم من الفرنسيين فى سوق الجهاد، وهكذا يقول أبو القاسم ووداعاً لمزامير الرياح، وبسمات ليلى البهية كأنوار الصباح، ولأنفاسها العاطرة كأنفاس الإقاح، ولكن الحياة رغم هذا راضية بكل هذه الدماء التى ترويها، لأن نفس أبى القاسم راضية بما تبذل لتروى الحرية:

ين جنبيك تعيش الأرض حبلى بالمصائر

ويطول الشجر الأخضر مطلول الضفائر

والرؤى تنمو.. وتنمو معها كل الجزائر!

وفى الليلة المشهودة يخرجون به فى الليل يمشى فى السلاسل:

كان يمشى رافع الهامة صلباً كالجزائر

ساطع النظرة والبسمة فى قلب الدياجر

وأمرهم قائدهم: أطلقوا سيل الرصاص. فرموه بالرصاص.

وهكذا سقط أبو القاسم، ولكنه هوى.. كنجم يخطف العين سناه

وهكذا مضى أبو القاسم، ولكن بقى على الأرض ظله العملاق، ولهذا يناجى الشاعر زوجته قائلاً:

اخلعى يا ظبية العينين أثواب الحداد

لم يمت زوجك. لكن عاش فى روح الجهاد

إنه ينسف فى الليل حصون الغاصبين

وينادى فى صفوف الثائرين

ويقول الدكتور لويس عوض: هذه قصة أبى القاسم الجزائرى التى رواها لنا عبد الرحمن الخميسى فى شعر قصصى مما يسمونه البالاد فى أدب الغرب، ونسميه نحن الموال فى ريفنا الذى يتقن أبناؤه هذا النوع من الإنشاد

القصصى، فإذا سُئلت: كيف وفق كل هذا التوفيق فى إنشاد هذا الموال الفصيح الحزين، قلت: لأنه عرف مهمة الشاعر ووظيفته فى الحياة، حين عاش فى هذا الوجدان العام، فعشنا معه فى حياة الوجدان العام، وإذا أمعنا النظر فى هذا الوجدان الذى نبعت منه القصيدة، وجدنا أن الحرية رغم عموميتها واشتراك الناس فى الشوق إليها، يمكن أن تتحول إلى تجربة فردية خاصة أشد الخصوص، دون أن تفقد شيئاً من عموميتها وإنسانيتها الشاملة.

فالخميسى قد فعل فى أبى القاسم ما فعله صلاح عبد الصبور بزهران دنشواى، فكل من الشاعرين مجد الحرية وهاجم الطغيان من خلال فرد ساذج، اجتمعت فيه مقومات البطولة دون أن يعرف أن فيه من البطولة شىء، لأن بطولته بطولة عمل صامت ناجح فى مواقف محددة، لا بطولة كلام وهتافات، فتحس معه بأننا إزاء شخصية حية تتفاعل مع الحياة من داخل الحياة بالفعل والحركة والتجاوب العاطفى الطبيعى المفهوم، وبعد أن نعيش مأساة أبى القاسم الفردية التى تستمد قوتها وخصوصها الإنسانى، نتمثل فى الحالتين معنى الحرية ومعنى البطولة، ومعنى الجهاد، وما إلى كل ذلك من معان يهتز لها الوجدان العام، وهذه حيلة من حيل الأدب القصصى والأدب المسرحى، وكل أدب يعتمد على الحدث، وهى التعبير عن الاختبار الإنسانى العام بالاختبار الإنسانى الخاص الذى يرى الحياة فى وجه من وجوهها.. فمن عرف هذه الحيلة من الأدباء فهو بغير حاجة إلى مرشد أو دليل!

ويكتب الشاعر الكبير أحمد عبد المعطى حجازى فى ٩ يوليو ١٩٦٢ مقالا بمجلة روز اليوسف يفسر فيه العلاقة بين الوجدان العام والخاص فى شعر الخميسى قائلا:

عبد الرحمن الخميسى لم يفكر فى إصدار كتاب يجمع شعره إلا من أربع سنوات عندما أصدر ديوانه الأول أشواق إنسان، و لم ينشر أروع قصائده إلا منذ أيام عندما أصدر ديوانه الثانى دموع ونيران . هذا الديوان الثانى هو الذى أقنعنى بأن الخميسى شاعر كبير.. إن الديوان يضم نحو خمسين قصيدة بعضها فى الوطن، بعضها فى الحب، وبعضها فى الطبيعة، وبعضها فى الرثاء، ورغم تعدد هذه الموضوعات إلا أن هناك فكرة واحدة تشملها فتحس بأن للديوان موضوعا واحدا.. هو تمجيد استمرار الحياة!

إن الشاعر فى هذا الديوان يغنى وهو فى قمة نشوته لتجدد الحياة واستمرارها وخلود الطبيعة والعناصر والألوان.. ولكنك تحس أن ثمة كآبة رقيقة تشوب هذه النشوة وأن دموعا حيية تسيل على الوجنة المبتسمة.. فالحقيقة التى لا تغيب أبدا عن بال الشاعر هى أن خلود الحياة لا يعنى خلود الذات.. إن الحياة خالدة حقا.. ولكننا سنموت

أنا هالك.. وترابك الباقى

ولن يطوى عظامى غيره ودمائى!

هذا ما يقوله عبد الرحمن الخميسى لمصر..

والظاهرة التى تستدعى التوقف أن معظم شعره الوطنى هو فى نفس الوقت شعر رثاء.. إنه يرثى عزيز فهمى، ويرثى مصطفى كامل، ويرثى

الزعيم السودانى على عبد اللطيف، إنه يرى فى قصص موتهم هذا العناق الرائع بين الفناء والخلود، ويرى ذوبان الجزء فى الكل، وعودة القطرة إلى البحر العظيم.. وهو من خلال رثائه لهم وتأمله لقصص حياتهم يصل إلى اكتشافات فى الشعر والحياة من أروع ما اكتشفه الشعراء من قبل. يقول فى رثاء عزيز فهمى:

قد كان عاصفة على الباغى.. وفى

أيدى الضحايا كان زهر الياسمين

إن العواصف كالزهور: قصيرة

آجالها.. لكنها فوق المنون !

هذه العلاقة بين العاصفة والزهرة لا يكتشفها إلا شاعر كبير.. إنها علاقة لا تخطر على بال، ومع ذلك فما أوضحها فى أذهاننا بعد أن اكتشفها لنا هذا الشاعر الذى لم يكن فى مقدوره أن يصل إلى ذلك لو لم يكن يملك هذه الفكرة العامة التى تريه كل شىء من خلالها، وتمكنه من تحويل التجربة الذاتية إلى تجربة عامة يحسها القراء جميعا، ومن تحويل الموضوع العام الذى نصادفه فى حياتنا اليومية إلى موضوع خاص يحس كل قارئ أنه تجربته الشخصية..

بهذا النجاح فى الربط بين العام والخاص لم يصل إليه كثير من الشعراء الرومانتيكيين الذين ينتمى الخميسى إلى مدرستهم.. والذى يقرأ أشعار إبراهيم ناجى مثلا يجد فرقا شاسعا بين أشعاره الوجدانية وأشعاره فى المناسبات العامة..

وقد ساعد الخميسى على الوصول إلى هذا النجاح أنه كان يختار المناسبات التى يقول فيها الشعر.. كان يختار ما يهز وجدانه .

ويقول الناقد الكبير د. محمد مندور بهذا الصدد:

أعترف بإخلاص أن عبد الرحمن الخميسى قد بلغ بشعره حد السحر كلما تحدث عن ذاته وأشواق روحه وآماله وآلامه كإنسان.. أى سحر فى هذا الشعر؟ وأية عذوبة فى موسيقاه ذات المدات الطويلة امتداد الشجن، وأى قوة ونفاذ فى بناء تعبيره، ورسم صوره المنسجمة الجميلة، رؤية شعرية واضحة محددة لأنها رؤية صادقة، وأى تركيز شعرى فى الأحاسيس التى يزخر بها هذا الشعر! ألا حيا الله تلك العبقرية الصادقة التى وهبها الله للشاعر فتعزى بها واعتز عن كافة محن الحياة!

وكان الخميسى لا يستملح تجارب الشعراء الشبان حين يبدأون تجربتهم بالشعر الحديث، إذ كان يرى البدء أولاً بالشعر المقفى الموزون باعتباره الأساس الذى ينبى عليه، وبعد أن ترسخ أقدامهم فى هذا الدرب لهم ما يشاءون من تجارب وقوالب الشعر الحديث، كذلك كان لا يستطيب سماع المطربين الجدد قبل أن يتستوعبوا تراث الموسيقى والغناء الشرقى وتنمو موهبتهم فى الارتجال وخاصة الموال، ومثاله فى ذلك الموسيقار محمد عبد الوهاب الذى جاء ولوجه إلى الحداثة والتحديث، بعد أن وعى بتراث الأقدمين من ألوان التواشيح والأدوار، وقد وجدت فى أوراق الخميسى وبخط يده قصيدة من الشعر الحديث، يقول فيها: نظمت هذه القصيدة بوم ٢٢ مايو عام ١٩٧٦ خلال خمس عشرة دقيقة فقط، وقد عيّن صديقى أبو

بكر يوسف موضوع القصيدة وعناصرها شفاهة على حد رجائى له، والغرض من تلك التجربة أن أثبت له، أن الشعر الحديث كما يصنع العديد منه اليوم لا ينتمى كثيره إلى الإبداع الفنى..

يقول فى قصيدته:

يا مصر وجهك فى فؤادى لا يغيب

يحيا بأحلامى، كأروع ما يكون الحلم سحراً

أمشى وصوتك فى دمى نغمٌ حبيب

وأرى بعينيك الدنى ليلاً وفجراً

وأفيق! لا أنا فى حماك ولست قربى

لكن تلقتنى كما الأمواج أشواقى وكربى

طال حنينى فما صنعت مع إغترابى

لكأننى أحرقت عمرى فى يباب

وحدى يضيّعنى يمزقنى الشتات

وحدى وهذا الكون من حولى رفات

وحدى وتأكلنى الملالة كالوحوش

لم يبق منى غير إرماق توقد فى ضلوعى!

هتفت بمصرة تمهلى.. هذا نجيعى!

رحماك يا ساحرة العينين والشفتين

رحماك يا عوداً من البان الخضير

يا لفتة الأمل النهيج إلى المكبل والأسير

أنا تحت عينيك، الطفولة عشتها خضراً

وبظلك الممدود كم أنفقت من أيام سعدى

وعلى ثراك الطاهر الريان بالذكرى

خلفت أحبابى وأقرانى وتاريخى وعمرى

أحيا بأرماق يرويها الأمل

ويشد عزمى كالبقية فى شرايين الأجل

أملاً بأن ألقاك يا أمى الحبيبة

يملا ظلالى بالسنا ويهون السفر الطويل

يبقى على عمرى الحنين

ألا أموت سوى بأرض النيل مهد الخالدين

ومع أن الخميسى شاعر فى الأساس إلا أن إبداعه فى مجال القصة لا يقل أهمية، والمقصود هنا القصة القصيرة تحديدا، لأن الخميسى لم يترك أثرا روائيا طويلا. وقد اعتبر يوسف إدريس فى تقديمه لمجموعة قمصان الدم التى نشرها الخميسى عام ١٩٥٣ أن: القصة القصيرة قبل الخميسى كانت

وقفا على طبقة معينة من الناس يكتبونها، وطبقة معينة يقرأونها. وكان من أدوار الخميسى الخطيرة أن حطم طبقية القصة فأصبح كل ذى تجربة يكتب، وكل ذى حياة يقرأ، وصار البقال والكمسارى والصراف والبواب من قراء القصة المصرية.وكذلك اتجه المثقفون إلى حياتنا فى قصصه .

وإذا كان عبد الرحمن الخميسى هو آخر الرومانسيين فى الشعر العربى الحديث على حد تعريف الدكتور لويس عوض، فإن تلك الرومانسية نفسها لم تفارقه فيما بعد عندما اقتحم السياسة فكان أقرب إلى الإشتراكيين الرومانسيين كما كان حال أستاذه سلامه موسى، ورافقته هذه الروح نفسها عندما عالج القصة القصيرة. يقول الدكتور سيد حامد النساج في كتابه اتجاهات القصة المصرية القصيرة أن القصة القصيرة الواقعية توارت طوال الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، وحل محلها اتجاه رومانسى سيطر على وجدان كتابها. منهم من اكتفى بالتعبير عن طبقته البرجوازية وتمجيدها كما تمثل ذلك فى قصص محمود كامل وإبراهيم ناجى ويوسف جوهر وصلاح ذهنى ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس وغيرهم، ومنهم من زين لقصصه القصيرة عالما حالما قائما على ركائز فردية بحتة بعيدة كل البعد عن عالم الواقع.. أما كاتب القصة الذى يعتبر مثالا للرومانسية الثورية التى لم تحل دونه ودون نقد الأوضاع الطبقية والوقوف مع المظلومين ضد الظالمين.. فإنه عبد الرحمن الخميسى فى قصصه القصيرة التى كتبها فى المصرى ثم فى كليوباترا، والجمهورية منذ أواخر الأربعينيات حتى الستينيات، مما جعل رومانسيته تحمل هذا الطابع الثورى الايجابى متأثرة بحركة المجتمع.. وليس معنى هذا أن عبد الرحمن الخميسى لم يكن يستند

إلى أرضية فكرية معينة، فإنه من أوائل الكتاب الذين كانوا يعتنقون الفكر الاشتراكى ويمثلون الجناح اليسارى داخل إطار حزب الوفد، وظلوا على ولائهم لبعض الأفكار التقدمية.. وكانت كتابات هذه الجماعة تدل على أنهم يؤمنون بالتغيير الجذرى الشامل لجوانب المجتمع بأسرها.. وكانت تكشف عن وعى بالمجتمع والقوى المتصارعة فيه، وأن ثمة قوى قاهرة ظالمة.. ومعروف أن هذه القوى كانت تتجسد فى الإقطاع وسيطرة رأس المال وطغيان الملكية والاستعمار..

وفى قصص الخميسى نلمح مزيجا متحدا من شعره الرومانسى الذاتى، وحياته القاسية الصعبة، وقراءاته، وانتماءاته الفكرية. وقد دفع الحرمان والفقر عبد الرحمن الخميسى إلى مواجهة المشاق بمفرده، وشقى بصنوف من الأعمال فى فترة باكرة من حياته اعتبر نفسه فيها أحد المشردين الذين كانت تعج بهم مصر الإقطاعية شبه الرأسمالية.. وقد جعلته هذه الحياة الشقية يستشعر حقيقة المأساة التى تعيشها الطبقات الفقيرة فى أدنى السلم الاجتماعى المصرى، مما جعله يزداد إيمانا بضرورة البحث عن حل جذرى يستهدف إتاحة الحياة الكريمة والعدالة الاجتماعية. ولهذا كان الخميسى ملتزما بالتعبير عن أمانى الناس، ولذلك نجده يدافع عن هذه الفكرة ويتحمس لربط الأدب بالشعب فى مقال بعنوان الأدب للشعب قائلا:

إن الأدب الذى يريد الشعب أن يقرأه هو كل ما يتصل بالناس، يوحى بالنضال من أجل المستقبل، ويحارب استثمار الإنسان لأخيه الإنسان، ويعلم كراهية الظالمين ويحرك أحقاد المظلومين.

ودور الخميسى فى القصة القصيرة بهذا المعنى الذى تحدث عنه الدكتور سيد النساج هو دور تنويرى، حطم على حد قول يوسف ادريس — طبقية القصة عشية ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فكأنه كان من الممهدين للثورة المبشرين بها.

ويؤكد الدكتور على الراعى أن الخميسى قد دار ببصره فيما حوله فى الأربعينيات فوجد الغالبية العظمى من الناس لا تتمتع بالحياة، وإنما تشعر فقط برغبة جامحة فى أن تحيا وأن تتمتع، وأن يكون لها المسكن والعمل والصدر الحنون، فلا تجد من هذا كله شيئا.. وإنما تجد غصة فى الحلق لغياب هذا كله.. وتشغل هذه الغصة بال الخميسى فيكتب عنها أحسن قصصه وأكثرها إنسانية النوم قصة الآدمى الذى يحب الحياة حبا عميقا مؤثرا، وفى الوقت نفسه لا يجد حتى مكانا ينام فيه، ويكتب عروس أبو الفوايد ، وقصة أمينة الخادمة الطموح التى تنتهز فرصة غياب سيدتها فلتبس ثوبها الجميل وتجلس إلى مرآتها.. وغير هؤلاء كثيرون.. الفتى الأعرج في كومة اللحم والعاهرة نبوية وحنفى فى ماذا صنعت يا حنفى .. يجد الخميسى هذه النماذج كلها حوله، فيحزن لها، ويكتب عنها.. وقد كتب الخميسى قصة أفران الموت عام ١٩٥١ كى يحرض العمال المصريين على ترك أعمالهم بقاعدة قناة السويس التى كانت تخدم الاستعمار البريطانى.. وهناك قصة خاتم الحق وتعد أبلغ رد على أولئك الذين يقولون أن قصص الخميسى السياسية دليل على نقص كفاياته الفنية، حين كتب الخميسى هذه القصة كان الملك فاروق ممتطيا حكم مصر، كاتما أنفاس الشعب المصرى، ولهذا لم يكن الخميسى يملك كتابة الأدب الجهير، فراح

كفنانين ثوريين من قبله يستبطن ثورته على الطغيان.. فكتب أسطورة شعبية استوحى مادتها من إرهاب الملك فاروق وجعل هذه المادة عروسا من عرائس الحياة، فكانت النتيجة قصة سياسية رائعة عميقة المضمون، وبهذا حققت أسطورة الخميسى الهدف..

ويعتبر الناقد محمود أمين العالم فى مقال له بمجلة القاهرة فى يونيو ١٩٨٧ أن الخميسى فى قصصه لا يخفى اختياره الجهير الصريح للموضوعات الوطنية والاجتماعية ومعالجته لها معالجة واقعية مباشرة مما يكاد يجعل منها فى بعض الأحيان منشورا ثوريا تحريضيا ضد الظلم والقهر والفقر . لكن العالم يفسر ذلك الموقف الحاد فى التركيز على الموضوع الاجتماعى الخارجى بموقف حاد آخر اتخذته الحركة السيريالية فى مصر التى اعتبرت أنه لا شئ غير نافع مثل الواقع كما جاء فى بيان جورج حنين عن اللا واقعية !

وقد أخذت مجموعات الخميسى القصصية تتوالى فى الصدور بدءا من مجموعته الأولى من الأعماق ثم صيحات الشعب فى نوفمبر ١٩٥٢، و رياح النيران فى نفس العام، ثم قمصان الدم مارس ٥٣، و دماء لا تجف فى نوفمبر ١٩٥٦ ، والبهلوان المدهش أكتوبر ١٩٦١ ، وأخيرا أمينة وقصص أخرى عام ١٩٦٢ وكانت تلك آخر مجموعة قصصية له، فلم يعد إلى هذا اللون من الفن.

الأرملة الطروب ومهر العروسة

فى أوائل عام ١٩٥٨ وبدايات عام ١٩٦٠ اتجه الخميسى عشية فراقه مع للقصة القصيرة إلى المسرح، أو لعله هجر القصة بسبب المسرح، فأنشأ فى ٢١ مارس ١٩٥٨ فرقته المسرحية وكتب فى الإشعار المقدم منه إلى مصلحة الضرائب ديباجة قال فيها: كون الأستاذ الأديب عبد الرحمن الخميسى برئاسته وبعضوية نخبة ممتازة من صفوة هواة وهاويات طلبة وخريجى الجامعات والمعاهد فرقة مسرحية مقرها شارع الجمهورية رقم ٥ قسم عابدين وتسميت باسمه وغرضها رفعة شأن المسرح العربى بتمثيل المسرحيات الهادفة ، وكتبت الصحف فى أغسطس ١٩٦٠ أن الستار سيرتفع الموسم القادم عن فرقة جديدة بدأت عرضها الأول على مسرح ٢٦ يوليو الصيفى بثلاث مسرحيات قصيرة من تأليف الخميسى وإخراجه وتمثيله وهى الحبة قبة، والقسط الأخير و حياة وحياة . ثم قدمت مسرحية عقدة نفسية المترجمة عن رواية فرنسية باسم عقدة فيلمون كتبها جان برنار لوك واقتبسها للمسرح الانجليزى جون كلمنتس وسماها الزواج السعيد وقدمت للبرنامج الثانى بالإذاعة ثم مصرها أحمد حلمى لفرقة الخميسى.

وعندما قدمت الفرقة عرضها الأول كتب سعد الدين وهبة يقول:

افتتاح مسرح جديد لا يقل فى نظرى أهمية عن اقامة مدرسة أو مسجد أو مستشفى.. بهذه المعانى كان إقبالى وكانت فرحتى بالمسرح الجديد الذى أقامه الخميسى.. ويقدم عبد الرحمن ثلاث مسرحيات قصيرة (الحبة قبة ـــ القسط الأخير ـــ حياة وحياة) وكل موضوعاتها جميعا تنبع من مجتمعنا المعاصر ومن مشاكله.. وقد كتب الخميسى هذه المسرحيات الثلاث وأخرجها وقام بالدور الرئيسى فى كل منها، ومن هنا كانت نقطة الضعف التى هاجمه النقاد فيها..

ولكن فات أولئك النقاد أن يحسبوا حساب امكانيات الخميسى وهو يواجه هذه التجربة القاسية وحده.. فاتهم أن الخمنيسى رجل لا يملك إلا قوت يومه ولا يقف من خلفه ممول ولا مؤسسة ولا فاعل خير.. فهو لا يملك أجر مسرحيات يكتبها غيره من الكتاب الذين يمكن أن يقبل الجمهور على مسرحياتهم.. كما أن الخميسى لا يستطيع أن ينفق عن سعة فيلجأ إلى الممثلين المحترفين الذين يعيشون من كدهم.. ورغم ذلك فقد قدم الخميسى شيئا جديرا بالمشاهدة.. جديرا بالتهنئة .

ولكن لأن القديس طائر لا يحتمل البقاء طويلاً على غصن واحد، سرعان ما هجر تجربته المسرحية وفرقته قبل أن تنضج وتكتمل إلى خوض تجربة جديدة فريدة فى المسرح الغنائى، مؤكدا أنه فنان متعدد المواهب اقتحم كل الفنون وكان له فى كل منها باع يذكر، ومصداقاً لما سبق أن قال كامل الشناوى من أن شعار الخميسى هو عش دائما فى قلق.. فوق فوهة البركان .

ولا يمكن بعد أن توقفنا عند دور الخميسى فى الشعر والقصة والمسرح أن نتجاهل دوره الخاص والمتميز للغاية فى المسرح الغنائى وهو دور ريادى بحق. فقد توقفت تجربة المسرح الغنائى المصرى بوفاة خالد الذكر سيد درويش، ولم تتجاوز محاولات محمد عبد الوهاب حدود تلحين المشاهد الحوارية القصيرة، وكان مطلب تطوير المسرح الغنائى مطلبا ملحا فى الستينيات، وبدا أن مفتاح ذلك التطوير هو فى البدء بتعريب المسرحيات الغنائية الأوبريتات العريقة. وهكذا ارتبطت هجرة الخميسى لفرقته المسرحية باتجاهه إلى تعريب الأوبريتات وكتابتها، وانتابته حمى فنية جديدة هى الأوبريت فقدم أولا الأرملة الطروب عام ١٩٦١ للموسيقار المجرى فرانز ليهار وتأليف فيكتور ليون بالاشتراك مع ليوشتين .. ولاقت الأرملة الطروب نجاحا وتقديرا كبيرين وهى الأوبريت التى لحنها فرانز ليهار عام ١٩٠٥ وعرضت فى نفس العام فى فيينا، وبعد ذلك فى عواصم العالم مترجمة.. ويقول الناقد فرج العنترى فى مجلة الشهر بعد عرضها بأسبوعين: وآية المعجزات فى هذه الأوبريت مجهود عبد الرحمن الخميسى باعتباره همزة الوصل العربية لإيصال مضمون القصة الأوروبية إلى سمع المواطنين.. كانت عليه مسئولية تفصيل الكلمات العربية على مقياس ما لحنه فرانز ليهار الموسيقى المجرى وكان عليه أن يقص أن هناك أرملة ذاع مرحها وثراؤها فتهافت عليها طلاب الزواج طمعا فى ملايينها وأنها قامت برحلة سياحية إلى باريس تلهو وتمرح.. إلى أن يضع فى طريق الأرملة فارسا وسيما يتزوجها.. وقد نجح الخميسى واحتل عندنا مقام الصدارة بين رواد ترجمة الروائع فاستحق التهنئة مثنى وثلاث ورباع ولعله يواصل ، وكتب سعد كامل أن الأرملة الطروب:

ومع ذلك اعتبر مدحت عاصم فى مجلة الكواكب أن الإفتتاحية خالية من حيوية وخفة الأوبريت، وليس فى الموسيقى لحن أساسى، أغنية البداية ذكرتنى بالفولجا الروسية لا بالصيادين فى بلادى، التوزيع الموسيقى وانخفاض المقامات اللحنية حجبت صوت البطل، شريفة فاضل أجادت دور بنت البلد أغانيها طرب تخت.. الموضوع خواجه يستغل المكافحين من صيادى القرية ثم ينتصرون عليه وتعود البطلة للبطل فى التبات والنبات. رجوت لافتتاح موسم الأوبريت موضوعا أكثر جدة وتفاعلا مع حياتنا، وتطلعا للمستقبل لا نبشا فى الماضى البغيض . وكتب السعدنى فى يناير ٦٤ بصباح الخير أن الخميسى المؤلف الفنان عالج المشكلة علاجا نصفه فنى ونصفه مباشر، وتعثر فى الفصل الثالث فلم يظهر على الصورة العظيمة التى ظهر بها الفصل الثانى وهو أروع الفصول.. وستظل مهر العروسة هى المفتاح السحرى الذى فتح أبواب المسرح الغنائى.. أما الخميسى فقد أثبت من جديد أنه طاقة فنية رهيبة وأنه كشاف فنى هوايته الوحيدة ارتياد كل أرض جديدة فى دنيا الفنون.. وأثبت أن النضج الفنى للفنان يبدأ بعد الخمسين وكتب فؤاد دوارة بمجلة المجلة يقول عن مهر العروسة: لو أن أهل العروس قدموها إلينا فى شئ من التواضع والخفر شأن كل الفنانين الأصلاء لكان من حقهم علينا أن نتغاضى بعض الشىء عما فيها من قصور.. لكنهم أسرفوا أشد الإسراف فى تقدير جمال عروسهم.. قصة الأوبريت غاية فى السذاجة فهى تقدم لنا مجموعة من الصيادين فى بورسعيد يخضعون فى استسلام كامل لاستغلال تاجر فرنسى يدعى سيمون يشترى كل صيدهم بأبخس الأثمان، ويقدم لهم المخدرات والبضائع المهربة

معقول أكلت خمس بقرات؟

أواخر عام ١٩٧١ لاحظت وغيرى من أصدقاء القديس كم هو حائر مبتئس، كأن شاغلا عظيما أو مشكلة عويصة تأخذه منا، كان قليل الحبور ضنيناً بالضحكات عازفا على غير عادته عن الحوار والمشاكسة.. كأنه يبيت لأمر ما يحتشد له ويتأهب لإنجازه قبل فوات الأوان. قرر الطائر الحبيس أن ينطلق، أن يهرب بعيدا عن معشوقته مصر.. كان ذلك فى أعقاب رحيل الرئيس جمال عبد الناصر وولاية أنور السادات الذى أصدر قراره بإعادة الخميسى وغيره من الكتاب والصحفيين إلى أعمالهم بعد قضائهم فترة من الوقت فى مؤسسات لا علاقة لها لا بالكتابة ولا بالقراءة، فكان نصيب الخميسى والناقد أحمد عباس صالح الانتقال إلى وزارة التموين ومؤسساتها. هكذا عاد الخميسى من وزارة التموين إلى عمله كاتبا بجريدة الجمهورية، وتوقعنا بذلك انفراجا لأزمة معنوية ظلت تؤرقه، وباعدت بينه وجمهور قرائه والمعجبين به، لكن الأزمة أخلت مكانها لأزمة أشد وطأة على نفسه وفكره وضميره. ذلك أن الخميسى لم يصدق حرفا واحدا من وعود أنور السادات بإطلاق الحريات والديمقراطية،

فى الحملة التى كانا يشنانها آنذاك على ما كان يسمى مجموعة مراكز القوى، وسألنى بتلقائية: تفتكر أكتب؟ وهزنى أن رجلا فى مقامه وعمره ومكانته يمكن أن يستشير مثلى، وترددت لحظة، كان الخميسى أيامها مفلسا وكان قد ترك عمله فى جريدة الجمهورية قبل سنوات، ونقل إلى وظيفة شكلية هى مدير مكتب الصحافة بوزارة التموين، ولم يكن بشكل ما من المقبولين من المجموعة التى جاء الشرقاوى وموسى صبرى يقنعانه بالانضمام إليهما فى الهجوم عليها.. وحين تركته، لم يحاول استرداد الكتب التى كان قد طلبها، ولم يكتب حرفا واحدا.. وهكذا وجد الخميسى نفسه ذات يوم من بداية حكم السادات يغادر مصر ليظل بعيدا عن مواطن غنائه ومصادر إلهامه

ومضت فترة كان الخميسى خلالها يتحين الفرصة المناسبة للاشتباك مع السادات ولو بشكل غير مباشر، حتى بدأ الأستاذ محمد حسنين هيكل يكتب سلسلة مقالاته الشهيرة فى الأهرام تحت عنوان اللا سلم واللا حرب ، وأشرع الخميسى قلمه يرد عليه بسلسلة مقالات أخرى فى الجمهورية تحت عنوان المخطط الفكرى الإمبريالى أدان من خلالها توجه السادات لإعداد المناخ وتهيئة الظروف لعزل مصر عن الاتحاد السوفيتى حليفها الوحيد آنذاك، وفى حقيقة الأمر فإنه لم يسبق لأحد فى تلك السنوات أن رد على محمد حسنين هيكل فى الصحافة المصرية ذلك الرد العنيف غير المسبوق، وأثارت تلك المقالات ضجة وجدلا واسعا بين أوساط المثقفين حتى قرر الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام وقف نشرها، وهاج الخميسى وماج وأرسل عدة برقيات احتجاج للرئيس أنور السادات ولرئيس

الوزراء عزيز صدقى فى ٩ يوليو ١٩٧٢ قال فيها: ومن حق المفكرين والكتاب أن يطالبوا بقسط من حرية الحركة التى يتمتع بها الأستاذ هيكل فى نشر مقالاته، إن الحرية الممنوحة له تحرمها الرقابة على غيره، لقد كتبت مقالة أرد بها على مقالات الأستاذ هيكل فارتعشت فرائص الرقابة، دعما للمزيد من تفرده واستشرائه.. . وسجل الخميسى فى أوراقه الخاصة ملاحظة بأن هذه البرقية أرسلت بذلك التاريخ برقم مسلسل ٩٢ من مكتب بريد شارع عدلى بالقاهرة!

والحقيقة أن الخميسى غاب عنه ــ وذلك كان مطلوبا لذاته ــ أن مقالات الأستاذ محمد حسنين هيكل كانت جزءا لا يتجزأ من خطة التمويه الاستراتيجى على مفاجأة العبور ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣، إذ كانت تستهدف فى الأساس توجيه رسالة إلى إسرائيل ذات مغزى ودلالة على حالة اليأس والإحباط الشعبى والاسترخاء العسكرى، مما يستحيل معه ــ ظاهريا ــ على مصر أن تبادر إلى رد اعتبارها وتجاوز نكسة يونيو ١٩٦٧ بشن هجوم عسكرى على إسرائيل.

على أن الطامة الكبرى وقعت عندما قرر السادات طرد الخبراء السوفيت وكانوا على حد تقدير الخميسى يمثلون عماد استعادة مصر عافيتها العسكرية، وقد قاموا بهذه المهمة خير قيام على حد اعتراف السادات نفسه، عندما أشاد بدور السوفييت فى تعويض مصر عما فقدته من سلاح وعتاد فى حرب ١٩٦٧ بأسلحة أحدث وأكثر فاعلية وخاصة بناء حائط الصواريخ المضادة للطائرات الإسرائيلية إثر قصفها منشآت حيوية فى نجع حمادى،

وشبه السادات هذا الموقف الشهم بصينية العشاء التى يقدمها الجيران فى الريف ليلة العزاء فى فقيد لديهم، ولم يكتف بالإعلان عن استنكاره كتابه، لكنه أبان بصراحة أشد عن موقفه فى سهراته، إذ كان يرى أن العلاقة مع الاتحاد السوفيتى ضرورية لمصر على المدى البعيد، واستنكر أن يطرد السادات الخبراء السوفيت شر طردة على الملأ وكأنه جزاء سنمار.

وعلى ما يبدو فإن المخبرين فى زى آخر، ومهن أخرى، قد نقلوا ما يردده الخميسى فى سهراته، فإذا بالمخبرين يظهرون سافرين وبشكل مفضوح عند نواصى منزله بشارع عدلى ولاهم لهم سوى معرفة المترددين على بيته والتقاط أرقام سياراتهم فى الوقت الذى ترامى فيه إلى سمع الخميسى أن الفريق محمد صادق وزير الحربية آنذاك قد انتقد مقالاته بشدة فى أحد اجتماعاته مع كبار الضباط وطالب بوقفه عن الكتابة..

بيدى لا بيد عمرو، قرر الخميسى أن يريح ويستريح، أن يفلت بجلده قبل أن تقع الطوبة فى المعطوبة، فأخذ يشيع بمناسبة وبدون مناسبة أنه يعتزم اخراج فيلم جديد باسم فانتزيا فى ربوع لبنان، وسوف يشارك فى إنتاجه وتمثيله فنانون لبنانيون، وأن عملية التصوير قد تستغرق شهورا. وانتظر رد الفعل. وعندما قرر السفر فوجئ بوزارة الداخلية تمنع ابنه أحمد من السفر معه، ولما أكد الخميسى لهم أن ابنه هو المكلف بكتابة حوار الفيلم، طلبوا منه التوقيع على إقرار بضمان إعادته لمصر.. ووقع الخميسى، وعاد ليقول لأحمد: جعلونى ضامنا لعودتك مع أن الضامن نفسه غير مضمون!

ولم يدر فى خلد أحد حينذاك أن بوسع الخميسى الهجرة فى هذه السن، والتخلى عن شقته وعن شركته الفنية للسينما مصدر الدخل شبه الوحيد لأسرته الكبيرة.. ولم يتصور أحد أن باستطاعة هذا الرجل تغيير نمط حياته وعوالمه وأصدقائه ومريديه هكذا بضربة واحدة، أن يبتعد عن مصر ويستبدل بها الإقامة والعمل فى غيرها ولو لفترة، لم يكن ذلك ليخطر على بال أحد.

وكان على الخميسى أن يرتب أوضاعا كثيرة قبل السفر، أن يدبر بعض المال لأسرته، وأن يسدد ديونه المتناثرة فى معظم أكشاك السجائر فى وسط القاهرة، ولدى كل محلات الكباب التى كان يقيم بفضلها الولائم لأصدقائه، وكان محل شعراوى للكباب بشارع التحرير أهم الدائنين، إذ بلغت ديونه نحو خمسمائة جنيه وهو مبلغ ضخم حينذاك، وبينما كان الخميسى مشغولا فى جمع أوراقه وكتبه التى قد يحتاجها فى غربته ظل يفكر ويضحك بصوت عال: بس أعمل إيه فى شعراوى ده؟ خمسميت جنيه يا راجل؟ معقولِ أنا أخذت على الحساب كباب بخمسميت جنيه؟ ثم ينظر لمن حوله ويقول: يعنى أنا أكلت خمس بقرات؟ إمال مش باين على يعنى؟!

أخيرا اهتدى إلى حل.. أن ينسى عم شعراوى تماما وقتئذ، مادام عاجزا عن سداد الديون، على أمل أن يأتى الغد ويحلها ألف حلال، لكن عم شعراوى لم يهنأ له بال.. فظل يطارد الخميسى بخطاباته أينما ذهب.. من بيروت إلى باريس، ومن بغداد إلى موسكو، حتى حصل على ثمن آخر كيلو كباب فى ذمة أو معدة الخميسى!

والعجيب أن شعراوى لم يكن يشير فى خطاباته إلى الدين صراحة، وإنما كان يعبر عن حزنه الشديد لغياب الخميسى وشوقه إليه! فقد كان مجرد وجود الخميسى فى المحل من وقت لآخر سببا فى شهرته ورواج بضاعته.

ثلاثة فقط من أصدقاء الخميسى على حد علمى كانوا يعرفون بموعد سفر الخميسى: محمود السعدنى، ومحمد عودة، وكاتب هذه السطور حين ودعناه للمرة الأخيرة فى شقته بشارع عدلى، وبعد ساعات كانت زوجته السيدة شفيقة وأولاده الكبار يساعدونه على إغلاق صندوقين كبيرين من الحديد، ضما ملابسه وكتبه وأوراقه وقصصه التى لم تنشر بعد.

ومن فوق الباخرة فى ميناء الإسكندرية لوح لهم هو وابنه أحمد تلويحة الوداع.. وظل ساهما وهو يلقى النظرة الأخيرة على مصر، وكانت لوعة الفراق قد حركت شجونه فكتب بعدها يقول:

أحبائى بمصر

تقاسموا فى السر أشواقى

فإن عساكر السلطان

يمشون بأطواقى

ألا يا حزن القلب

كيف لم تقنع

بأن تجعل أيامى فنادق؟

وأن تقذف بى

عبر البواخر والموانى

والمطارات البعيدة والمنافى

والقطارات الغريبة والمدائن والخنادق؟

أسافر فى الزمان وغربتى عجب

ومصر تعيش بقلبى حرائق..

وما بيدى أطفئ من لهيبى

فكم علق لى حبى المشانق،

أظل أحب وجهك يا بلادى

ولو أصبحت فى صدرى بنادق!

هكذا رحل. أولاده أمامه على رصيف الميناء، ومصر تترامى فى مخيلته وتتلاشى معالمها تدريجياً على امتداد البصر.. دون أن يدرى ما الذى يخفيه له الغد، بل دون أن يدرى إلى أين ينتهى به المطاف..

سيارة أمريكاني هدية من صدام حسين

كانت الباخرة فى عرض البحر فى طريقها من الاسكندرية إلى بيروت ولم يكن الخميسى وابنه أحمد قد تناولا إفطارهما بعد، بينما كان بوفيه الباخرة مفتوحا لمن يشاء من الركاب، عامرا بما لذ وطاب من الطعام والشراب، وسأله أحمد: وبعدين يا قديس.. موش ح نغير ريقنا برضه ولا حتى نشرب كباية شاى؟ نظر الخميسى إلى البوفيه ساهماً وقال: والله يا ابنى ما معايا مليم واحد، وأصاب أحمد الفزع وسأله: ازاى؟ قال: آخر فلوس كانت معايا دفعتها للشيالين.. ما تقلقشى!.. عاد يسأله: والصناديق اللى وزنها كذا طن مين ح يشيلها لما نوصل بيروت؟.. قال فى حسم: تفرج!

فى التاسعة مساء أغلق البوفيه أبوابه، وعندئذ نهض الخميسى وقال فى ثقة: الآن جاء موعد شرب الشاى، فنظر إليه أحمد متعجباً وقال: لكن البوفيه قفل؟ وقال الخميسى وهو يتقدمه فى نشاط وحيوية: ما هو أنا كنت منتظر لما يقفل، ومضى الخميسى حتى وصل إلى غرفة قبطان الباخرة وقدم نفسه إليه: عبد الرحمن الخميسى! فتهلل وجه القبطان مرحباً: أهلاً وسهلاً

يا أستاذ عبد الرحمن.. معنديش فكرة انك مشرف معانا.. موش كنت تبلغنا عشان نقوم بالواجب برضه؟ فقال: يا سيدى كنا عاوزين نشرب شاى وناكل حاجة خفيفة.. رحنا البوفيه لقيناه قفل.. طيب نعمل ايه.. جينا نشتكى لك! ونشر القبطان ذراعيه وهو يقول: على الرّحب والسعة.. شاى وحاجة خفيفة بس.. وده من مقامك برضه؟ و.. كانت وليمة حاتمية شملت صنوفاً من الشراب والمكسرات والطعام الفاخر!

ولكن مشكلة الصناديق الثقيلة ظلت تؤرق أحمد، قرر فى نفسه أن يحملها هو إلى البر مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة، وأن يجنب والده وهو فى هذه السن أى جهد ولو طفيف مهما ألح عليه، فما أن رست الباخرة على رصيف ميناء بيروت، حتى بدأ أحمد يحاول رفع أحد الصناديق وهنا صاح فيه الخميسى قائلاً: بتعمل ايه يا مجنون!. ده عاوز بغل يشيله! ثم أطل من عند حافة الباخرة ينادى فى طلب الشياليين، وقال لأحدهم: خد يابنى انت وزملاءك الصناديق دى ونزلها على تاكسى جديد ونظيف.. حاكم انا ما حبش العربيات القديمة الوسخة. وذهل أحمد الذى يعلم تمام العلم أن جيب والده أنظف من الصينى بعد غسيله، وأنه لايحتكم على مليم، من أين إذن سيدفع للشياليين والتاكسى وهلم جرا؟ لكن الخميسى غمز له بعينه أن يصمت. وعند التاكسى سأل الشياليين: حسابكم كام؟ قالوا عشرين ليرة، فصاح فى عظمة يطلب من سائق التاكسى أن يعطيهم أربعين ليرة، وبالطبع تصور السائق أنه أمام ثرى أمثل وليس شاعرا مفلساً مادام قد ضاعف أجر الشياليين.. وقال له الخميسى: الآن اختر لنا فندق فخم وسط بيروت.. أحسن فندق فى بيروت!

أمام موظف استعلامات الفندق سأل الخميسى سائق التاكسى فى أنفة: حسابك كام؟ قال: ٤٠ ليرة غير أجرة الشيالين.. استمر فى عظمته وقال لموظف الاستعلامات: اعطيه ميت ليرة، وأرسل لنا فى الجناح كباب وسلطة وخرطوشتين سجاير روثمان وميه معدنية وعصائر. وبدوره تصور الموظف أن الخميسى من الأثرياء، فسارع بدفع حساب التاكسى، وبعد نصف ساعة كان وابنه يتناولان عشاءهما فى جناح فاخر بفندق يطل على البحر رغم خلو جيب الخميسى من أى مليم! وبعدها أمسك الخميسى سماعة التليفون يجرى اتصالات بأصدقائه من المصريين واللبنانيين لتسوية موقفه المالى، بينما شرع على الفور إلى سداد ديونه عبر الكتابة فى العديد من الصحف والمجلات التى رحبت به أيما ترحيب! وطاب له المقام فى بيروت فاستأجر شقة واسعة، جلب لها شابة لبنانية جميلة لإعداد الطعام له ولضيوفه كعادته فى كل شقة سكنها فى مصر، واشترى تذكرة سفر بالطائرة لأحمد حتى يستكمل دراسة الأدب بجامعة موسكو، وبكى عندما تذكر وهو يودعه أنه قد ودع مصر، فانكب على كتابة قصيدة نشرتها الصحف اللبنانية يقول فيها:

حملت مصر بقلبى واغتربت بها
وصنتها فى رجائى من أعاديها..
أنقذتها فى ابتهالى من لظى دنس
قد أضرمته أيادى مستبيحيها
وإن مصر فصول فى تعاقبها
ربيعها لن يؤجل موعداً فيها!

لم تطل إقامة الخميسى فى بيروت لأكثر من أربعة شهور، فقد كانت بغداد تتطلع آنذاك لأن تكون مركز المعارضة العربية لنظام أنور السادات، حيث اجتذبت عدداً كبيراً من المثقفين الذين انسلوا تباعاً من مصر، وهكذا انضم الخميسى إلى كتاب صحيفة الثورة العراقية مع أحمد عباس صالح وأمير اسكندر وسعد زغلول فؤد ونبيل زكى وفتحى خليل وآخرين.

ويتذكر نبيل زكى تلك الفترة من حياة الخميسى فى مقال له بأخبار اليوم عام ١٩٨٧ قائلا: كانت لجنة النظام فى الاتحاد الإشتراكى العربى قد فصلت عشرات من الكتاب والصحفيين من عملهم.. وكنت أزوره فى منزله بشارع عدلى فأجده يزداد تألقا وحيوية، يتأمل الحياة بعقل الفيلسوف ويعشقها بقلب الفنان المحب ويهب نفسه لها بروح الصوفى المتعبد.. وتوثقت الصلة بيننا فى بغداد حيث عملنا معا.. كان يتركنا فى ساعة متأخرة من الليل ليأتى فى الصباح وقد كتب قصيدة من الشعر أو كتب قصة أو ترجم دراسة أو فرغ من كتابة مقال، طاقة هائلة لا تعوقها السدود، وعندما تركت بغداد للعمل فى بيروت جاءنى فى مكتبى لإهدائى آخر قصائده.. وعندما قرأت سطورها وجدت الإعصار القوى يندفع فى نشاط كما كان دائما وهو يرشف كل قطرة فى الدنيا التى يحبها ويداعبها ويلعنها ويغفر لها عبوسها فى بعض الأحيان

كان أحمد حسن البكر رئيساً لجمهورية العراق، لكن صدام حسين كان الحاكم الفعلى الذى يمسك بزمام السلطة، وأذكر أننى شهدت فى بغداد مولد اتحاد الصحفيين العرب مع عدد من الزملاء الذين وصلوا من

مصر وغيرها من الدول العربية، وحدث أن وزارة الإعلام العراقية أقامت احتفالاً بهذه المناسبة فى مسرح كبير ببغداد، وكان من بين فقرات البرنامج الترفيهى لعبة من ألعاب السيرك، حيث أزيح الستار عن قفص حديدى بداخله أسد هصور يزأر بصوت عال ارتجت له جنبات القاعة، بينما كان مروضه يأمره بصوته وفرقعة كرباجه بأداء بعض الألعاب، فلما انتهى خرج المروض من القفص ينادى: هل بين الحاضرين رجل شجاع يستطيع أن يدخل إلى الأسد فى قفصه؟ وران الصمت على الحفل ولم يتقدم أحد!

هنا ارتفع صوت الكاتب كامل زهيرى وقال :الأستاذ عبد الرحمن الخميسى.. وكان الخميسى يجلس إلى جواره مشغولا بالحديث مع إحدى المدعوات، وأدرك المقلب الذى ورطه فيه صديقه، لكنه قبل التحدى على الفور.. فنهض واقفاً.. ومشى فى هدوء شامخ الرأس بين صفوف المدعوين.. إلى حيث الأسد.. وهناك فتح المروض القفص.. ودخل الخميسى إليه وربت على رأس الأسد.. وهو ساكن لا ينبس بحرف ولايأتى بحركة واحدة! واحتبست الأنفاس خوفاً عليه.. ثم فاجأ الجميع وهو يجلس فوق ظهر الأسد. ثم ضجت القاعة بالتصفيق وهى تتنفس الصعداء عند خروجه من القفص بعد أن تبدد خوفها من أن يتحول الخميسى تحت وهم الشجاعة، إلى لقمة سائغة من اللحم البشرى الطازج يلوكها الأسد بين فكيه!

فى الصباح كانت قصة شجاعة الخميسى أو جموحه مضرباً للأمثال على كل لسان فى بغداد، بعد أن طالع الناس تفاصيل الواقعة المثيرة فى الصحف العراقية، وعلى ما يبدو فإن هذه الواقعة وغيرها من نوادره الطريفة

وآيات ظرفه قد وصلت تباعاً إلى صدام حسين، فلما التقى به وسط جمع من الكتاب العرب، ازداد إعجاباً به، وكان هذا الإعجاب يعنى ـــ تلقائياً ـــ أمراً أو توصية لطارق عزيز وزير الإعلام برعايته على نحو متميز، وقد انعكست هذه الرعاية على نشاطاته الأدبية والسياسية، فكتب ونشر ما شاء له من الشعر والقصة والمقال السياسى، واستأجر شقة كبيرة فى شارع السعدون وهو أحد أهم شوارع بغداد، فكان مسكنه كعادته ملتقى لسهرات وحوارات الأدباء والفنانين والسياسيين والأحباب، فيما كان الخميسى ريحانة مجالس بغداد وبلبلها الصداح شعراً ونثراً ومؤانسة وظرفاً، ويروى عنه أنه كان مندهشاً أول عهده بالعراق، عندما كان يجتمع العراقيون فى مناسبة ما أو مصادفة فيبادر أحدهم بين حين وآخر مردداً عبارة الله بالخير وتعنى صبحكم الله أو مساكم بالخير»، ولكن الخميسى لم يفهم المقصود بعبارة الله بالخير .. وعندما تكررت العبارة فى أحد المجالس أكثر من عشر مرات، فاضت به نوازع الدعابة وقال مندهشاً: الله بالخير.. الله بالخير.. من يوم وصولى بغداد وفى كل المجالس أسمعكم تؤكدون الله بالخير.. أنا أعلم إنه بخير.. هوه جرى حاجة لا سمح الله؟!

وكان الخميسى قد عرض تجسيد دور العراق القومى فى أوبرا عربية خالصة، واستحسنت وزارة الثقافة الفكرة، وأنشأت إدارة خاصة للإشراف على تنفيذ المشروع، وراح الخميسى يفرغ خبراته الموسيقية والشعرية فى كتابة النص، لكنه توقف بعد فترة لأسباب شتى انتهت به إلى الإحباط والرحيل عن العراق، منها أنه لم يدع ذات يوم إلى مهرجان شعرى عربى حاشد نظمته وزارة الثقافة، ومنها أنه لم ينكر انتماءه الماركسى ولا علاقته

بالحزب الشيوعى العراقى الذى دخل فى جبهة وطنية مع حزب البعث، ويبدو أنه عندما تفسخت العلاقة الجبهوية بين الحزبين، انعكست سلبياتها بشكل أو بآخر على أسلوب تعامل النظام معه، حين بدأت محاسبته على بعض تصرفاته الشخصية، فقد دعاه طارق عزيز يوماً إلى مكتبه وبادره قائلاً: انت خوش راجل.. وصدام بيحبك.. لكن أخى صراحة نحن نسمع كثيراً عن علاقاتك النسائية، والعراق ليس مصر.. فقال له الخميسى: تسمعون ماذا؟ قال يعنى.. إنك تحب النساء! فقهقه الخميسى مندهشا وقال: والراجل ح يحب ايه؟ حمير؟ ما هو لازم يحب نساء!

وضحك طارق عزيز وقد اعتقد أن الرسالة قد وصلت الخميسى، وكان عليه أن يجد حلاً وقرر الزواج، وصادف أن تعرف على مذيعة بحرانية شابة اسمها حياة الخطيب كانت شديدة الإعجاب به، ورأى أنها الحل، عقد قرانه عليها مشروطاً بالامتناع عن الإنجاب. قال لها: أنا عندى ١٣ ولد وبنت، وأظن ما حدش يقدر يتهمنى بالتقصير من هذه الناحية.. لذلك أنا شاكر لله هذا العدد وكفانى المزيد فى ظروف الغربة و.. وافقت.. وعاشت معه فى التبات والنبات عامين كاملين فحسب حتى غادر العراق..

ملاحظة أخرى رسمية وصلته حول تصرفاته الشخصية، فعندما بلغ إعجاب صدام به أوجه، أهداه سيارة أمريكية فارهة وفاخرة، كان يتنقل بها فى شوارع بغداد فى زهو وخيلاء، وكان فى زيارة للكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين فى الكويت، وكان يرأس تحرير مجلة العربى آنذاك، وهناك وجد كوماً من خطابات زوجاته وأولاده فى مصر وخارجها بانتظاره مع

بعض الأصدقاء، فما أن فرغ من قراءتها حتى أمسك بالقلم وراح يحسب حاجة كل فرد من أفراد قبيلته للمال، وعندما وجد أنه مطالب بما يفوق الاستدانة قرر أن يبيع السيارة وقفل راجعاً بدونها إلى العراق، وكلما سأله أحد عنها.. كان يدعى اصطدام السيارة بعمود للإنارة وتهشمها فى حادث عابر، مما اضطره إلى بيعها عندما اكتشف أن كلفة إصلاحها باهظة، لكن هذا التبرير لم يجد سوى الغضب واستياء المسئولين فى العراق.. إذ كيف يبيع هدية صدام حسين الحاكم الفعلى للعراق؟ وكان لهم بعض الحق.. وكان له بعض العذر!

على أى حال تحالفت الأسباب مع الظروف إيذاناً بالرحيل إلى غربته الأخيرة فى موسكو!

لكن لأن دخول الحمام ليس كالخروج منه، كان على الخميسى أن يدبر حاله ويتكتم قرار الرحيل حتى عن ابنته عائشة التى كانت تدرس بكلية الآداب جامعة بغداد، وعندما رأته يجمع ملابسه ومتعلقاته الشخصية وأوراقه وكتبه فى صناديق حديدية، سألته: إلى أين؟ وقال لها: إننى مدعو إلى مهرجان للشعر فى بغداد، وعَلَىَّ أن أشارك يوميا فى نشاط المؤتمر، ولهذا سأقيم بالفندق مع ضيوف المهرجان، وهناك سوف يتولون غسيل ملابسى وكيها.. وصدقته ابنته بالطبع!

كان الخميسى قد حجز لنفسه فى نفس اليوم مقعداً على طائرة متجهة إلى بيروت، وحجز تاكسياً ينتظره أسفل البيت وبه كل حقائبه، وكان يعلم أن المسافة بين منزله فى شارع السعدون إلى مطار بغداد زهاء نصف ساعة،

ومن ثم أمسك التليفون ــ قبل نصف الساعة الأخيرة على إقلاع الطائرة ــ وأدار القرص طالبا رقم الهاتف المباشر لطارق عزيز، وكانت عائشة فى ذهول وهى تسمع أباها يكيل لطارق عزيز مختلف ألوان الشتائم بصوته الهادر ويصب لعناته على النظام العراقى قائلا له: أتحاولون إهانتى والحط من كرامتى.. أنا عبد الرحمن الخميسى ولست نكرة! و.. و.. وضع الخميسى سماعة التليفون وهبط إلى التاكسى وتوجه إلى المطار.. وأقلعت به الطائرة، وبعد نصف ساعة كان منزله نهباً للتفتيش.. ساقوا عائشة إلى الاعتقال بجريرة والدها.. واضطر شقيقها عبد الملك للسفر من الإمارات حيث كان يعمل متجها إلى بغداد للسعى فى الإفراج عن شقيقته ,واتصل بالسلطات المعنية.. وأقنعها أن والده سوف يقيم الدنيا ولن يقعدها فى صحف الدنيا ومحافلها.. وبعد شهرين كاملين انقضيا على عائشة فى الحجز مع المتهمات جنائيا وأخلاقيا تقرر الإفراج عنها وعادت إلى القاهرة مستغنية عن إكمال دراستها !

ومع أن الخميسى قد ترك بغداد، إلا أن هذه العاصمة العربية بمثقفيها وفقرائها ومعالمها ومنتدياتها ظلت عالقة بقلبه وذكرياته، وحرص قبل رحيله كالعاصفة على ترك قصيدة لأحد أصدقائه من المثقفين يودع بها العراق وأصدقاءه يقول فى مطلعها:

ابا هيثم إنى أشد رحالى ترفرف أعلام العراق حيالى

وإنى أفك خيمتى اليوم راحلا وأخلع أوتادى بها وحبالى

أقول وداعا يا أعز أحبتى وألثم فى بغداد نسمها الغالى

وما بعت فى سوق الإماء قصائدى وما فهت إلا.. بالذى بدا لى!

ابا هـيـثـم إنى أشـد رحـالـى ترفـرف أعـلام العـراق حـيـالى

ولو رف طـيـر فى ذراك مـغـردا فـاصغ إليـه.. ذاك قلبى ومـوالى!

وفيما بعد عندما انتقل الخميسى إلى موسكو، كانت تصله رسائل أصدقائه ومحبيه تباعا من العراقيين، وذات يوم وصله كارت بوستال عليه منظر للعاصمة بغداد، فتأمله ابنه أحمد وقال له: والله بغداد حلوة برضه يا قديس.. شوف. وتناول الخميسى الكارت وقال: أيوة.. بغداد حلوة.. بس لاحظ إنهم مش مصورين حر أغسطس فى الكارت ده!

سنوات الغربة والحنين

فى بيروت التى عاد إليها الخميسى للمرة الثانية فترة غربته، كتب فى صحفها وباع بعضا من إبداعاته لدور النشر، وله قصيدة ليست للنشر تحمل وجهة نظره وخلاصة تجربته فى بيروت نشرتها مجلة صباح الخير فى ١٦ يونيو ١٩٦٦ ، يقول فيها:

مدينة يتوه فى ظلامها الظلام
تربع الأمير فوق عرشها الركام
بلحية نباتها الفسوق والحرام
وسار فى دروبها مزيفة الوئام
يؤجج الفراق والصراع والخصام
ويدفع الأجور للحماس والكلام ،
تبيع للغريب والغنى ما يرام
عفافها وعرضها المستباح للأنام
ويضحك الأمير والبطانة اللئام.

إلى أن يقول:

مدينة البغاء، والنفاق، والكذب
فكل ما تريد تشتريه بالذهب
المرأة الحسناء والحذاء والشنب!

كانت بيروت آنذاك سوقا يعج بكل أشكال وألوان الخلافات الداخلية والمتناقضات العربية وتصارع النفوذ الأجنبى وأبواقه الإعلامية والمعنوية، وتنبأ الخميسى فى قصيدته عام ١٩٦٦ بعواقب تلك الظروف السلبية على الأوضاع السياسية والأمنية فى لبنان، ولم تمض شهور حتى اندلعت حرب الطوائف والاجتياح الإسرائيلى للبنان وطرد المقاومة الفلسطينية.. الخ

وكان الخميسى قد تلقى وهو فى بيروت عروضا من أصدقائه فى باريس وروما للعمل والإقامة، وعرضا آخر من ليبيا لإصدار مجلة ثقافية شهرية فى أوروبا، لكنه بعد تفكير طويل قرر الرحيل إلى موسكو، هناك ابنه أحمد يواصل دراسته، وفيها أصدقاء عرفهم فى القاهرة وعلى استعداد لمساعدته، ثم أن بقاءه فى موسكو كان رمزا لموقف كان حريصا على التمسك به على الأقل من باب الوفاء لموقف الاتحاد السوفيتى المناصر لمصر والقضايا العربية خاصة بعد أن نال على يدى السادات جزاء سنمار!

ولم تكن حياة الخميسى فى موسكو مرفهة، مقارنة بالحياة التى كانت تنتظره لو أنه تخير الإقامة فى روما أو باريس أو ليبيا أو الكويت أو واصل حياته فى بغداد. وقد عاش فى البداية فى شقة صغيرة والتحق شكليا بالعمل بدار التقدم السوفيتية التى كانت تترجم عيون الأدب الروسى إلى العربية،

وذلك حتى يستكمل شروط الإقامة. وحدث أن عرضت عليه الدار أن يراجع ترجمة نص روسى إلى العربية، إلا أن رداءة الترجمة وجهل المترجم الفاحش باللغة العربية أثار دهشته، ومن ثم كتب ملاحظة طريفة أعلى النص: برجاء إحالة الترجمة إلى المراجع الهندى بالدار !

ولم يفهم رئيس دار التقدم نكتة الخميسى، فسأله بأدب جم: هل تعنى ملاحظتك اجراء مقارنة لغوية بين العربية والهندية؟ أم ماذا؟ لأنى صراحة لم أفهم. فقال له الخميسى موضحا النكتة: أنت أرسلت لى نصا مترجما من الروسية إلى الهندية.. اليس هذا صحيحا؟ فتعجب الرجل وقال: أبدا نحن أرسلنا إليك نصا مترجما من الروسية إلى العربية!! فقال الخميسى: ولكنى لم أر كلمة عربية واحدة سليمة.. فمعذرة إن كنت قد تصورت أن الترجمة للهندية! بعدها عرف الخميسى أن شابا مصريا طويلا يدرس فى موسكو هو الذى قام بعملية الترجمة، فتح الله عليه فيما بعد فأصبح مراسلا لصحف وإذاعات عربية، تحسبه عندما يتكلم العربية أنه يغمغم باللغة الهندية!!

والشاهد أن الخميسى عرف ايجور بيلاييف مراسل صحيفة البرافدا فى القاهرة أواخر الخمسينيات، عندما كان ايجور يتردد على صحيفة الجمهورية إبان ازدهار العلاقات المصرية السوفيتية، ثم خلفه زميله يفجينى بريماكوف الذى أصبح فيما بعد وزيرا للخارجية ثم رئيسا لوزراء روسيا، وكلاهما على دراية باللغة العربية ومخلص للعرب ومناصر للقضايا العربية، وقد اشتركا معا فى وضع كتاب عن جمال عبد الناصر كان له أبلغ التأثير فى فكر القيادة

السياسية السوفيتية ودعمها لمصر عسكريا وتنمويا، وتعرض الكتاب لدور المؤسسة العسكرية الوطنية فى العالم الثالث فى إنجاز مرحلة الثورة الوطنية الاجتماعية والتحول نحو الاشتراكية. وكان بريماكوف قد لعب دورا هاما بعد ذلك خلال أزمة الخليج فى محاولة لإقناع الرئيس صدام حسين بالانسحاب من الكويت، وحكى بريماكوف تفاصيل الواقعة فى كتاب بعنوان الحرب التى كان يمكن ألا تقع وقد ترجمه أحمد الخميسى وصدر فى القاهرة بعنوان المباحثات السرية السوفيتية العراقية خلال حرب الخليج.

وأذكر عن بريماكوف أنه كان ابن بلد، وكثيرا ما كان مضيفا فى القاهرة للكتاب والفنانين والأدباء المصريين وضيفاً فى بيوتهم، وزبونا دائما لمقهى الفيشاوى، وقد أتيحت لى رفقته والحوار معه طويلا، عندما قدر لنا متابعة أعمال مؤتمر حرض للمصالحة الوطنية بين الفرقاء اليمنيين، وعندما ذهبت مع الأستاذ محمد عودة إلى مكتبه صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧ فوجئنا به حزينا وقد احمرت عيناه من الإجهاد وهو ينقل إلى مسامعنا لأول مرة وقائع تحطيم أسطول الطيران المصرى على الأرض !

وهكذا كان الطريق ممهدا أمام الخميسى عبر صداقته القديمة ببريماكوف وبيلاييف للتعرف إلى الآخرين وعقد الصداقات الحميمة كدأبه مع العديد من أبرز الكتاب والأدباء والفنانين السوفيت وخاصة الذين يحبون العرب، ومن بينهم الشاعر الكبير أناتولى سافرونوف، والصحفى أناتولى أجارشيف، وايجور تيموفييف، والشاعر الكبير رسول حمزاتوف، فضلا عن يورى جاجارين أول رائد فضاء فى العالم.

والمدهش أن جاجارين الذى قام بجولة فى بلدان العالم بعد صعوده إلى القمر التقى خلالها بمئات الآلاف من مختلف الشخصيات قد توقف فى مذكراته مطولا أمام شخصية الخميسى التى لفتت نظره بشدة خلال زيارة جاجارين إلى القاهرة، وأسهب فى وصفه كشخص متميز ومتألق.

وفى موسكو كانت شقة الخميسى كعادته دوما أينما عاش أشبه ما تكون بخلية نحل تشغى بالأصدقاء والمريدين والمبدعين والمضيعين والغائبين عن الوعى وأيضا بأفضل الطلبة المصريين والعرب الذين يقصدونه لتسهيل التحاقهم بالجامعات وحل مشاكلهم الدراسية، والمستعربين السوفييت وغيرهم ممن كانوا يعدون لنيل شهادات الدكتوراه والماجستير حول مسيرته الأدبية.

وكان الخميسى إذا تصادف وجوده فى أحد المحلات الكبرى غالبا ما يتردد على قسم الملابس ويطلب من البائع شراء بعض البلاطى الصوف والقلنسوات الفرو. ويسأله البائع: أى مقاس؟ وكان يقول له: أى مقاس!! إذ كان يتحسب لزيارات الأصدقاء المصريين إلى موسكو وليس لديهم ما يقيهم برد روسيا القارس.

وهكذا كان هناك دولاب ثابت فى شقة الخميسى معلقة فيه بلاطى من مختلف المقاسات فإذا جاءه زائر مصرى يعرض عليه أن يختار لنفسه بالطو أى بالطو وكوفيه وقلنسوة!!

وعندما سمعنا عن مرض الخميسى فى أخريات حياته، لاحت لنا فرصة ذهبية للالتحاق برحلة نظمتها شركة مصر للسياحة لزيارة الاتحاد السوفيتى

لمدة خمسة عشر يوما بمبلغ زهيد لايتجاوز ستمائة وخمسين جنيها تشمل الإقامة والطعام والتنقلات والحفلات، وكنا ثلاثة من أصدقائه: محمد عودة، وجلال عارف الكاتب الصحفى، وأنا. وعندما وصلنا إلى فندق روسيا فى موسكو أمسكت سماعة التليفون وأدرت رقم منزله، وجاءنى صوته الباريتون متهدجا بالعربية والروسية وداعبته ببيت من إحدى قصائده التى يسخر فيها من ضابط سابق آلت إليه ذات يوم رئاسة مؤسستين إحداهما صحفية والأخرى ثقافية.. يقول فى مطلعها الذى يبدأ باسم هذا الضابط السابق:

(....) يا زنبرك الصحافة

وضابط الإيقاع للثقافة

زدنا من الهراء والسخافة .. إلخ

وإذا به يصيح فى غضب مصطنع: لزومه إيه الكلام الفارغ ده؟ ما بقينا أصحاب أنا وهو من زمان.. أنت ح تقول اسمك ولا أقفل السكة؟

وبعد نحو الساعة كنا ضيوفا عليه فى شقته بعمارة عالية فى أطراف موسكو، وغمرنا بالأحضان والقبلات وبالمودة وكرمه المعهود، وكما توقعنا لم تكن الشقة تختلف فى غرابة أشكال وألوان المترددين عليها عن آخر شقة سكنها فى القاهرة بشارع عدلى، كان هناك من يعزف على البيانو، وكان هناك النائم، والسكير، وعالمة ذرة سوفيتية كانت تقشر فصوص الثوم عندما دخلنا عليها المطبخ وهى تعد حلة الطعام لهذا الجمع الغفير من أصدقائه، وشخص آخر اسمه مكسيموف يقرأ ديوانا للخميسى، ويستفسر منه بين

الحين والآخر عن معانى بعض الكلمات، وعرفنا أنه ليس أول ولا آخر سوفيتى أعد رسالة جامعية حول شعر الخميسى ونال عنها شهادة الدكتوراة!

على أن الطقس الصيفى الحار، سرعان ما تبدل إلى شتاء ممطر قارس البرودة ودوى برق ورعد كما قصف الصواريخ، وكنا قد تأهبنا للعودة إلى الفندق عندما تقدمنا الخميسى إلى غرفة خالية إلا من دولاب ضخم، وعندما فتحه بدت أمامنا عشرات القلنسوات والبلاطى صفوفا متراصة، وقال: كل واحد يختار إللى على مقاسه!! ثم أطل من النافذة ونادى بأعلى صوته: فكريكوف.. فكريكوف! ثم قال: ما هو أنا ما استغناش عن فكرى الجوهرى.. مطرح ما أروح لازم يكون عندى فكرى! تعبت هنا لغاية ما لقيت واحد من جيرانى فى العمارة الخالق الناطق فكرى فى شكله وتناحته.. فسميته فكريكوف.. ومن ساعتها وأنا مزاجى اتعدل والأمور بقت ٢٤ قيراط!

نزلنا فى الأسانسير وهو يصر على توديعنا حتى باب العمارة، وكان فكريكوف ينتظرنا فى الشارع إلى جوار سيارة الخميسى الفولفو الفضية، وتصورنا أنه سوف يحملنا إلى الفندق، فإذا بالخميسى يصر على توصيلنا بنفسه، وعبثا حاولنا اثناءه بدافع الإشفاق على صحته، وأيضا بدافع الخوف على حياتنا، بعد أن ضعف بصره، لكنه لم يأبه برجائنا، وقال: إمال ح توصلوا الفندق إزاى؟ الساعة الآن الواحدة صباحا والناس نامت فى موسكو. وفين وفين لما تلاقوا تاكسى فى هذا الزمهرير!

وجلس القديس أمام عجلة القيادة وبدأت السيارة تتحرك،وفكريكوف من خلفه يوجهه إلى الطريق: على مهلك يا قديس.. أمامك لورى يا قديس..

إحود يمين يا قديس.. يخرب بيتك يا قديس.. الإشارة حمرا ح تموتنا يا قديس!

واستمر الحال على هذا المنوال كما لو أن السيارة تتحرك بالريموت كونترول ونحن فى شدة الرعب حتى وصلنا إلى فندق روسيا وهناك اكتشفنا أن أحد إطارات السيارة قد نام على الأرض، ولكن عددا من سائقى التاكسيات أخذوا يلقون التحية على الخميسى ويتزاحمون على تغيير الإطار المعطوب، وعندما لاحظ دهشتنا أشار بسبابته إلى شارة حمراء مثبته فى عروة سترته، وقال: دى معناها أنى حامل وسام لينين. وعبر نفوذ ذلك الوسام كانت المطاعم والمحلات التجارية تفتح له أبوابها بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية! وتمكن الخميسى من مد إقامتنا أسبوعا إضافيا فى موسكو بعد رحيل الفوج السياحى إلى مصر، وتمكيننا من التعامل والصرف بالروبل، ولم تكن البيروقراطية السوفيتية تسمح بذلك!

والحقيقة أننا كنا نسمع فى القاهرة فيما يشبه التضخيم أو التهويل عن المكانة التى وصل إليها الخميسى فى الاتحاد السوفيتى، حتى جاء تقليده وسام لينين للسلام عام ١٩٨ . تقديرا لدوره كواحد من أبرز المناضلين والمبدعين فى العالم الثالث، وقد أجيز هذا الاختيار بعد عرضه على المؤسسات العلمية والأدبية والسياسية ووفقا لمعايير دقيقة، ثم أقيم حفل كبير فى موسكو بهذه المناسبة، ثم تكرر الاحتفال به عربيا فى بيروت بجامعة ناصر حضره لفيف من القادة السياسيين والمبدعين الذين تعاقبوا على الإشادة بالخميسى وتاريخه النضالى والتعبير عن حسن اختياره للجائزة من

بين المبدعين العرب. وافتتح الحفل جورج حاوى وألقى ياسر عرفات كلمة ضافية حول ما قدمه للقضية العربية والفلسطينية من دعم ومساندة أدبية، وكتب الشاعر الكبير أناتولى سافرونوف الذى مثل الأدباء السوفييت فى حفل تكريمه ببيروت يقول: كنت أنظر إلى الخميسى وأرى ابتسامته العريضة، وأسمع كيف تدق فى صوته أجراس الغضب، وأفكر فى أن شخصا واحدا بوسعه أن يضحك هكذا.. شخص يؤمن بأفكاره وبما يقوله، ولديه إرادة التصميم على إنجاز ما أنجزه !

وخلال الفترة الممتعة التى قضيناها معه فى موسكو، كانت موهبة الخميسى فى أن يألف الناس ويألفوه، وفنون اتصاله بالمجتمع والغوص فى أعماقه أمرا مثيرا لدهشتنا وإعجابنا، لكأن موسكو مسقط رأسه، ومرتع عطائه وأمانيه، إذ كان مشغولا بشواغلها، وعلما من أعلامها، فكان يصحبنا إلى سهراتها، وندخل بيوتها على الرحب والسعة، ويطلعنا على خباياها وأسرارها، ويقدمنا لنخبها السياسية والثقافية رغم أنه لم يتمكن خلال إقامته بموسكو من عام ١٩٧٤ حتى عام ١٩٨٧ من إتقان اللغة الروسية، وقد كان بمقدوره أن يتقنها، لكنه كان يضمر العودة كل يوم.. بل كل ساعة.. إلى مصر! ومع ذلك كان قادرا فى كافة الظروف والأوقات على التعبير عن نفسه بالروسية سواء خلال حواراته مع الصفوة، أو فى تعاملاته الحياتية. وكان يقول مازحا: أنا عندى هنا فى درج مكتبى أربع تاشر كلمة روسى.. كل مرة أطلعهم واستخدمهم بشكل مختلف،

ورغم ذلك فقد بدأ الخميسى نشاطه الأدبى بترجمة الأعمال الشعرية والمسرحية من الروسية إلى العربية.. كيف؟

كان أحد المستعربين يأتى اليه ويقرأ عليه النص الروسى بعربية مكسرة، فيقوم الخميسى بصياغة تلك العربية المكسرة فى لغة فصحى. وكان أحد أولئك هو الدكتور جريجورى شرباتوف واضع قواميس اللغة الروسية العربية. وكان الدكتور شرباتوف يلتزم حرفيا بالنص الذى يقرّأ منه. فظل ذات مرة يقرأ على الخميسى كالتالى: فلان قال كذا.. أربع نقط.. فلانة ردت عليه بكذا.. ثلاث نقط.. فلان يعتلى المنصة.. أربع نقط.. وأصاب الخميسى الملل فقال له: اسمع ياشرباتوف إنت اقرأ لى النص، مالكش دعوة بالنقط. لأنى بأعرف أترجم نقط من روسى لعربى بامتياز. أناأصلا مترجم نقط. وبعدين أنا عندى هنا شوال نقط جايبه معاى من مصر، بعد ما نخلص ترجمه ح أبقى أرش منه شوية نقط فوق المسرحية!

موقف آخر مشابه تعرض له الخميسى فى موسكو، فعندما شرعت المحافل الأدبية فى ترجمة أشعاره إلى الروسية أولا ثم إلى لغات الجمهوريات السوفيتية بعدئذ، حدث أن اليهود الصهاينة دسوا عليه شابا مترجما يدعى اشكنادزى، فلما عرض عليه ترجمة قصائده أنكرها وقال: هذا شعر قد يكون جميلا لكنه ليس شعرى.. أنا لم أضع ثلاثة أهرامات فى نهاية القصيدة.. لماذا وضعتها إذن؟ قال اشكنادزى: رمز للقومية المصرية؟ وأخذ الخميسى يسخر منه قائلا: هذا المترجم يرش فوق كل قصيدة إما ثلاثة أهرامات، أو واحد أبو الهول بدعوى إضفاء مذاق فرعونى.. وإذا كانت ترجمة النصوص عندكم على هذا النحو فهى فضيحة أدبية بجلاجل!

وراح الخميسى يختار بنفسه مترجما لأشعاره حتى اهتدى إلى مترجم شاب يفهم روح الشعر هو سيرجى جولوبوف، فعهد إليه بالمهمة، وقام بها

على الوجه الأكمل من حيث الدقة وبلغة شعرية جميلة، مما أكسب شعر الخميسى جاذبية ورواجا واسعا فى طول وعرض الاتحاد السوفيتى، فكانت بداية شهرته، حتى أن رجل الشارع كان يتعرف عليه ونحن نتجول معه عبر صوره المطبوعة على أغلفة دواوينه الشعرية، وتلك التى كانت تنشرها الصحف وظهوره على شاشة التلفزيون فى المناسبات، خاصة بعد اختياره رئيس لجنة التحكيم فى جائزة كتاب آسيا وأفريقيا، ثم حصوله على وسام لينين.

وللخميسى مع يهود الاتحاد السوفيتى الصهاينة قصة تروى، فقد كان ذات مرة فى زيارة للشاعر الكبير أناتولى سفرونوف رئيس تحرير مجلة أجنيوك حينذاك. فرأى على مكتبه سكيناً أنيقاً أعجبته فمد يده إليها يتفحصها وسأله سفرونوف: أتعلم فائدة هذه السكين؟ قال الخميسى: أظنها لفتح أظرف الخطابات المغلقة. قال سفرونوف ضاحكا بملء صوته: بل لذبح الصهاينة لدينا! .. لا تستغرب فإن الصهيونية أقوى ما تكون فى أمريكا ثم فى الاتحاد السوفيتى.والصراع بينهم وبين الروس على أشده. هل تعلم يا صديقى أن اليهود الصهاينة لم يتورعوا عن ذبح يورى ايفانوف مؤلف كتاب احذروا الصهيونية أثناء علاجه فى مستشفى اللجنة المركزية؟.

ثم راح يقص عليه طرفا من أحابيلهم القذرة وتنظيماتهم المعلنة والسرية، وأسماء قياداتهم، وكيف يسعون بكل الوسائل إلى تخريب الاتحاد السوفيتى، ونقل أسراره الاستراتيجية إلى أمريكا وإسرائيل..

الخميسى أذهلته تلك المعلومات والحقائق الخطيرة مما دفعه كعادته إلى خوض المعركة فى مواجهة اليهود الصهاينة من أوسع أبوابها، خاصة بعد أن

توطدت علاقته مع ألد أعداء الصهيونية وهو يفجيني يفسييف، الذى تم اغتياله هو الآخر فى ظروف مريبة عام ١٩٨٧ إثر تصريحاته الشهيرة التى قال فيها أن ستالين أخطأ وأخطأ معه الاتحاد السوفيتى عندما اعترف بإسرائيل كدولة عام ١٩٤٨ .

وقد وجد الروس ضالتهم فى الخميسى، ووجد فيهم أصدقاء للعرب وأعداء لإسرائيل حيث بدأ بينهما تعاون مشترك لمجابهة النفوذ الصهيونى، وهكذا بدأت مجلة أجنيوك تفتح صفحاتها لمقالات متتابعة فى هذا الاتجاه إلى جانب نشر الشعر العربى وخاصة الفلسطينى، بينما كان أناتولى أجارشييف المستعرب الروسى المحب للعرب وعبد الناصر ينشر كتبه عن القضية الفلسطينية والعدوان الإسرائيلى على لبنان، وأشرف الخميسى على ترجمة كتاب فلاديمير بيجون غزو بلا سلاح حول الحركة الصهيونية وتم طبعه فى بيروت. وعبر هذه الجهود والنشاطات تجمع حول الخميسى لوبى روسى معاد للصهيونية، وأصبح يمثل ظاهرة ضاغطة فى أوساط المثقفين الروس، فكانت مبادرة الحزب الشيوعى إلى تشكيل لجنة فرعية لمكافحة الصهيونية فى الاتحاد السوفيتى، اختير لرئاستها جنرال على الاستيداع، واكتشفت هذه اللجنة على سبيل المثال أن الصهاينة الذين تسللوا إلى قطاع السينما تعمدوا أن يقدموا أسوأ النماذج لجمال المرأة الروسية فى معظم الأفلام التى تم إنتاجها منذ سنوات بعيدة، مما أسهم فى عدم رواجها عالمياً.

وقد تطورت نشاطات اللوبى المعادى للصهيونية إلى محاولة تجسيد فكرة قيام حركة عالمية بمشاركة عدد من الدارسين العرب لمكافحة الصهيونية،

بينهم من لبنان الدكتور سهيل فرح، والدكتور فى الفلسفة أنور حمادة، وغيرهما. ولم يكن موقف ونشاط الخميسى غائبا عن اليهود الصهاينة، فأخذوا يضعون العراقيل فى طريق مشروعين ثقافيين للخميسى بعد موافقة الجهات المختصة على إجازتهما والبدء فى تنفيذهما، الأول مشروع باليه شارك فى تأليفه مع الشاعر التركى الكبير ناظم حكمت خارج إطار كلاسيكيات العروض التى يقدمها البولشوى تياتر، تدور قصته حول كفاح دول العالم الثالث للتحرر من الاستعمار، والثانى بعنوان خاتم الحق صاغ الخميسى قصته عن أسطورة فرعونية. وذات أمسية شعرية نظمتها دار الصداقة السوفيتية العربية وقف الخميسى يلقى أشعاره أمام جمع غفير من المدعوين، وإلى جواره صديقه ايجور تيموفييف يتولى الترجمة إلى الروسية، وفجأة انقطع التيار الكهربائى عن القاعة لإفساد الأمسية!

جدير بالذكر أنه خلال تلك الفترة التى شهدت اقامة الخميسى فى موسكو بدأ نشاط المثقفين المصريين خارج مصر يتصاعد ضد اتفاقية كامب ديفيد، وكتب الخميسى آنذاك قصيدته الشهيرة رسالة إلى الخديوى وبسببها وقف السادات فى إحدى خطبه يهاجمه قائلا: : تصوروا.. حتى الرجل المخرف ده اللى اسمه الخميسى بيشتمنى. وكانت القصيدة ساخرة خلافا لكل أشعاره العاطفية أو الوطنية.. يقول فى بعض مقاطعها:

يا أيها الخديوى العظيم

اسمح لمثلى

وأنا مواطن من الملايين التى طعامها الهموم

أن أتجاسر، فأكتب رسالتى
للسيد المرفه الوسيم
فما يليق أن يخاطب الخديوى امرؤ
من بيئة مطحونة فقيرة
فللملوك لغة مثل الحرير
ليست كلغتى الصخرية المريرة
هم يتكلمون بالقفازات..
وبالعطور والأحذية البراقة
هم يتكلمون بابتسامات
وما أحلاك حين تبتسم!
تفغر شدقيك الخديويين
تضحك من حولك بالصوت وباليدين
ومن رأوك أبصروا أعجوبة
ليست تجئ مرتين!
يا أيها الخديوى الوسيم
نعرف حرصك العظيم
لأن تكون ملك الأزياء
وأن تملأ شدقيك الجميلين
ببسمة وضيئة الإغراء
فاخطر كما الغزال
يا أجمل الرجال!

وحول علاقات الخميسى بالجاليات العربية يشهد الذين خالطوه خلال إقامته فى موسكو أنه كان سفيرا شعبيا لكل العرب بلا استثناء، ساعيا لقضاء مصالحهم، جامعا شمل فرقتهم، محتضنا كل وافد جديد، وقد توطدت علاقته فى هذه الفترة بعبد الفتاح اسماعيل الرئيس الأسبق لجمهورية اليمن الديمقراطية، وكنت قد قدمته إليه لأول مرة فى القاهرة فى أواخر الستينيات عندما أقام بها فترة إثر خلافه مع الرئيس قحطان الشعبى، بعيد استيلاء الجبهة القومية بزعامة حركة القوميين العرب على السلطة فجر استقلال عدن، وكان ــ عبد الفتاح اسماعيل ــ الرئيس اليمنى قد وصل إلى موسكو منفيا، إثر الانقلاب العسكرى والسياسى الذى نصب على ناصر على قمة السلطة، حيث أقام فى أحد قصور الضيافة على مرتفعات لينين، شبه محاصر من الناحية العملية، قليل الظهور فى المناسبات العامة حتى لا يسبب إحراجا للعلاقات بين عدن وموسكو، فكانت نزهته الوحيدة زيارة الخميسى الذى فتح بيته وعقله له وأحاطه بدفئه الإنسانى الغامر، وبين حين وآخر كان يدعو له الدبلوماسيين العرب والأدباء السوفييت ويدور الحوار بينه وبينهم حول قضايا الساعة. وذات أمسية أدبية للخميسى فى اتحاد الأدباء دعا عبد الفتاح اسماعيل للجلوس إلى جواره على المنصة، فلما عاد الخميسى إلى المنزل وجد من يطلبه فى التليفون، وكان مسئولا كبيرا فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى وقال له: لقد تلقينا من سفارة اليمن الديمقراطية احتجاجا على ظهور عبد الفتاح اسماعيل معك فى حفل عام. ونرجو أن تراعى ذلك مستقبلا. إلا أن الخميسى صاح بصوت هادر: لا إسمح لى أن أقول لك أن عبد الفتاح

اسماعيل صديقى سواء أكان خفيرا أم رئيسا للجمهورية.. وأنا لا أتخلى أبدا عن أصدقائى. فقال المتحدث: يا أستاذ خميسى اسمعنى أرجوك. فقاطعه الخميسى: أنا الذى أرجو أن تسمعنى.. إننى أعامل الرؤساء كبسطاء القوم، وأعامل بسطاء القوم كأنهم رؤساء! وقد تخلى عبد الفتاح اسماعيل عن رئاسة الجمهورية فله على الآن كشخص بسيط حق الرؤساء! وعلى أية حال يمكنكم أن توجهوا كلامكم هذا له، وليس لى. لأنى سأدعو من أشاء، وللآخرين أن يقبلوا الدعوة أو يرفضوها!.

المرة الوحيدة التى بكى فيها الخميسى خلال فترة بقائه فى موسكو كانت عندما وصله خبر اختفاء عبد الفتاح إسماعيل أو اغتياله خلال أحداث ١٣ يناير الدامية فى عدن بين الفرقاء فى اليمن الديمقراطى. وكان قد أقام له وليمة كبيرة فى منزله بمناسبة قراره العودة إلى عدن، وحذره وهو يحتضنه مودعا: إياك أن يدبروا لك شيئا ليتخلصوا منك! فأكد له عبد الفتاح اسماعيل أنه حذر، وأن معه طباخا خاصا حتى لا يتناول طعاما من أيد غريبة.. وقال لى أحمد الخميسى أنه رأى والده يبكى ثلاثة أيام متصلة عليه كالطفل وهو يقول: أتذكر أى رجل عظيم كان هذا الشخص العظيم!! ثم يعاود البكاء.

رئيس عربى آخر قمت بمهمة التعارف بينه والخميسى فى القاهرة أواخر عام ١٩٦٩ هو جعفر نميرى، وكان الخميسى قد طلب منى ذلك إعجابا بالتحالف السياسى الذى بدأ به حكمه بين مختلف الفصائل الوطنية فى السودان، وبينها الحزب الشيوعى بزعامة عبد الخالق محجوب الذى عرفه

الخميسى فى القاهرة وعددا من زملائه إبان الرفقة العقائدية المشتركة فى التنظيمات اليسارية، ولم تمض أسابيع على التعارف حتى كان الخميسى ضيفا على نميرى فى الخرطوم وصحبه معه فى جولة ميدانية واسعة فى غرب السودان، ثم كان نميرى ضيف الخميسى فى بيته كلما زار القاهرة، ويوما توجه الرئيس جمال عبد الناصر من منزله فى منشية البكرى إلى قصر القبة حيث يقيم نميرى فى زيارة مجاملة له دون موعد سابق، ولما لم يجده وتأخر وصوله قال عبد الناصر: اتصلوا به فى منزل الخميسى!

وعندما فشل الانقلاب الشيوعى فى السودان بقيادة الرائد هاشم العطا عام ١٩٧١ ، أبرق الخميسى إلى نميرى يناشده التريث فى تنفيذ حكم الإعدام على عبد الخالق محجوب ورفاقه إلى أن تهدأ الخواطر ويزول التوتر، لكنه لم يستجب. ومن نافذة شقته بشارع عدلى بالقاهرة قذف الخميسى بصورة كبيرة لنميرى كان قد أهداها له ووقع عليها بكلمات ود وتقدير، فتكسرت على أرض الشارع فتاتا، وأبرق إليه يلعنه ويتهمه بالفاشية ويعلن العداء له..

وفى موسكو كان نميرى قد زين له الدكتور حسن الترابى تبنى النهج الإسلامى وبايعه أميرا للمؤمنين وخليفة لرسول الله [، زورا وبهتانا، وبدأت سلسلة من المحاكمات الهزلية لتطبيق الحدود الشرعية التى أسفرت عن قطع أطراف العشرات من الفقراء والجوعى، فيما تم إعدام المفكر الإسلامى محمود محمد طه بدعوى الردة، فى الوقت الذى تنكر فيه نميرى للاتحاد السوفيتى وانزلق إلى التبعية الأمريكية وتهريب اليهود الفلاشا إلى إسرائيل

وممالأة السادات.. ومن ثم راح الخميسى يشن ضده حملة شعواء فى موسكو، عبر جمع التوقيعات واصدار البيانات وعقد المؤتمرات التى كانت تندد بتوجهاته المعادية للشعب السودانى وأمته العربية!

وفى ٦ سبتمبر ١٩٨١ قررت محكمة القيم آلتى تشكلت بقرار من الرئيس السادات بعد جلستها الأولى وجلستها الثانية فى ١٥ نوفمبر ١٩٨١ صدور حكمها باسقاط الحق المدنى عن عبد الرحمن الخميسى، بما يعنى أنه لم تعد له حقوق كأى مواطن مصرى، ولما وصله الخبر، لم يبتئس، واعتبره متسقا تماما مع نهج الردة عن ثورة ٢٣ يوليو، وكل المبادئ التى أعلنتها، والتى خاض الأهوال دفاعا عنها وكتب قصيدة يقول فيها:

كسروا يراعى
لكنى حفرت على جدران مصر
أناشيدى بأظفارى
دمى هنالك مكتوب
وإن طمسوا حروفه
أجيء فى الظلماء كالنار
وحيث هم صلبونا ،
كلما بزغت شمس،
رأى الناس فيها لون أشعارى!

وأحسب أنه كان محقا، فقد كتب القديس حياته التى نذرها من أجل مصر على كل جدار من جدرانها، وكلما بزغت شمس يوم جديد سيرى

الناس فيها لون أشعار تلك الشخصية الثرية النادرة، لكنه كإنسان ومناضل شريف لابد أنه شعر فى أعماق نفسه بوخز هذا الحكم الانتقامى، فأى دافع لديه للعودة إلى مصر وقد وقع فى براثن الظلم وعمى التمييز بين الحق والباطل و..

الأوكسجين في أنفه والسيجارة في فمه

وتقترب أيام الخميسى فى موسكو من لحظات النهاية المحتومة، ومن غير المعقول أن تكون قد مرت على إقامته فيها ثلاثة عشر عاما من دون أن ينبض قلبه بالحب أو أنه تاب وأناب عن طيش الحب، وهذا صحيح، فقد هام عشقا بشابة فاتنة من القوقاز تدعى هدايات كانت فى الخامسة والعشرين، وكتب فيها الكثير من الشعر المترع بأشجان الزهو والفرح وقد تخطى الخامسة والستين، وعندما لاحت الفرصة أمامها للزواج، أقام لها حفلا بهيجا وبارك زواجها، لكنها بعد أربعة أشهر عادت إليه مطلقة، فلما سألها عن السبب قالت: الحياة معه مملة. أما أنت فتضحك طيلة الوقت وتجعل كل من حولك سعيدا، ثم إنك شخص غريب الأطور، تخرج فجأة بسيارتك جائلا فى الساعات الأولى من الفجر.. وبيتك دائما يعج بمن تحبهم ويحبونك.. إننى لم أشعر بالملل معك ولو للحظة.. لقد كان زوجى شابا لكنه فى حقيقة الأمر عجوز جدا، أما أنت فكبير فى السن لكن..

وهنا قاطعها ضاحكا وقال: لكن شاب موش كده ولا إيه؟ ومرة أخرى أقام حفلة بهيجة بمناسبة عودة هدايات.

ومن مآثره أنه سخط سخطا شديدا على الصديق عبد الملك خليل مراسل صحيفة الأهرام فى موسكو إلى حد القطيعة لأسباب لا أعلمها، وفجأة اتصل بالخميسى ليلا وكان نائما، وطلب إيقاظه لأمر هام، ثم طلب منه إنقاذه من ورطته بما له من علاقات واسعة، إذ كان قد صدر قرار بترحيله من الاتحاد السوفيتى بشكل عاجل لأسباب غير معروفة.. وعبر نفوذ الخميسى ألغى القرار!

وعندما تقدم الباحث السورى توفيق سلوم لنيل درجة الدكتوراة، وفند آراء عدد من كبار الأساتذة السوفييت ووقف ضدها، أرادت الجامعة فصله، فانبرى الخميسى للدفاع عنه وشجب المصادرة على المطلوب من حرية الرأى، واستجابت الجامعة وعاد توفيق إلى موقعه ونال شهادة الدكتوراه!

ولم تكن مشكلات المصريين تنتهى، بعضهم كان يأتى إلى الاتحاد السوفيتى وليست لديه تأشيرة دخول، فيتصلون بالخميسى ويقتحمون منزله حتى يرتب لهم الإقامة وأوضاعهم المعيشية والدراسية، ومن أولئك فتاة مصرية تدعى ميرفت أقامت لديه فترة وكانت ثرثارة لا تتوقف عن الحديث حتى قال لها الخميسى: يا بنتى أنت مش ميرفت.. أنت ميرغت.. من الرغى! ولم يمض وقت طويل حتى وقعت فى حب طالب من اليمن الديمقراطى، وأراد الزواج منها، لكن قوانين بلاده فى ذلك الوقت لم تكن تسمح بذلك، وعبر جهود حثيثة واتصالات الخميسى برئاسة الجمهورية فى عدن سمحت الحكومة للعاشقين بالزواج!

هكذا كانت هموم الآخرين تشغله، وتؤرقه، أيا كانت تلك الهموم صغيرة أوكبيرة، وتنتزع من جهده ومن وقته الكثير، دون أن يعبأ بنفسه،

وكان ينخرط فى تلك المشكلات بحماس وانفعال، فينسى حتى مشاريعه الخاصة الفكرية أو المعيشية والعناية من باب أولى بصحته!

ومنذ عرفت الخميسى كان فى صحبته وخدمته دائما تابع أو أكثر يسيرون فى ركابه أينما ذهب رهن إشارته لعمل أى شىء وكل شىء، وفى موسكو كان له تابعان روسيان، أحدهما فكريكوف ــ الذى ذكرناه سالفا ــ للعناية بشئونه الخاصة جدا، وآخر لقضاء مصالحه فى الدوائر الرسمية، إذ كان خبيرا فى التعامل مع البيروقراطية السوفيتية، والثالث لبنانى أجرى عليه الخميسى عدة اختبارات حتى وجد له المكان الصحيح فى المطبخ.. إذ كان طباخا ماهرا !

وفى أخريات أيام الخميسى كانت أوضاع الاتحاد السوفيتى تتراءى له وهى تتغير إلى الأسوأ، ولم تكن علامات الأزمة التى أدت فيما بعد للانهيارات الضخمة قد تكشفت معالمها بعد، لكنه أدرك بداياتها عبر انتشار ظواهر الرشوة والفساد، وضراوة الحملات الغربية والأمريكية خاصة الإعلامية والنفسية للتشكيك فى التجربة الاشتراكية وتأجيج الانبهار بالنمط الرأسمالى، وبدأ ولع الشباب بالمصنوعات الغربية والسلع الاستهلاكية، ولم يكن يجد تفسيرا لهذه الظواهر السلبية سوى الكلفة الباهظة لسباق التسلح، وكان الخميسى **يطمئن على تبادل الرأى حول** هذه الظواهر الخطيرة مع صديقه الشاعر **الداغستانى الكبير حمزاتوف الذى** لمع فى العهد السوفييتى وخبا عنه الضوء مع **انهيار التجربة الاشتراكية** سياسياً واقتصادياً وأمنياً وخلقياً، وفى **شهادته التى نقلها أحمد الخميسى** فى كتابه عن حرب

الشيشان يقول: «بعد أن ظهرت لدينا السوق، أصبح ممكناً شراء كل شيء في روسيا! الضمير والبطولة، الموهبة والجمال، النساء والأطفال، الشعر والموسيقى، الأرض وكذلك الأمومة أحياناً. ودخلنا مرحلة من حرية الجوع الوحشية أصبحت فيها أسعار الطعام أغلى من حياة البشر، وهى مرحلة تحالفت فيها السلطة مع المجرمين ورجال الأعمال. وبدل الكثيرون فيها من مواقفهم. وربما يمكن للمرء أن يبدل قبعته ولكن ليس رأسه. لقد كانت للسلطة السوفييتية أخطاء. ولكن ما الذى قادنا إليه الوضع الحالى، لا شيء إنه الانهيار الكامل، بحيث أصبح كل من ولد ليزحف يطير، بينما صار يزحف كل من حبته الطبيعة قدرة على التحليق. لقد انقلبت الأقدام فى عصرنا الحالى إلى رؤوس، وغدت الرؤوس أقداماً، ولم يكن أن تنجز إلا بأكثر الوسائل وحشية — المرحلة الأولى لتراكم رأس المال اللازم للتحول. والمأساة هى أن نفس الممثلين القدامى قد غيروا المكياج، وشرعوا يؤدون أدواراً أخرى، وولدت بدلاً من الشمولية القديمة شمولية جديدة لولاها ما اشتعلت حرب الشيشان التى دخلت بها بلادنا مرحلة لا يدرى أحد كيف تنتهى أو متى تنتهى؟.

وربما لذلك كان من الصعب عليه أن يواجه انهيار التجربة التى كانت محط أحلام حياته كلها وهو الذى تغنى بها ذات يوم قائلا فى واحدة من أجمل قصائده فى أعقاب العدوان على مصر عام ١٩٥٦ قائلا:

قيثارتى كحكايتى نواحة صداحة
غنت أساى ومرتجاى: ظلامه وصباحه
وطفولتى لقما بأفواه الشقاء مباحه

وصباى يندب وهو فى ريعانه أفراحه
واليأس فجرنى عيونا باللظى سحاحه
وتكسر المجداف فى الدوامة المجتاحة
وتفردى فى البحر يطلق كالوحوش رياحه
أنا باسم كل التضحيات المورقات على الطريق

وعزائم الأبطال والثوار من شعبى العريق
أهدى لموسكو من بلادى غنوة الحب العميق
هذا الرحيق سكبته من مهجتى أصفى رحيق

موسكو وهذى بورسعيد على المدى
تزجى محبة قلبها الخفاق
أطلالها وبيوتها ودروبها
والبحر حاط أديمها بعناق
وضرائح الشهداء فى جنباتها
عبقت بتضحية الدم المهراق
حفظت لموسكو نجدة نشدو بها
وقفت مسيل الدم للأعناق
أغنيك ياموسكو فتشفى مواجعى
وتصبح أنوائى عزيف قياثر
ويحلو غنائى كالغرام مع الصبا
وتفرح أحلامى وتصفو مشاعرى!

ولم يكن الخميسى يلازم موسكو طيلة الوقت، فكان يشارك فى نشاط مؤتمر الشعب العربى فى ليبيا بصفته رئيسا للوفد المصرى، وكلما زار ليبيا كانت أبواب الأخ العقيد معمر القذافى مفتوحة لاستقباله، وصادفت إحدى زياراته وقوع العدوان العسكرى الأمريكى الغاشم على ليبيا، ساعتها كان فندق باب البحر مزدحما بالمراسلين الأجانب، وكان الجميع يتوقعون بل يترقبون تدخلا أمريكيا، وفى ذلك الوقت كان الخميسى يغط فى نوم عميق بغرفته فى الطابق السابع، بينما ابنه أحمد الخميسى يدردش فى بهو الفندق مع بعض الأصدقاء. وفجأة ارتج الفندق وتطاير زجاج الأبواب والنوافذ، وصعد سريعا إلى غرفة أبيه، ناداه بصوت هادئ: ياقديس.. ياقديس. فتململ القديس متمتما: فيه إيه ياابنى؟ قال له بهدوء: لا أبدا.. بس الأمريكان بيضربوا طرابلس والناس كلها بتجرى من الطوابق العليا لتحت.. فلم يأبه القديس وتمطى قائلا: طب وبتصحينى ليه؟! ولم يتمالك أحمد نفسه فصاح: الله! بأقول لك الضرب شغال والناس كلها بتهرب من الفندق على الشارع. تمطى ثانية وقال: ويعنى إنت ضامن لو نزلنا للشارع مش ح نموت؟ فرجاه قائلا: عشان خاطرى طاوعنى واعمل زى الناس. فنهض ببطء وأصر على أن يدخل الحمام أولا ثم خرج ببطء وهو يدخن سيجارة بينما النزلاء يهرولون فى ممرات وسلالم الفندق وبعضهم عرايا. ولم يكن الخميسى يفقد حسه الساخر حتى فى أشد لحظات الخطورة ومن ثم نظر إلى أحدهم وقال ضاحكا: شوف الراجل اللى هناك ده. عامل إنه بيغطى الولية العريانة، وآهى فرصة ياخد له نظرة على الماشى. أصل الانسان دنىء! حتى فى الظروف الحرجة اللى زى دى مايعتقش!

وكان الخميسى يتجول فى طرابلس ليلا تحت وابل قصف الصواريخ الأمريكية كأنها لا تعنيه فى شىء، ثم يعرج على مبنى الإذاعة هناك ليشيع الحماسة بين المذيعين بسخرياته ونكاته. بعدها لم يتردد على ليبيا سوى مرة واحدة، وبينما كان مستغرقا فى الكتابة، دق تليفون غرفته بالفندق، وكان عليه أن يرتدى ملابسه بسرعة للقاء العقيد القذافى ومعه تيسير قبعة وعدد آخر من القيادات الفلسطينيية. حيث أقلتهم السيارة إلى مكان صحراوى ناء، ومن هناك ركبوا طائرة حربية إلى مدينة سرت حيث استقبلهم القذافى فى خيمته، فلما رأى الخميسى ربت على كتفه وقال: مرحبا يا شيخ. ونظر لمن حوله وقال: هذا الرجل أبى.. وكلما ضاقت الدنيا بى أحب أن أراه، وأن أثرثر معه فى أى شىء ليس بالحتم فى السياسة.

وفى رحلة العودة بالطائرة من سرت أحس الخميسى مع ارتفاع الطائرة بأن رئتيه تتجمدان وأنه غير قادر على التنفس.. فما كان من قائد الطائرة إلا أن هبط إلى ارتفاع منخفض انقاذا لحياته، وبعدها حين عاد إلى موسكو قال: هذه آخر سفرة لى! وبدأت وطأة المرض تشتد عليه، وبعدها كتب الروائى جمال الغيطانى الذى زاره فى تلك الفترة يقول فى يومياته بصحيفة الأخبار: صحبتنى أولجا فيلاسوفا مستشارة الأدب العربى باتحاد الكتاب إلى منزله، سنوات بعيدة لم ألتق به، منذ رحيله من مصر فى أوائل السبعينيات، والخميسى بالنسبة لى كالأب الروحى، فقد كان بيته أول بيت يفتح لى فى رحلتى الطويلة التى بدأت منذ أكثر من ربع قرن فى عالم الأدب، تعرفت على زوجته السيدة شفيقة جبر، وكانت لى خير دليل وأستاذ فى بداية عمرى، وارتبطت بابنها أحمد الخميسى بعلاقة وثيقة استمرت رغم ظروف

عديدة، عرفنا فيها البعاد والافتراق، ولكننى بعد أن التقيت به فى موسكو مؤخرا بعد فراق استأنفنا الحوار وكأننا كنا صحبة بالأمس. موسكو مجللة بالثلوج، والطريق الى البيت بعيد، طويل، والضباب يغطى الموجودات، قابلنا الخميسى مرحبا، عانقته، وتنسمت رائحة الزمن القديم، لاحظت تمهل خطواته وضعف صوته، بل أقول إننى رصدت دبيب النهاية فى مخارج كلماته، كان قد أصيب بأزمة قلبية، وقام الأطباء بتركيب منظم لضربات القلب له، ولم أكن قادرا على تصوره بدون حيويته المتدفقة، ومزاحه، وحكاياته الساخرة التى لا تنتهى، عاش حياة عريضة، وعندما دنت حياة بابلو نيرودا من نهايتها قال: أشهد أننى عشت.

وأظن أن الخميسى قد عاش حياة عريضة، زاخرة، أعطى فى الشعر والمسرح والموسيقى والتمثيل واكتشف عشرات المواهب الأدبية والفنية وكان حضوره طاغيا، وكان ينتمى إلى عصر اندثر، ولم يتبق منه فى زماننا إلا شخصان أو ثلاثة، طلب من ابنه أحمد أن يدفن بجوار شجرة فى ريف الدقهلية الذى ولد به، وأظنه مات بالحنين إلى القاهرة، خاصة المنطقة القديمة منها. وعندما حان انصرافنا قال لى: أوصيك أن تذهب إلى الفيشاوى وتذكرنى هناك. قلت مغالبا شعورا أسيان: ستجىء أنت وصحبك إلى هناك. هز رأسه هزة من يدرك أن هذا محال. ولابد أن الإنسان يستشعر نذر الرحيل. عند الباب لاحظ أننى بدون كوفيه صوف، قال بصوته الحازم العميق، الأبوى : لابد أن تحمى صدرك وعنقك، هل جننت؟. قلت له: إننى أحتمل. قال: بلاش جنان.. خذ. أعطانى كوفية صوف ثقيلة، وعند المصعد ودعته، ولم أكن أدرك أنها المرة الأخيرة.

ومضت أيام وأحوال القديس الصحية تتفاقم تباعاً، إذ كان يشكو من ضعف فى القلب، وضعف فى كفاءة الرئتين بسبب الدخان، وسرطان فى البروستاتا. وقد نجح الأطباء فى مستشفى اللجنة المركزية فى التحكم فى سرطان البروستاتا بالعلاج الكيميائى، أما الرئة فلم يكن لها حل سوى الإقلاع عن التدخين وهو الأمر الذى رفضه الخميسى بشكل قاطع. وبينما كان أنفه موصولا بأنبوبة الأوكسجين، كانت السيجارة لا تغادر شفتيه، وقال له الأطباء: لم يبق أمامنا سوى أن نقوم بعملية غسيل للرئتين. فترجم له ابنه مايقولون. فصاح به دون تردد: قل لهم أن يفعلوا ما يريدون فورا.. لا أنا خائف ولامتردد. ثم نظر إليه وقال: إسمع يا أحمد إذا حلت نهايتى فقم بدفنى إلى جوار شجرة فى المنصورة.. أو ازرع لى شجرة إلى جوار قبرى.. لأننى سأعود عصفورا ولابد أن أجد مكانا ياأولاد الكلب حتى أغنى من فوق أغصانه.

تلك كانت آخر سخرياته. فقد دخل بعدها فى غيبوبة استمرت نحو شهرين حتى أسلم روحه لبارئها فى الأول من أبريل ١٩٨٧ ، حيث شيعت جنازته من جامع عمر مكرم بالقاهرة فى موكب مهيب يليق برجل عاش حياته بالطول والعرض، وأعطى من فكره ودمه وأعصابه ووقته وماله الكثير من الإبداعات، والكثير من خيره الممدود للناس، وسجل لنفسه مكانا مرموقا وسط المناضلين الوطنيين والقوميين العالميين من أجل أن ترتفع رايات العدل والحرية والمساواة لكل بنى الإنسان!

شباب في عز الشيخوخة

تلك كانت سيرة حياة أستاذنا الشاعر والفنان عبد الرحمن الخميسى، التى حاولت صياغتها وفاء لذكراه بمداد الحب، بأجوائها المثيرة، ومتناقضاتها العجيبة، وتفاصيلها الدقيقة، ومغزاها العميق.. لكنها تظل رغم ذلك مجرد رؤية أحادية، الأمر الذى يستدعى استكمال ملامح الصورة الكلية الأشمل عبر إفساح مساحة أوسع لتعددية الآراء وتباين الرؤى التى بادر إليها أصدقاؤه وتلاميذه ومعاصروه، ولعل الشهادة أصدق ما تكون بعد رحيل المشهود له أو عليه، حيث لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا حولاً ولا طولاً يستدعى النفاق أو المداهنة، خاصة أن تلك الشهادات تزامنت فى عفويتها مع لحظات فراقه إلى غير رجعة والوداع إلى غير لقاء، فماذا سطروا من الكلمات وماذا قالوا عنه

أحمد بهاء الدين ـــ يوميات ـــ صحيفة الأهرام:

دهشت عندما قرأت فى نعيه أنه توفى عن سبعة وستين عاماً فقط، لا لشيخوخته، فقد كان أكثر من عرفت شباباً ونشاطاً وحركة، ولكن لكثرة ما

أنتج، وكثرة ما عاش، وكثرة ما سجن، وكثرة ما سافر فى أنحاء الدنيا، وكثرة ما ترك من الأبناء والبنات فى شتى عواصم العالم.

كنت أقرأ له صفحة أسبوعية كاملة فى جريدة المصرى وأنا مازلت طالباً، فلابد أنه بدأ الكتابة فى سن مبكرة، ومازلت أحفظ له كلمات سجلتها ولم يكتبها، عندما قالها لى فى مكتبى بمجلة صباح الخير ولعله قالها لغيرى ولم تعلق بذهنه:

عشت أدافع عن قيثارتى.. فلم أعزف ألحانى!

وفى هذه الكلمات يصف الخميسى محنته ومحنة جيل بأكمله من الفنان والكاتب والعالم والمهندس والطبيب، محنة مجتمع، البيروقراطية فيه تتحكم فى العمل والعلم والإبداع، فلا ينطلق المجتمع بالسرعة التى فى طاقته، لأن صناع القيود والأغلال، وواضعى العقبات، والحاقدين على النبوغ، هم القوة الغالبة، وهذه أبرز علامات المجتمع المتخلف.

يوسف إدريس ـــ من مفكرتى ـــ صحيفة الأهرام

كان قوياً عملاقاً مقاتلاً إلى ألف عام، وكان فمه مفتوحاً على آخره، مستعداً لابتلاع الحياة كلها بكل ما فيها من طعام وشراب وجمال.. ابتلعته الغربة وإلى أربعة أركان الكرة الأرضية مضى يتسلمه ركن ليرفضه ركن، وهو قوى مقاتل وطنى عنيد، هذا الشاعر.. المخترع.. الموسيقى.. الذى قهر من قهرنا جميعاً، ومن بطط بحذائه الغليظ ثقافتنا وإنسانيتنا..

محمود السعدنى ـــ فنان وحيد انتصر بلا سلاح ـــ مجلة صباح الخير:

قصة حياة عبد الرحمن الخمّيسى واحدة من أعجب وأغرب قصص الفنانين والشعراء فى تاريخ مصر.. فالخميسى هو ابن سيبويه المصرى الذى

كان يركب حماره بالمقلوب ويطوف فى الأسواق ويهجو الشعراء ويرميهم بأشنع التهم.. وهو عبد الله النديم لو كانت الظروف مناسبة والريح مواتية، وهو بيرم التونسى لو كانت القضية فى زمنه هى المحتل المستعمر و الاستقلال التام أو الموت الزؤام.. وستظل أبرز حسناته اهتمامه بالمواهب الصاعدة.. فهو الذى اكتشف سعاد حسنى.. ووقف إلى جانب عادل إمام.. وأخذ بيد يوسف إدريس وعبد الرحمن شوقى وعشرات آخرين اختلفت حظوظهم. وهناك عشرات من الأغنيات التى رددها الشعب المصرى فى فترة الثلاثينيات وبداية الأربعينيات كانت من تأليف الخميسى وإن أذيعت بأسماء مؤلفين آخرين..

أول مرة رأيت فيها الخميسى كانت فى الأربعينيات.. حضر إلى قهوة محمد عبد الله ذات مساء، وقضى السهرة فى ركن أنور المعداوى، وأشاع جواً من البهجة والمرح، وعزم الشلة كلها على العشاء، ومنح جرسون القهوة مبلغاً كبيراً من المال ودس فى يد الولد الذى قام بتلميع حذائه جنيهاً كاملاً، وأعطى عبادة ــ مجنون قهوة عبد الله ــ مبلغاً من المال واكتشفنا فى الصباح أن المبلغ كان خمسة جنيهات صحيحة. المهم أنه غادر المقهى فى ساعة متأخرة من الليل وقد وهب السعادة للجميع.. حديثاً وطعاماً وهبات.

وأحببت الخميسى منذ أول لقاء، كان نموذجاً للفنان الذى رسمته فى خيالى: كان شديد الزهو، شديد البساطة، عظيم الكرم، دائم الفلس، وكان يمشى دائماً فى الطريق يتبعه أكثر من شخص يلازمونه كظله، ويطيعون إشارته، وكان حريصاً على أن يرتدى ملابس أنيقة وغالية الثمن، وعلى

العموم كان الخميسى فى مظهره وسلوكه يختلف عمن عرفت من الشعراء والأدباء والفنانين.. فى ذلك الوقت كان الخميسى واحداً من أشهر الكتاب فى مصر على الإطلاق، إن لم يكن أشهرهم، كان ينشر قصصاً مسلسلة فى جريدة المصرى، واستطاع بقصصه أن يرفع توزيع الجريدة إلى ما فوق المائة ألف نسخة، وعندما دخل معركة مع محمد التابعى، وكان التابعى عميد كتاب الصحافة المصرية وقتذاك، استطاع الخميسى أن يقهر التابعى وأن ينتصر عليه!

وبالرغم من كل الفنون التى مارسها الخميسى، إلا أن الذى سيبقى من الخميسى فى النهاية هو شعره العظيم القديم الذى كتبه قبل أن يتحول إلى شاعر واقعى، وهو فى هذا الشعر يبلغ قمماً عالية ويقف مع على محمود طه وإبراهيم ناجى وأحمد فتحى وغيرهم من شعراء هذه المرحلة.. وسيبقى منه أيضاً دوره المتميز فى فيلم الأرض ، دور الشيخ يوسف.. وسيبقى منه أيضاً دور إسماعيل بيه فى مسرحية عزبة بنايوتى ، وتبقى تحفته الشعبية الرائعة حسن ونعيمة .. ثم تبقى قصة حياة الخميسى نفسها، قصة الفنان الذى تحاصره ظروف أقوى من إرادته، وأعتى من طاقته، ولكنه يقهرها جميعاً.. ولو أن الخميسى تفرغ لكتابة تاريخ حياته كما حدثت وبالتفصيل، لكنا سنحصل بالتأكيد على سيرة فنان تقترب من طفولة جوركى واعترافات چان چاك روسو، وأيام طه حسين، فالظروف التى صارعها والتجارب التى خاضها والأهوال التى صادفها لابد أن تنتج فى النهاية عملاً فنياً رائعاً ومدهشاً. قصة فنان وحيد، واجه أعداء كثيرين لكنه لم ينسحب ولم يتوار، بل قرر أن يخوض المعركة ضد الجميع وأن يقاتل بلا سلاح، والأغرب أنه انتصر!

حسين فهمي ــ نحو الغد ــ أخبار اليوم:

مضى الشاعر عبد الرحمن الخميسى ووارى التراب منذ أيام. عبرت جنازته بحق عن مكانة شاعر مبدع ومناضل وطنى عظيم.. مضى الخميسى بعد حياة حافلة بالفن والسياسية والحب والجمال والزواج والبنين والبنات.. وكان فناناً من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. تتخاطفه الصحافة والسينما والشعر والموسيقى والإذاعة كما يتخاطفه الأصدقاء، فقد كان جليساً محبباً وصديقاً مخلصاً مولعاً بالدعابة! خفيف الظل كريماً غاية الكرم.. وكان حلو الحديث وارتجال الشعر.. ولشد ما اضطرمت نفسى بالأسى عندما علمت أنه صاح وهو يلفظ أنفاسه: ادفنونى بجانب شجرة فى المنصورة.

كامل زهيرى ــ من ثقب الباب ــ صحيفة الجمهورية:

مات الشاعر عبد الرحمن الخميسى فى الغربة بعيداً عن مصر، وقد اختار منفاه الاختيارى منذ خمسة عشر عاماً وتنقل بين بغداد وموسكو وبيروت وطرابلس وروما وباريس، واستقر به أخيرا المقام الذى ظنه مؤقتاً فى موسكو.

وقد عرف جيل الأربعينيات الخميسى شاعراً فذاً جياشاً متدفقاً مجدداً، بدأ مبكراً فى مجلتى الرسالة والثقافة أيام أحمد حسن الزيات وأحمد أمين، ولمع كاتباً لألف ليلة وليلة الجديدة على الصفحات الأخيرة فى جريدة المصرى ثم صفحات الجمهورية ومجلة الهلال، وهو ابن المدرسة الرومانسية المتجددة مع موجة على محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل، ومحمد فتحى، وطاهر أبو فاشا، وعبد الحميد الديب. وكان تلميذاً مخلصاً لخليل مطران، ومن أصدقاء إبراهيم ناجى.

وكانت حياته أروع أشعاره، وكان رومانسياً عاشقاً للحياة والمرأة والطبيعة، وكانت قدرته فذة على الصداقة، وبقدر ما كان بعيداً عن تفكير الشاعر كامل الشناوى كان قريباً إلى قلبه، وكان يختلف فى السياسة مع الشاعر محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان الأسبق، وكان محجوب هو الذى سعى لعبد الناصر ليفرج عنه بعد اعتقاله.

وكانت موهبة الخميسى فى أذنه، فقد كان موسيقياً فى كل شيء، وكتب كل ما يتصل بالأذن، فكتب الشعر وله فيه دواوين، وكتب الموسيقى وله فيها بضعة تسجيلات، وكتب للمسرح وله ثلاث مسرحيات، كما كتب للسينما، وألف ومثل وأخرج عدة أفلام منها فيلمه الأول حسن ونعيمة لأن موهبته كانت فى فنون السمع. وكان الخميسى راوية جذاباً وممتعاً، تمتلئ أحاديثه بأحداث حياته الصاخبة، وتمتلئ بالمفارقات والطرائف، كان له حضور مذهل لو جلس إليه ملوك الكلام لارتضوا أن ينزعوا تيجانهم من فوق رؤوسهم ليضعوها فى صمت قرب أرجلهم، لأنهم لا يملكون سوى الإنصات إليه.

كان متجدد الحيوية والشباب لا يظهر عليه السن، وحين سأله أحد الفضوليين حين قابله بعد انقطاع سنوات عديدة، لماذا لا يبدو عليك العمر؟، كان رد الخميسى: جربت كل شيء فى الحياة ما عدا الحقد. وقد كان رحمه الله شاعراً مجدداً متجدداً، وكانت حياته أروع أشعاره، وقد مات بعيداً عن مصر، ولم يدركه الجيل الجديد، ومات فى الغربة البعيدة، وكانت وصيته الأخيرة أن يدفن فى مصر تحت شجرة مصرية ترويها مياه مصرية.. وكانت هذه الوصية هى أروع قصائده.

أحمد بهجت ـــ صندوق الدنيا ـــ صحيفة الأهرام:

الخميسى.. مزيج عجيب من الشخصيات المتداخلة المختلفة المتعددة.. إنه شاعر، يجيد العزف على البيانو، وهو كاتب قصة ينصرف أحياناً إلى اللعب كما يفعل الأطفال، وهو إذا لعب قام بتأليف فرقة مسرحية، أو أخرج فيلماً سينمائياً.. أو كتب قصيدة من الشعر.. وكان فى كل ما يلعبه سيداً من سادة اللعبة، إن حقل الفنون جميعاً ملعبه، وهو يتألق فيه مثل بيليه.. أو مارادونا، لكن قلقه الفنى لا يجعله يستقر على حال أو يأنس إلى فن بعينه.. ولهذا تنقل بين القصة والشعر والمسرح والسينما، وبرز فيها جميعاً، وكان يهجزها أحياناً وينعزل سنوات يتفرغ فيها للتأمل، وكان أصدقاؤه يسمونه القديس.. وهى تسمية أقرها هو فى البداية واعتمدها فصارت إشارة إليه وعنواناً له.. كان قديساً بمعنى من المعانى.. هو الطيبة الجوانية العميقة، ورغم تمجيده للإنسان وحريته فقد كان الصوفى المستسلم داخله يرى ما لا يراه الإنسان البوهيمى المنطلق. كان حساساً.. رقيق المشاعر.. صديقاً للحياة والإنسان والحيوان والجماد، إنه لا يكشر فى وجه أحد، حتى لا يزيد من كمية الكآبة فى الأرض، وهو يعرف العلاقة بين القمر وحركة المد البحرى والجزر، ويدرك أن الكون كله يرتبط بعلاقات غامضة من الانسجام والود الذى يبلغ أحياناً درجة الحب العميق.

وقد لعب الخميسى فى مصر دوراً فى تنوير الحياة الأدبية يشبه دور برتراند راسل فى المجتمع الإنجليزى.. لم يكن راسل ينتمى لحزب أو جماعة أو هيئة أو مؤسسة، كان مؤسسة بمفرده. وكذلك كان الخميسى.. لقد

حسبه اليسار منه لأن فى كتاباته تمجيداً للإنسان ووقوفاً مع المستضعفين أو الكادحين.. واعتبره اليمين منه لأنه كان يؤمن بالقوة العظيمة الخالقة.. ويؤمن بتوجيهها لمصائر البشر.. ولكنه كان فى الحقيقة إنساناً حراً، يؤلمه ما يقع فى الحياة من ظلم، ويقف ضد هذا الظلم، ويصرخ فى وجهه، ويكتب الشعر ضده، ويحرض الناس عليه.. وبسبب آرائه هذه.. وهى آراء تنبع من ذاته وقناعاته، قضى الفترة الأخيرة من حياته مغترباً فى مدن الأرض المختلفة حتى انتهى به المطاف إلى موسكو.. وهناك.. فى المدينة التى لم تعد تؤمن بالقديسين.. مات القديس.. وأوصى أن يدفن فى مصر

موسى صبرى ــ مجلة آخر ساعة ــ ١٥ أبريل ١٩٨٧:

كانت الأخبار قد جاءت من موسكو تحمل نبأ وفاة عبد الرحمن الخميسى ووصيته بأن يدفن فى أرض مصر..

وقد عرفت الخميسى فى الخمسينيات وهو يكتب فى الصفحة الأدبية فى صحيفة المصرى.. وكان قد اتجه إلى الفكر اليسارى.. وعاش حياة غريبة أعطاها للسياسة والأدب والفن.. كتب القصة وألف المسرحية ومثل وأخرج ونظم الشعر ولحن الأغنية، بل ونظم مقطوعات موسيقية وجاب بلاد العالم وتزوج كثيراً! وكان شخصية جذابة وفريدة.. وقد عاش حياة غير مستقرة فيها القلق والألم والاستخفاف بالحياة.. وله آثار أدبية يجدر أن تجمع..

كان فناناً هائماً.. لا يغضب أحداً.. وعندما لم يجد الحب فى امرأة.. أحب شجرة.. ونظم فى عشقها شعراً ملتاعاً! ويصح القول إن الخميسى كان نموذجاً لايتكرر!

نبيل زكى ـــ أخبار اليوم ـــ ٥ مايو ١٩٨٧

لقد افترقت عن الخميسى مرات عديدة، ولكنى كنت أشعر باطمئنان لأنه يوجد فى مكان ما، مهما كانت المسافات، يدب على الأرض بقوة، ويتحدث بصوته الجهورى المعبر، ويشير بكلتا يديه أمام زواره لينقل إليهم عدوى حماسه وإصراره المستمر على الاقتحام والتحدى.. وعندما يرحل الخميسى عن عالمنا.. لابد أن أشعر بخلل شديد فى نظام حياتى، ذلك أن رحيله أحدث فجوة كبيرة فى هذا النظام الذى كان يرتكز إلى وجوده فى مكان ما.. يتكلم ويفكر ويعمل

أحمد هاشم الشريف ـــ الدفء للأكواخ والنار للقصور ـــ صباح الخير:

هذا الأسبوع ودعت مصر واحداً من أنبغ أبنائها، هو عبد الرحمن الخميسى، رحل الخميسى عن دنيانا.. وترك لنا دنيا كاملة.. صندوق دنيا من القصص والأشعار والموسيقى والمسرحيات والأغانى وأفلام السينما وتمثيليات الإذاعة وأحاديث السمر التى شغلت ليالى القاهرة.. ترك الخميسى لنا اللحن الحزين لكنه أخذ الناى والقيثارة.. ترك الصوت الرخيم وأخذ حنجرته الذهبية.. ترك الأوراق واحتفظ بالقلم اللاهب.. الذى كان يشيع الدفء فى الأكواخ ويضرم النار فى القصور..!

وقصة الخميسى هى قصة العاصفة التى هبت من الريف المصرى أيام القصر والاحتلال.. والتى عبر عنها عنوان كتابه رياح النيران .. وعبقرية الخميسى هى عبقرية الفلاح المصرى التى نضجت على نار الحرمان والمعاناة.. جاء الخميسى من قريته إلى القاهرة ليضرم النار فى الأدب

الرسمى.. ومعلقات المديح فى الحكام.. ويعلن على الملأ أن حسن ونعيمة أهم من روميو وجولييت .. وكان الأدب الشعبى وقتها محتقراً.. وممنوعاً من الدراسة فى الجامعات.. وكانت الكتابة وقتها حكراً على أصحاب الأقلام الذهبية من أبناء الباشوات وحملة الدكتوراه والعائدين من البعثات.. ولكن عبد الرحمن الخميسى القادم من القرية دون أن يكمل تعليمه.. كسر هذه القاعدة ومن لا شيء أصبح شيئاً عظيماً.. وبدون عائلة مرموقة تسانده انتزع مكانته من أولاد العائلات.. ومن الفقر واليتم والتشرد والضياع اعتلى عرش الأدب.. كما فعل ملوك القلم الفقراء.. وخلال سنوات قليلة أعاد الخميسى كتابة ألف ليلة وأصدر دواوين شعر ومجموعات قصص.. وترجم لموباسان وتشيخوف وكتب سيرة المكافحين الذين صعدوا مثله من القاع.. ولمعوا فى سماء السياسة والفن والأدب.. ولم تمض سنوات قليلة من أواخر الأربعينيات إلى أوائل الخمسينيات حتى كان الخميسى بإرادته وحدها.. نجماً لامعاً فى سماء الأدب.

والذين يعيشون دنيا الثقافة هذه الأيام.. دنيا الفيديو والتليفزيون.. لا يعرفون سر عاصفة الخميسى.. ولا سر تنوع انتاجه فى شتى مجالات الفن والأدب والسياسة.. وقيامه بالتمثيل والتأليف والإخراج.. وتكوين الفرق المسرحية التى كان يتجول بها فى أقاليم مصر وكفورها ونجوعها.. لقد أدرك الخميسى من وقت مبكر أن الأديب وزارة ثقافة وهيئة مسرح وثقافة جماهيرية وفرقة موسيقية.. ليس الأديب هو الكاتب الجالس القرفصاء.. وإنما هو الفنان الشعبى الجوال.. الذى يروى عطش الملايين المحرومة من الفن.. الفن الذى يخاطب وجدانها.. قبل أن يخاطب وجدان المترفين من

الحكام.. الفن الذى يوقظ العـقـول ويلهب الضـمـائر.. ويكشف عن المواهب.. وليس فن التنويم المغناطيسى وألعاب الحواة.. وفى وقت كانت الشخصية القومية مهددة فيه بالزوال فى عهد الاحتلال.. وأولاد الباشوات يتوارثون الأدب أباً عن جد.. كان الخميسى يقول: إن الفتى من يقول ها أنا ذا.. ليس الفتى من يقول كان أبى .. واستطاعت عاصفة الخميسى.. أن تقتلع الكثير من النباتات السامة والطفيلية والشيطانية.. وتحرث الأرض لبستان الاشتراكية.. هذا البستان الذى التفت إليه عبد الرحمن الخميسى بعين دامعة وهو يودعه الوداع الأخير.

رحم الله عبد الرحمن الخميسى.. بقدر ما أعطى لأرض وطنه.. وبقدر عشقه لهذه الأرض.. فبعد رحلة التجوال والغربة والعطاء الوفير.. آن للمسافر أن يستريح.

خيرى شلبى ــ بورتريه ــ مجلة الإذاعة والتلفزيون:

وجه فلاح مصرى معجون بقشدة بندرية، لونه كانعكاس الشمس على شواشى السنابل، كالشاى بالحليب، كالفطير المشلتت محمر بنار الفرن مدهون بالزبد.

جبهة منحولة من الأمام كربوة الساقية، يحفها شعر كالحلفاء المحترقة، كسور مزروع فوق أسلاك شائكة فى مدخل جنينة ريفية فيحاء تنثر من فيضها على الربوة قطوفاً طائبة سائبة تعرض نفسها لمن يطلبها من المارة.

لكم تساقطت من هذا الرأس أفكار عابرة تناثرت فى عرض الطريق وهى الثمينة النادرة، ولكن لا بأس ما دام هناك من يجمعها ويستفيد منها.

الأنف مستطيل نازل من هذه الجبهة ربوة الساقية، كأنه ليس أنفاً بل هو الماسورة الممتدة ما بين بئر الساقية والترعة مصدر المياه. هذا الأنف الذى طالما شمخ فى وجه الزمن النذل، وشج صفاقة الأصدقاء والأوغاد، كان مع ذلك يندس فى مصادر الحياة وبين مشاكل البشر ومآسيهم ومكامن عللهم.

أنف يشم رائحة العطش فى الآخرين تحت جلودهم، فيعمل عقله فى محاولة إروائهم بصافى المعانى وعذب الآمال، يوقظ فيهم الرغبة فى البقاء، فى الطموح، فى النماء.

فوق الأنف منظار.. أسود العدستين.. كقنطرة.. كخيمة أعدت لحارس هذه الحديقة الرأس.

وإنها لحديقة وأى حديقة، تحوى كنوز الأرض كلها من صنوف الأشجار والنخيل، فيها عنب وزيتون وتين وخوخ ورمان ونبق ومشمش وبرقوق وتفاح وبرتقال ويوسفى وجوافة وعناب وتوت وجميز. إذا أنت غافلت الحارس واخترقت خيمته الغامقة الغامضة ونفذت إلى عينيه رأيت العجب: ترى حصيرة ومخدة، وقلة ماء مكسورة الحلق، ووابور جاز أعرج، وعدة شاى قوامها براد مسود بهباب القوالح له يد من السلك المبروم ملفوف حول الحلق، وكوبات من الزنك، وترى مسطبة خارجية ودهاليز مظلمة، وغرفة معيشة وحظيرة دواجن وزريبة مواشى، وسبت العيش المصنوع من الخوص ملآن بالفتافيت وبقايا الجبن القريش والمش والفجل والجعضيض، وولدان عرايا مصابين بالبلهارسيا والانكلستوما مكرشين مسلوعين معلولين.

قوة الإشعاع الصادر من هاتين العينين لابد أن يصيبك بالدوار.

لابد أن تفحص عينيك لعدم قدرتهما على الصمود أمام هاتين العينين، فما بالك لو خرج صوته؟ يالها من رهبة. لعله ناعورة السواقى، لعله صوت الطنبور فى حالة ذكر صوفى أخذته الجلالة فانبرى غير آبه بيد الفلاح التى تديره يكاد يفنى ذاته فى شخصية المياه يشتاق أن يلثمها وهو بعد طالع منها، فإن لثمها اشتاق للغوص فيها.. لعله جعير الفلاحين فى الحقول والمدى أمامهم رحب وسيع. هو صوت الطبيعة دائماً جهم جهير، مطرب مرعب رهيب، مشمس ومطير، عاصف هادر جبار، فما بالك لو استمعت إلى هذا الصوت يلقى شعره؟ لابد أن ترتعش فى قعدتك وتشعر أنك صرت جزءاً من سيمفونية الطبيعة بكل ما فى البداوة من بلاغة وبيان ووضوح.

ذلك هو وجه الأديب الكبير الراحل عبد الرحمن الخميسى وذلك هو صوته كأنما حديقة رأسه لا يؤمها سوى أنواع فريدة من الطيور.

عرفت الوجه مبكراً على غلاف أحد كتبه بريشة فنان كاريكاتورية أظنها ريشة زهدى، وأما الصوت فقد تعرفت عليه بعد ذلك مباشرة عبر جهاز الراديو الوافد على قرانا فى أواخر الأربعينيات، فكان يلقى شعره فى الراديو، لا أزال حتى هذه اللحظة أرتعد من هدير صوته فى داخلى فى ذلك الزمن البعيد وهو يلقى شطرة بعينها: ماذا تريد الزعزع النكباء.. من راسخ أكتافه شماء؟ حيث كان صوته فى الإلقاء يتحدى هذه الزعزع النكباء يريد أن يخيف هديرها، أن يعلو عليها، يحتويها، يركبها ليطاول العلياء.

كان أبى يقرأ كتاباً له بعنوان المكافحون بشغف هائل، ويبدو لى كأنه يستحلب الألفاظ والمفردات بصوت عال يحولها إلى كائنات حية، وكنت

أظن أن الفضل فى سحرها يرجع لطريقة أبى فى قراءتها باعتباره خطيباً مفوهاً، لكننى حينما تقدمت فى حصص المطالعة واقتحمت هذا الكتاب وجدتنى أقرأ بنفس الطريقة أى أننى أستطعم المفردات وأفخمها تفخيماً، وما لبثت حتى أدركت أن هذه المفردات رحيق مكثف من عصير الانفعالات الإنسانية لا تعرف إن كان شعراً أم نثراً أم غناء باعثاً على الطرب. ولكن ما أكدته التجربة أن كل من قرأه أو استمع إليه جاءه نفس الشعور بالطرب الذى يحسه إذا استمع لأم كلثوم أو الشيخ على محمود. طرب يملأ العروق بالمشاعر الطازجة الساخنة التى تحرك المستمع نحو الصعود والتطلع إلى آمال عراض، ولا غرو فهذا الكتاب يروى سيرة حياة بعض العظماء الذين كافحوا وناضلوا ضد عوامل الظلم وعوادى الفناء وخلدوا فى النهاية نبل الإنسان وجبروته وجدارته بسيادة الكون.

إناس كافحوا بين صفحات هذا الكتاب الجميل من أجل فكرة أو مبدأ أو عقيدة أو حق فى الحياة والتطلع والصمود. وأشهد أننى استفدت من هذا الكتاب وحده أضعاف ما تعلمته من غيره من الكتب، تعلمت كيف أفرز الناس وكيف أضع يدى على الجواهر الحقيقية داخل الناس الملآنين بالكآبة والإرهاق، وكيف ينبغى ألا يشغلنى جمال الصدفة عن اللؤلوة الثمينة الكامنة بأعماقها.

من هنا بدأت صلتى الحقيقية بعبد الرحّمن الخميسى، كان من الكتاب الذين ملأونى شغفاً باللغة العربية وولعاً باكتشاف أسرارها وجمالياتها.

عبد الله الطوخى ـــ تعالوا نجلس فى خشوع ـــ مجلة صباح الخير:

ها قد أصبح لك مزاراً يا عبد الرحمن كما طلبت، وسط خضرة الحقول، ونسمات بحر المنصورة ترف فوقه بالليل والنهار، ضم الأصدقاء مطلبك وأنت فى موسكو.. ضموا أمنيتك إلى صدورهم وحققوها لك، فأقاموا مدفناً جميلاً حيث شئت.. وكتبوا فوق رخامة ناصعة البياض.. هنا يرقد المناضل عبد الرحمن الخميسى الذى عاش مناضلاً من أجل وطنه .. وأضافوا أيضاً كلمتك التى لخصت دراما حياتك عشت أدافع عن قيثارتى.. فلم أعزف ألحانى .. وكنا جموعاً فى استقبالك يا عبد الرحمن فى مطار القاهرة.. ثم فى مدخل المنصورة على كوبرى سندوب.. وسرنا وراءك فى الموكب الجليل بكورونات الورد وسعف النخيل.. مزوقاً فى موتك كما كنت مزوقاً فى الحياة.. ألست أنت صاحب ما تزوقينى ياماما أغنية الأفراح البسيطة التى ستعيش طالما عاش الناس البسطاء أفراحهم..

وغريب ذلك الشعور الذى انتابنى وأنت تدخل مرقدك.. شعور بأنك داخل لتنام بعمق وأن أحلامك ستنطلق فى النوم العميق وستطير روحك ومعها القيثارة التى طالما دافعت عنها فتعزف ألحانك التى لم تعزفها..

أطل فى وجوه الرجال والنساء من قرى وجه بحرى.. أقبلوا ولآلئ الدموع الصادقة تطل من عيونهم يريدون من طائرهم الإنسانى الفريد نظرة. أقول لك ولنفسى وأنا أنظر فى وجوه الناس الذين قدموا لاستقبالك.. وهيئوا لك قبلها أجمل منامة: لم يذهب عطاؤك يا عبد الرحمن الخميسى أدراج الرياح.. فأنت لم تعش يوماً منعزلاً وحيداً.. بل كنت طائراً مرتبطاً بالآخرين

تظللهم وتستظل بهم.. ومن عاش بالناس يا عبد الرحمن لا يرحل وحيداً.. بل يجد القلوب فى انتظاره..

تسيطر عليّ الأيام الأولى التى رأيتك فيها يا عبد الرحمن، وكنت بكلماتك القوة السحرية الدافعة لى على الطريق.. وبعد هذه الأيام الأولى، كم كانت لنا من أيام أنضجتنا فيها نيران التجارب.. حتى الأليمة منها كانت صرخاتك فيها فناً ونغماً.

يحتشد موكب الذكريات.. ليست ذكرياتى وحدى.. أراها فى الندى الذى سيطل عليك من نباتات الحقول غداً فى الصباح.. لتقول لك: حمداً لله على السلامة.. يا طائر الفن والحب.. حمداً لله على السلامة!

أسامة عفيفى ـــ ورحل الخميسى ـــ صحيفة صوت العرب

فجأة رحل.. دون أن يترك كعادته عنواناً.. امتطى صهوة المستحيل.. وألقى بوجده المتعب على قلوب الرفاق.. وأحكم قبضة الكفين على جمر الكلمات.. أخفى فى شغاف القلب قصيدة الشوق إلى حوارى القاهرة ودروب قرى بحرى الضيقة.. لملم أطراف الذكريات الوهاجة.. ألقى تحية المساء على طرقات (الزرقا) وبورسعيد والسويس والمنصورة وشربين وبغداد ودمشق والقاهرة..

نفض جليد الغربة المتراكم على القلب، وألقى بنظرة وداع على فتاة ذكرته عيناها السوداوان بـ الآنسة محاسن، تناهت إلى أسماعه صيحات الشعب تنذر الطغاة من خلف وأمام الأسوار، تزلزل السجن العربى الكبير

مخضبة قمصانهم بالدم.. تتابعت فى الأفق صور المكافحون الذين حفر ملامحهم فى وجدان أجيال عربية عديدة.

أقبلت عليه شهر زاد تقص ألفاً جديدة من لياليها لينفخ فيها من وجدانه روح الثورة، فيقرأها البقالون والكمسارية ومعلمو الأطفال وطلاب المدارس والصرافون والبوابون وعمال المصانع بعد يوم مثقل بالعمل والنكات اللاذعة.. انثنى على القلب الذى أثقلته محطات السفر الكئيبة وأختام الجوازات المتراكمة. انتزع من السويداء أبياتاً رافضة وراح يلصقها على جدران المدن العربية الغارقة فى ظلام حروب الطوائف، ضم معطفه على القلب، أرخى عنان المستحيل، أحكم قبضته على جمر الكلمات... واختفى.. فى جنبات الشرق البعيد.

الشاعر محمود توفيق ـــ رحيل البلبل ـــ الأهرام:

هذا هو النيل فانهل من موارده ... وكفكف الدمع وارحم قلبك العانى
فهذه مصر قد أرخت غدائرها ... واستقبلتك بأشواق وأشجان
تلقى فتاها الذى شاقته فتنتها ... فارسل الروح فى أشواق إنسان
تلقاك فى لوعة العشاق ساكبة ... دمع الجوى بين هطال وهنان
كانت تبثك فوق البعد لهفتها ... اقطف ثمار الهوى من قربها الدانى!
قيثارة الشعر ناحت من فجيعتها ... وربة الفن أجرت دمعها القانى
فمن سواك يفيض الشعر منسكباً ... من قلبه نبع أشواق وألحان !
ومن يرد القوافى بعد غربتها ... ويبعث الروح فى نظم وأوزان
ومن يجوب رياض الفن مجتنياً ... بدائع الروض من ورد وريحان

كأنه البلبل الغريد منطلقاً ... على جناحين من وجد وحرمان

يابلبل الروض ما للروض قد رزحت ... أفنانه تحت أرزاء وأحزان

وما لأزهاره أودى الصقيع بها ... فصوحت فوق أعواد وأغصان

وما لأطياره عن أيكها رحلت ... فاقفر الأيك من شدو وتحنان

كنا وكنت وكان الروض مؤتلقاً ... برائع من بديع الحسن فتان

وكان عشق الهوى والفن يجمعنا ... وليس كالعشق من زاد لفنان..

وفي الجوانح داء لا دواء له ... من حب مصر.. ومن صد وهجران

تقسو علينا ونشقى في محبتها ... نفتديها بقلب العاشق.. الحانى!

من لى بنفحة صفو من محبتنا ... كأنها دفقة من عطر بستان

وبسمة من شغاف القلب قد برئت ... بها المشاعر من زيف وبهتان

ونظرة كشعاع الشمس مشرقة ... على السحاب بأضواء وألوان

وبهجة من حديث لا يماثله ... فى حسنه نظم ياقوت ومرجان

كأنه الجدول الرقراق منسجماً ... أو نشوة الراح فى أعطاف ظمآن

يا صاحبى وعزيز الدمع منسكباً ... والقول ينبع من روحى ووجدانى

بمن أساتك.. لا أهل ولا وطن ... سوى محبيك من صحب وخلان

الباذلين لك الود الجميل وقد ... نأت بك الدار عن أهل وأوطان

والعارفين لك القدر الجميل فإن ... خاذل الدهر لم يرضوا بخذلان

ما خنت عهدك يوماً أو غدرت به ... ولا تخليت عن حبى وعرفانى

فأنت فى القلب شجو لا يبارحه ... وأنت فى القلب أنت النازح الدانى

فؤاد بدوى ـــ زهرة على قبره ـــ صحيفة الجمهورية:

ها هنا الأشجار تبكيك وتذوى..

ها هنا الأشعار تبكيك وتنعى..

ها هنا الأقلام ترثيك وتبكـــى..

فارساً قد مات من أجل الحياة

قلت:

للنيل خذونى

وادفنونى

تحت شجرة فى بلادى

فى مدينة القباب والاغتراب..

زارك الموت الذى يمضى إلى طرف الوجود،

أسكت الصوت الجهورى العريض

أسكت القلب الذى هام حياة ونشيداً ونشيجاً،

أغمض العين السكوب!

تلك كانت قطرات قليلة من ندى المحبين الذى انهمر كالسيل لحظة وداع القديس الذى خرج من مصر أواخر عام ١٩٧٢ فجأة، ليعود إليها فجأة أيضاً، للمرة الأخيرة عام ١٩٨٧ ، دون أن تفارقه هموم بلاده. قطرات مما حفلت به الصحف والمجلات بمجرد الإعلان عن وفاة القديس الذى طلب من أبنائه وهو فى النزع الأخير بمستشفيات الغربة أن يكون مثواه

هناك فى المنصورة تحت شجرة، لأنه يؤمن كما ظل يردد وقتئذ بأنه سيعود عصفوراً ويأوى إلى شجرة يغنى من فوقها!

كانت الأخبار عن تدهور صحة القديس تأتينا تباعاً من موسكو عبر الصديق عبد الملك خليل مراسل الأهرام وآخرين، ولم يكن أحد يتوقع أو يصدق أنها نهاية هذا الرجل الذى عرفناه دوماً قوياً موفور الحيوية والنشاط والصخب، وأن هذه النهاية قد تكون بعيدة عن مصر التى عشقها وضحى من أجلها وأبدع فى هواها أدباً وشعراً وفناً يفوق هيام قيس بليلاه.. كنا نتابع الأخبار ونسأل، لكن الإجابات التى كانت تصلنا عبر التليفون لم تكن تحمل شيئاً يبعث الأمل بشأن رجل عاش حياته كلها يزرع الأمل والثقة فيمن حوله.

فما أن استقبلنا جثمانه فى مطار القاهرة حتى خيل إلىَّ ـ ولعله خيلَ لغيرى ـ أن موته مجرد أكذوبة، أو مقلب من مقالبه المحكمة التى كانت أحياناً تصل به وبأصدقائه أو فرائسه إلى حافة الخطر وهاوية الفراق وما لا يحمد عقباه. وحتى عندما واريناه التراب فى مسقط رأسه بالمنصورة بمحافظة الدقهلية، ظل هذا الخيال يستبد بى قائلاً: سوف ينهض الخميسى قائماً يضحك للمعزين ويعلن على الملأ نهاية اللعبة التى لجأ إليها حتى يعود إلى مصر.

وصدقونى حين أقول إنى لم أذرف دمعة واحدة عليه، حتى أنى لمت نفسى أشد اللوم وأنا فى دهشة من أمرى فى طريق عودتى إلى القاهرة. ولعل مطلع ما كتبته مساء ذلك اليوم لمجلة صباح الخير يفسر ما عجزت عن تفسيره حينذاك لنفسى كتبت:

يكفى أن نتذكر القديس، أو يأتى اسمه عرضاً فى حديث عابر، حتى نتمثله أمامنا فجأة، بقامته السامقة التى وهنت فى أيامه الأخيرة دون أن تنال من حركته النشطة وحضوره الغامر، ببسمته الساحرة الحانية التى كانت تكسو ملامحه الصارمة، بموهبته العملاقة، بفنونه المتعددة، برقته، وصلابته، وجنونه، وشجونه.

وربما لذلك لم أبك عبد الرحمن الخميسى، لأنه كان يكره بكاء الثكالى وفراق الأحباب، فمن كثرة ما أبكته محن الحياة كان يقول لنا وللغرباء الذين كان يدهشهم إصراره على إشاعة المرح والحبور حتى فى أوقات الشدائد: لم يبق فى المآقى من (كوتة) الدموع دمعة

لم أبك الخميسى لأننى لم أصدق، ولا كنت أريد أن أصدق، أنها نهاية العاصفة التى هبت من الريف المصرى فى الأربعينيات، وهزت مصر، إذ كيف يتوقف الشلال عن الهدير العذب ونحن لم نرتو بعد.. وقد طال بنا العطش على أمل اللقاء على أرض مصر.. التى تمرغ القديس فى ترابها، ونام فى مساجدها، وفنادقها الرخيصة، وعلى دكك حدائقها، وأفنى معظم العمر نجماً لامعاً متوهجاً فى لياليها ومنتدياتها، وسكب فكرة وروحه يتغنى بها وجداً وألماً وشعراً وفناً وموسيقى؟ و..

هكذا كانت حياة أستاذنا الفنان المبدع زكريا الحجاوى أيضاً، وتلك كانت نهايته كذلك بعيداً عن مصر التى عبق كل ربع من ربوعها بزفرات حبه ووده وشجنه وعطائه وإبداعاته، ثم أخلف معنا وعد اللقاء على أرضها من جديد، فإذا به يأتينا من غربته ممتطيا الريح فى صندوق، فشيعناه دون أن يكلمنا أو نكلمه.

الموت نسبى على أية حال، وهناك من يموتون فتموت مع الأيام ذكراهم بل ومآثرهم، وتغيب فى حلكة النسيان شخوصهم وصورهم وأصواتهم، ولكن ليس مثل الخميسى والحجاوى وكامل الشناوى وعباس الأسوانى والشيخ عبد الحميد قطامش وأمثالهم من نوادر الرجال وفطاحل الظرفاء النادرين.. ممن لا يزالون يفرضون حضورهم رغم الغياب والرحيل وتوالى السنين..

يرحمهم الله جميعاً بقدر ما أشاعوا فى الحياة من زخم البهجة والسرور الذى كان يبدد الكآبة والإحباط.. وأطعموها نكهة الحديث الحلو المتقد ذكاء وملاحية.. وماتوا جميعاً فقراء، وعندما فض الورثة أوراق التركة والوصية لم يجدوا عقاراً ولا مالاً، وإنما الخالد والثمين من ألوان التجارب الإنسانية والخبرات الثقافية العصامية الشاقة، والمعارف والآداب والفنون المبهرة، وذكريات عزيزة لا تنسى، وآيات من نوادر الظرفاء قل أن يجود الزمان بمثلها من بعدهم و..

إنها لحياة ثرية بكل تجاربه المبهرة، وعطائه الوافر، ونجاحاته، وإخفاقاته، لكأنه عاش أضعاف عمره، أو هكذا أراد عبر سيرة حياته العجيبة، وإبداعاته المتميزة، وإنسانياته الحانية أن يعيش بعد رحيله ألف عام فى ذاكرة أجيال وأجيال، ولعلى أوفيته حقه أو بعضاً منه، أو هكذا حاولت واجتهدت، لكن يظل الدين ثقيلاً فى أعناق تلاميذه ومريديه وغيرهم من الباحثين والنقاد، كى يجمعوا شتات انتاجه الغزير، وإعادة النظر فيه، وتقييمه، وإنصافه.. يرحمه الله وأسفاً على زمانه الجميل!

صور من حياة
عبد الرحمن الخميسى





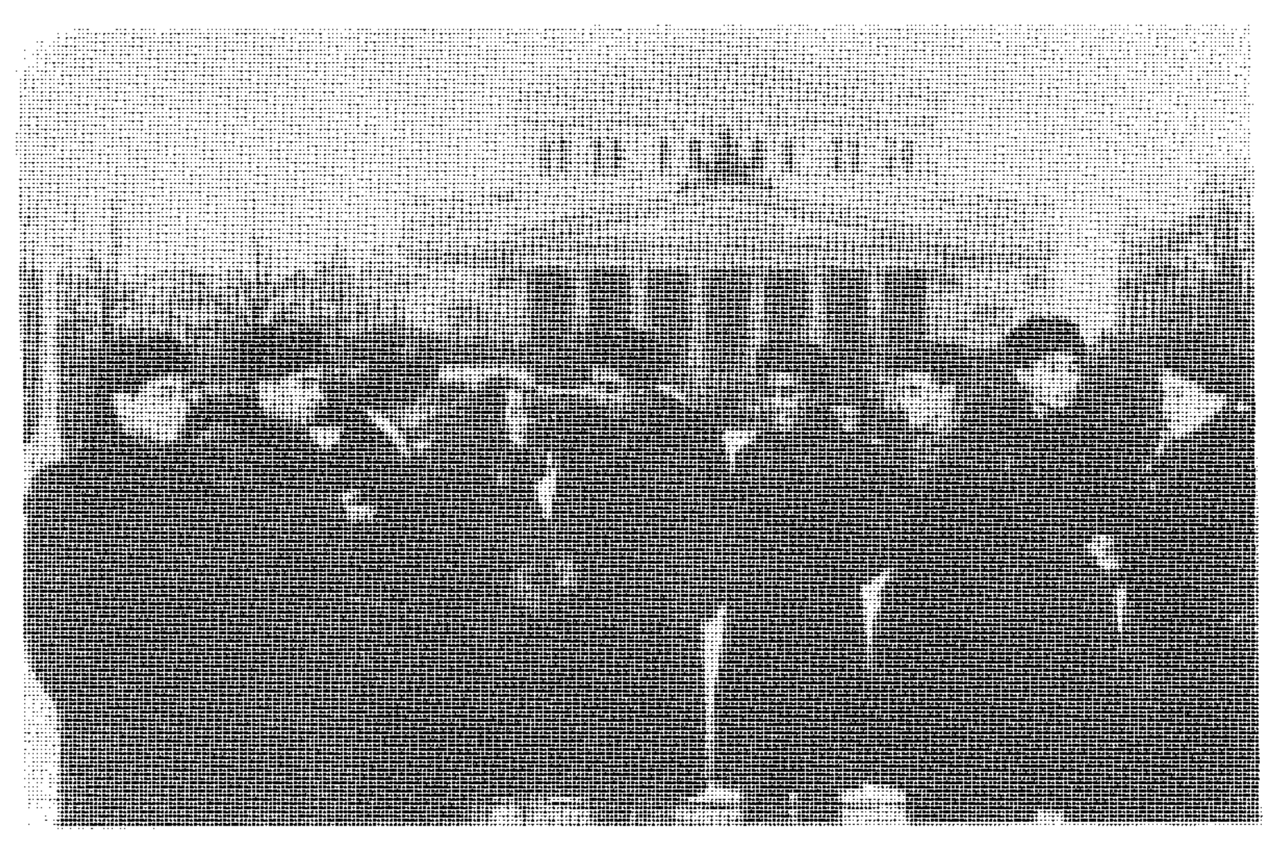
مع زوجته فاتن الشوباشى والكاتب الصحفى محسن محمد وحرمه



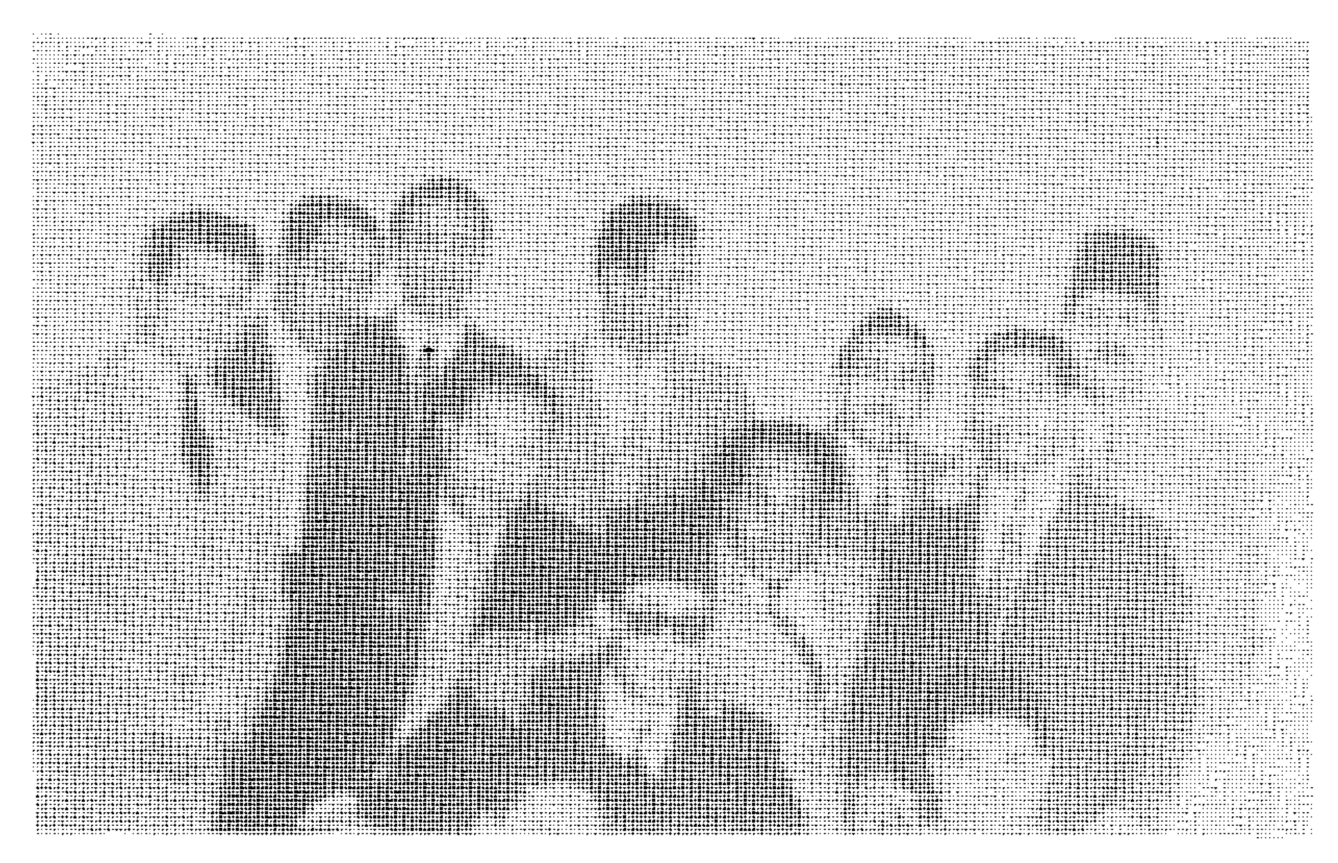
الفنانة أمينة رزق فى مسلسل إذاعى من إخراجه



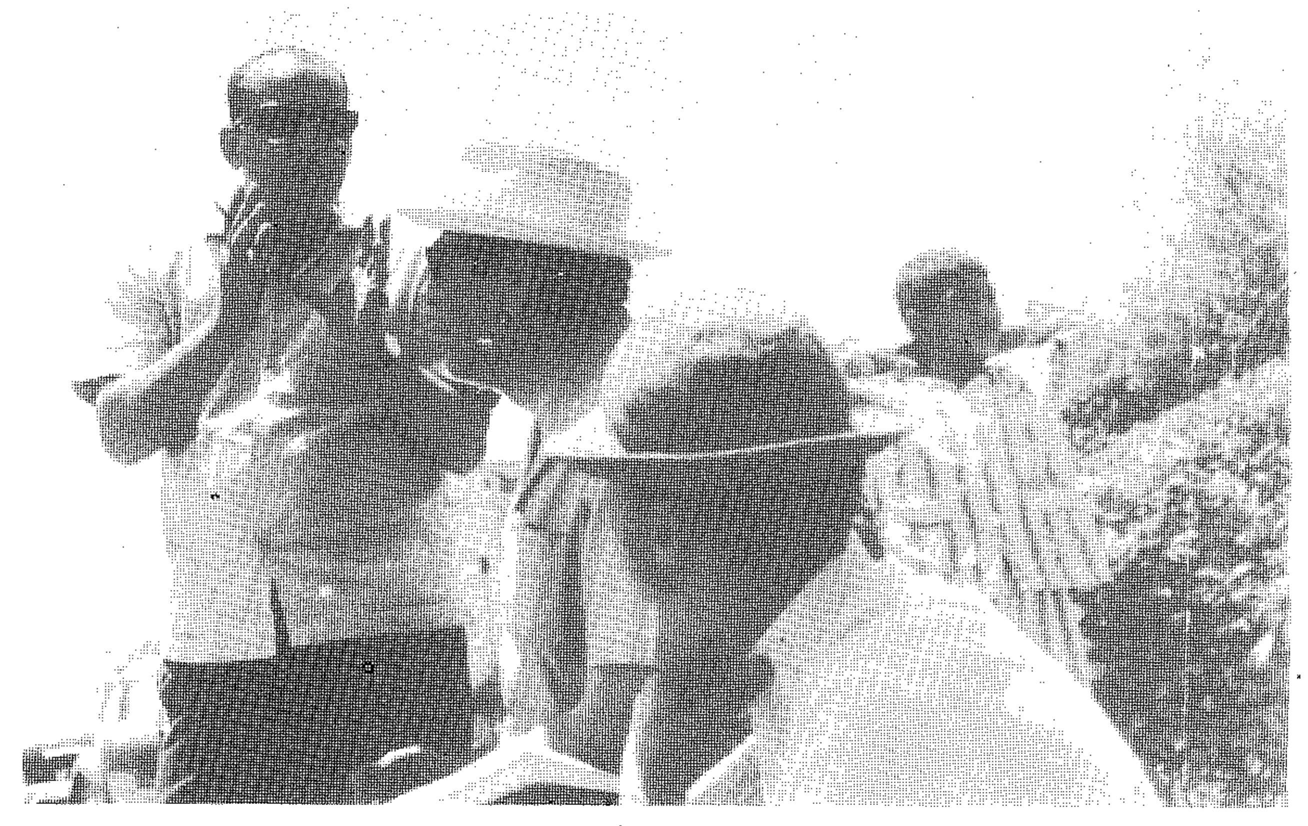
صورة للذكرى: يوم قرر الهجرة إلى الخارج



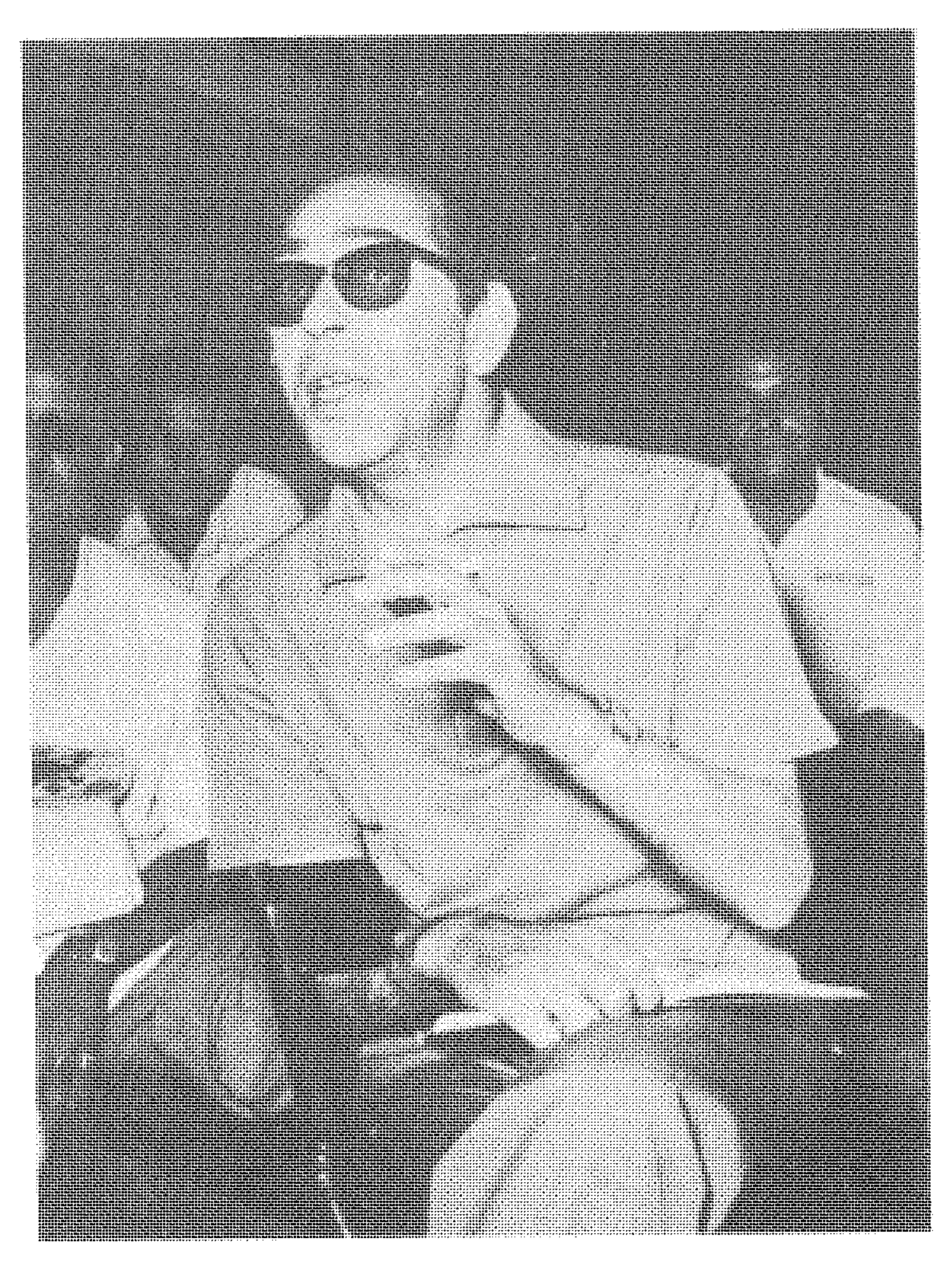
مع الطلبة العرب بموسكو



مع الكاتب الفنان زكريا الحجاوى فى صحيفة المصرى



خلال إخراجه فيلم الجزاء



بروڤة إذاعية



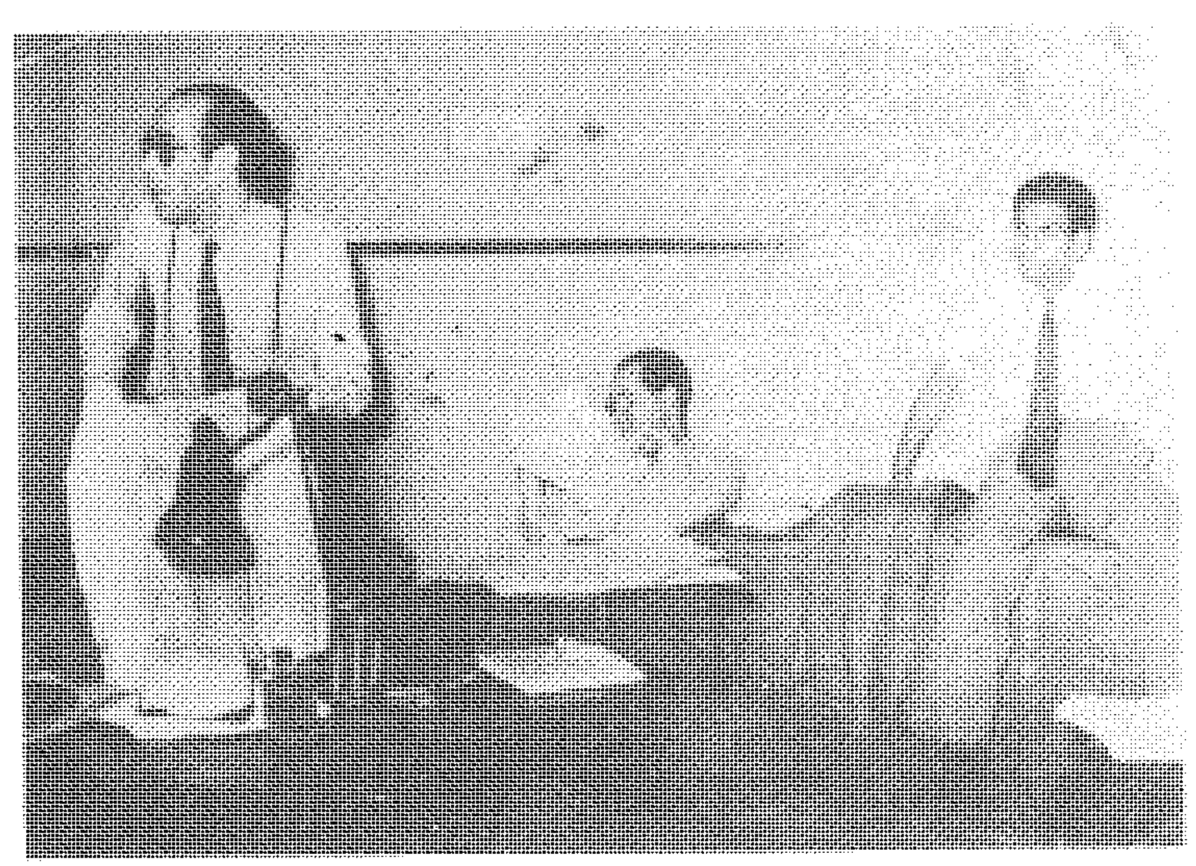
فى استوديو مصر مع ابنه أحمد الخميسى



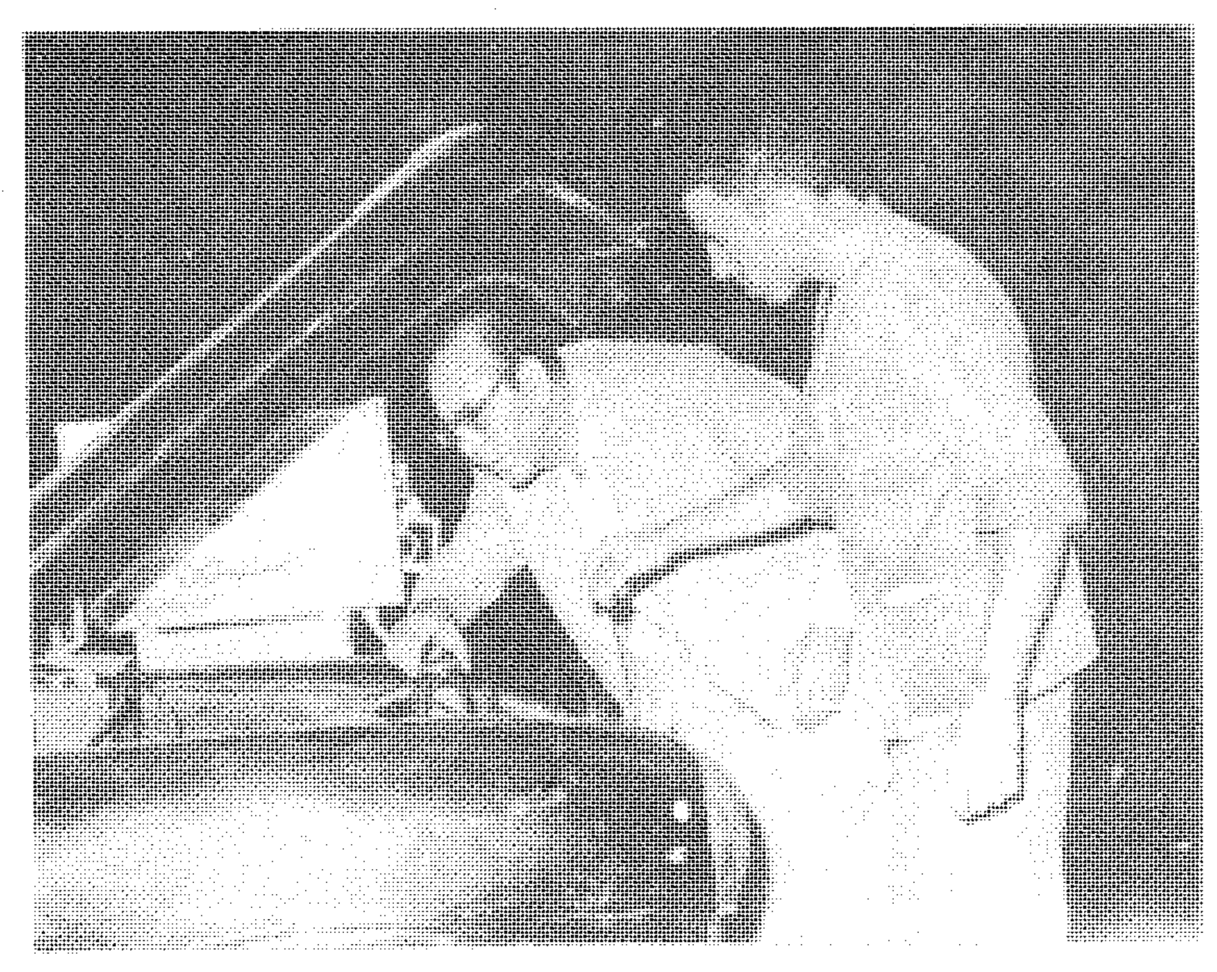
مع الكاتب الصحفى فاروق القاضى قبيل لقائه الشهير مع خروتشوف



محاضرا فى دمشق إبان الوحدة المصرية السورية



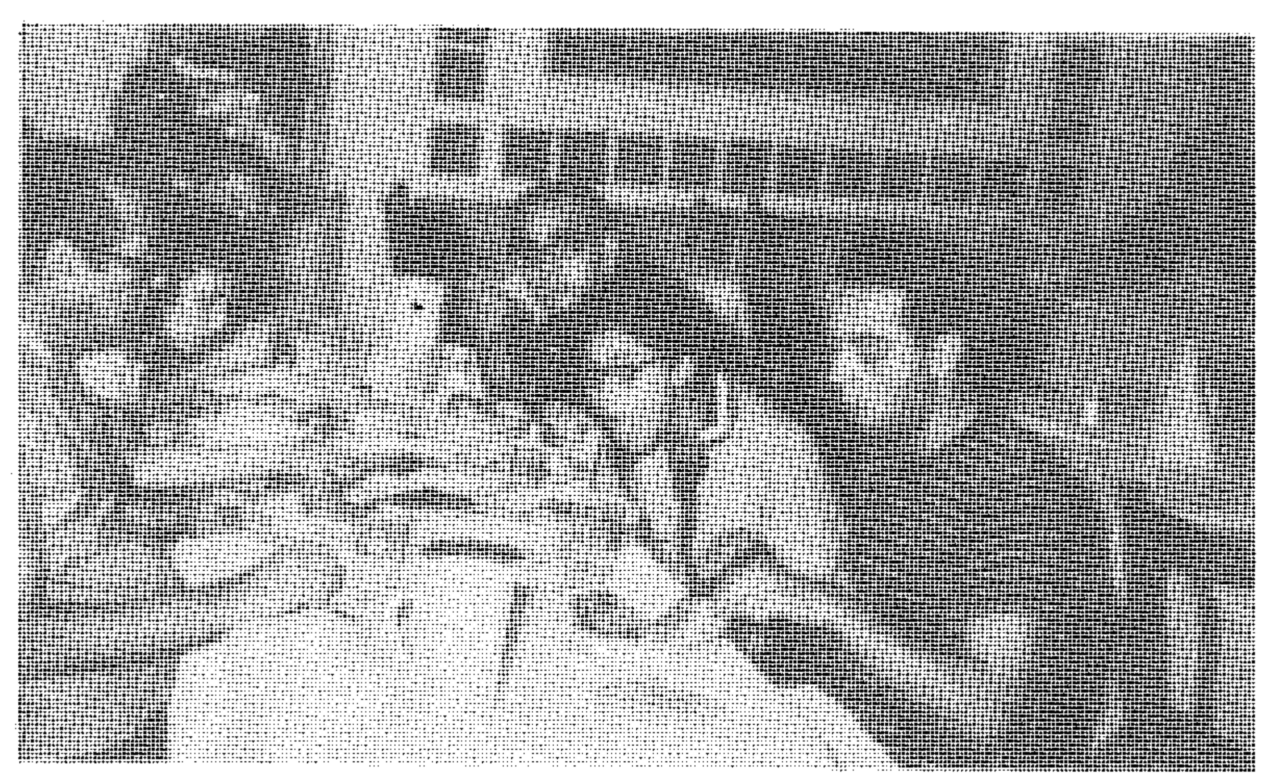
ابان الحرب العالمية الثانية فى إذاعة الشرق الأدنى



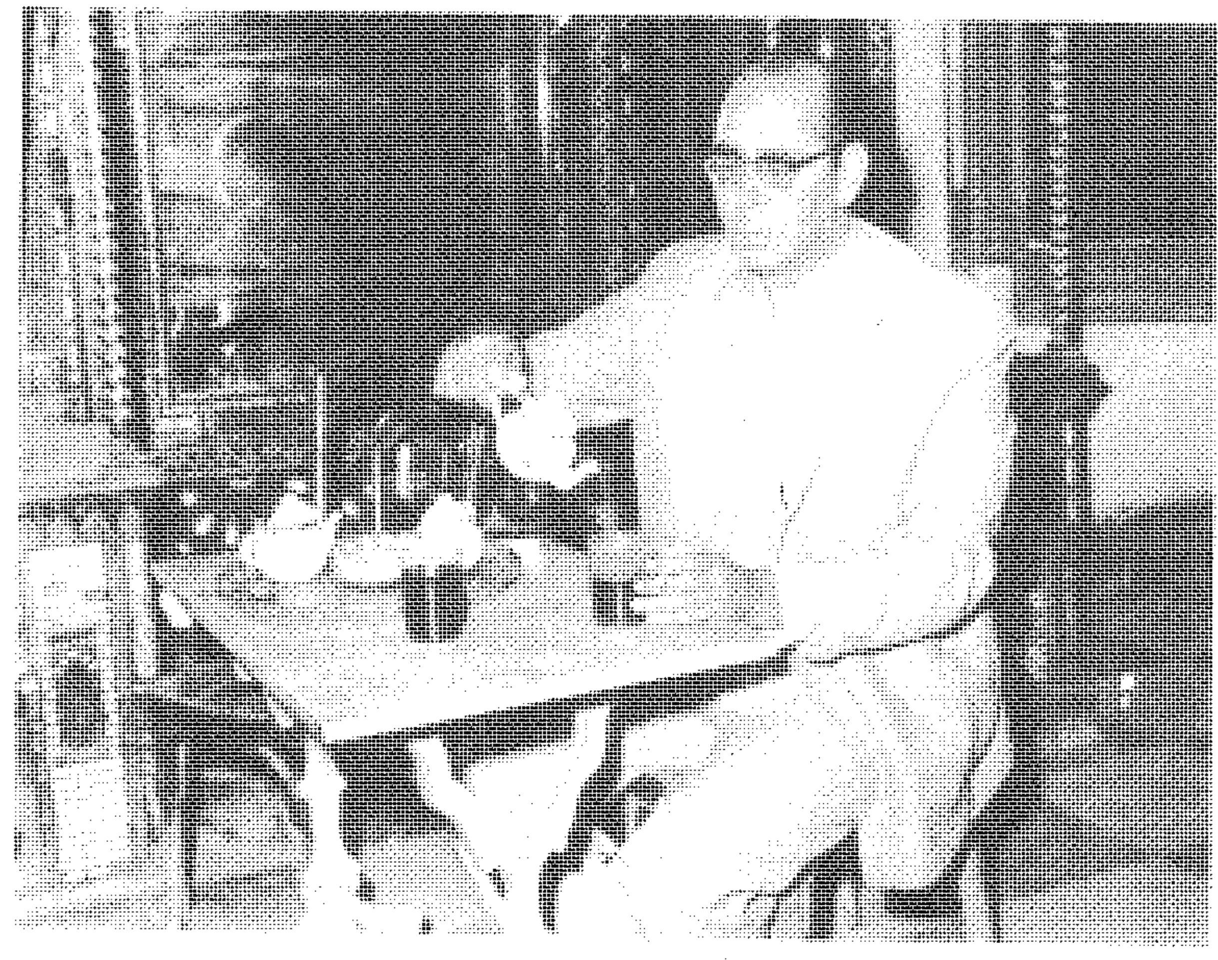
مع «عزيزة» سيارته المشاكسة



يعزف على البيانو



مع بعض أفراد عائلته الكبيرة



مكانة المفضل فى مقهى الفيشاوى العتيد



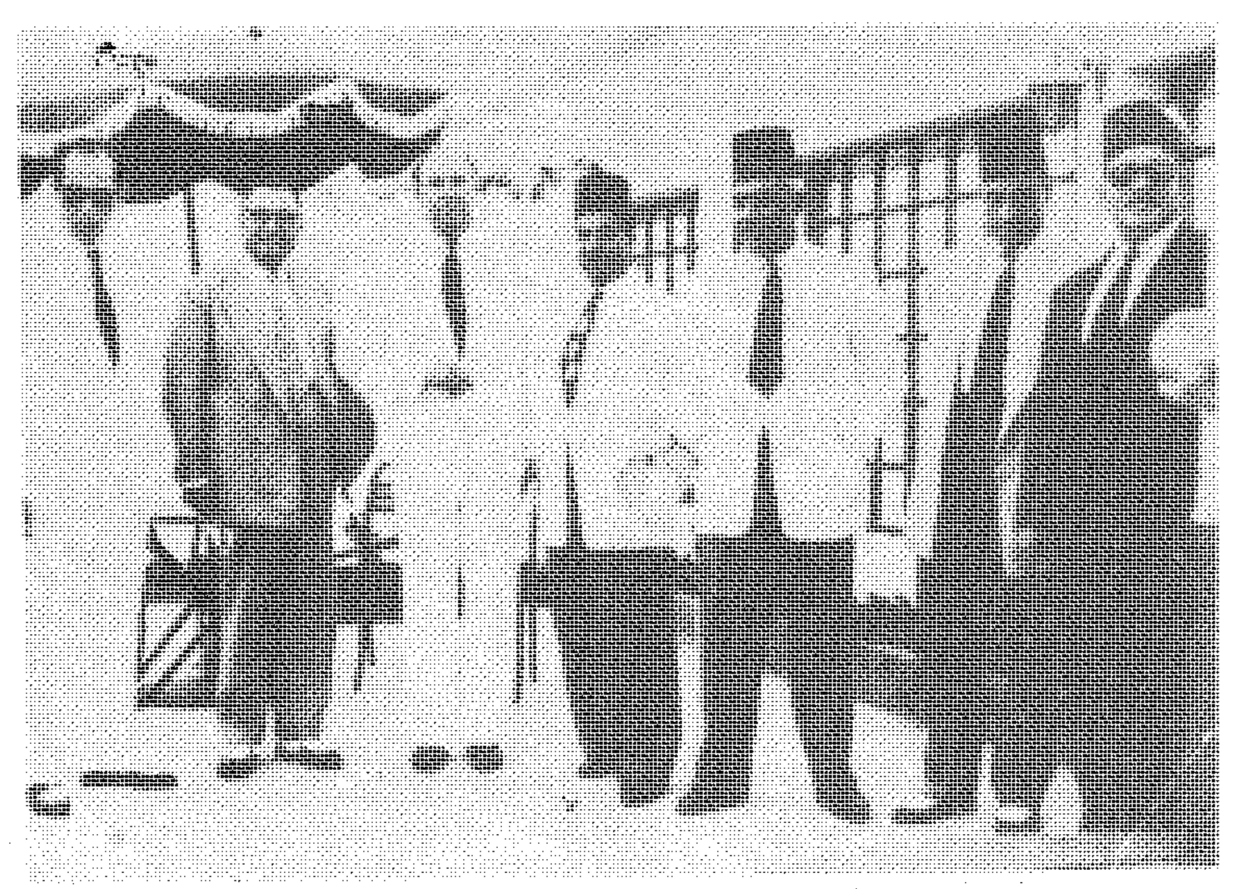
مع جاجارين رائد الفضاء السوفيتى



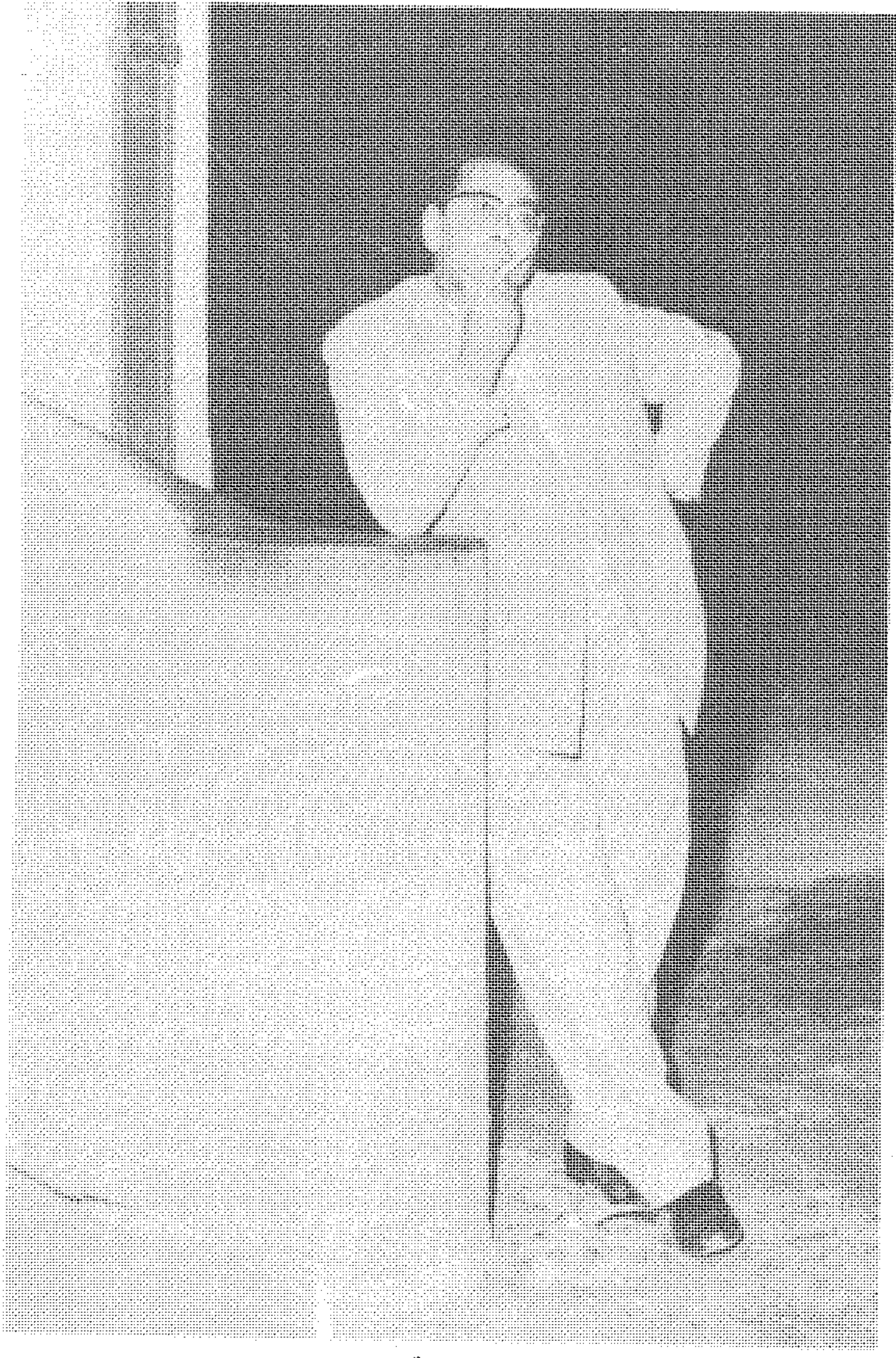
إبان استكماله الدراسة الثانوية بالقاهرة



الخميسى وأحمد مظهر فى فيلم الحب والثمن



فى أول عهده بمجتمع المثقفين بالقاهرة



فى حالة إلهام



محاضرة بمعهد الاستشراق فى أول زيارة لموسكو



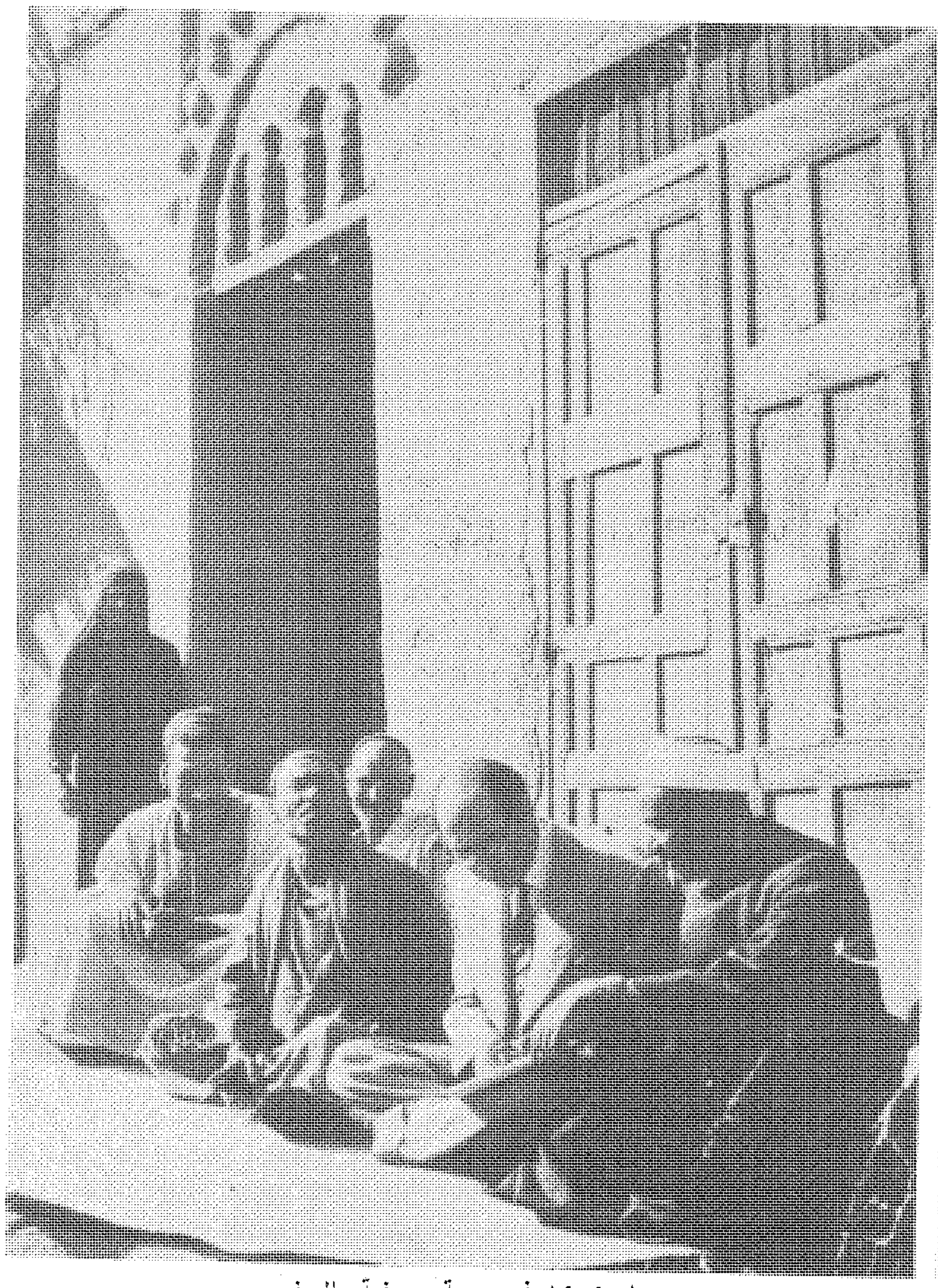
يؤدى دوره فى فيلم الأرض وأمامه الفنان صلاح السعدنى



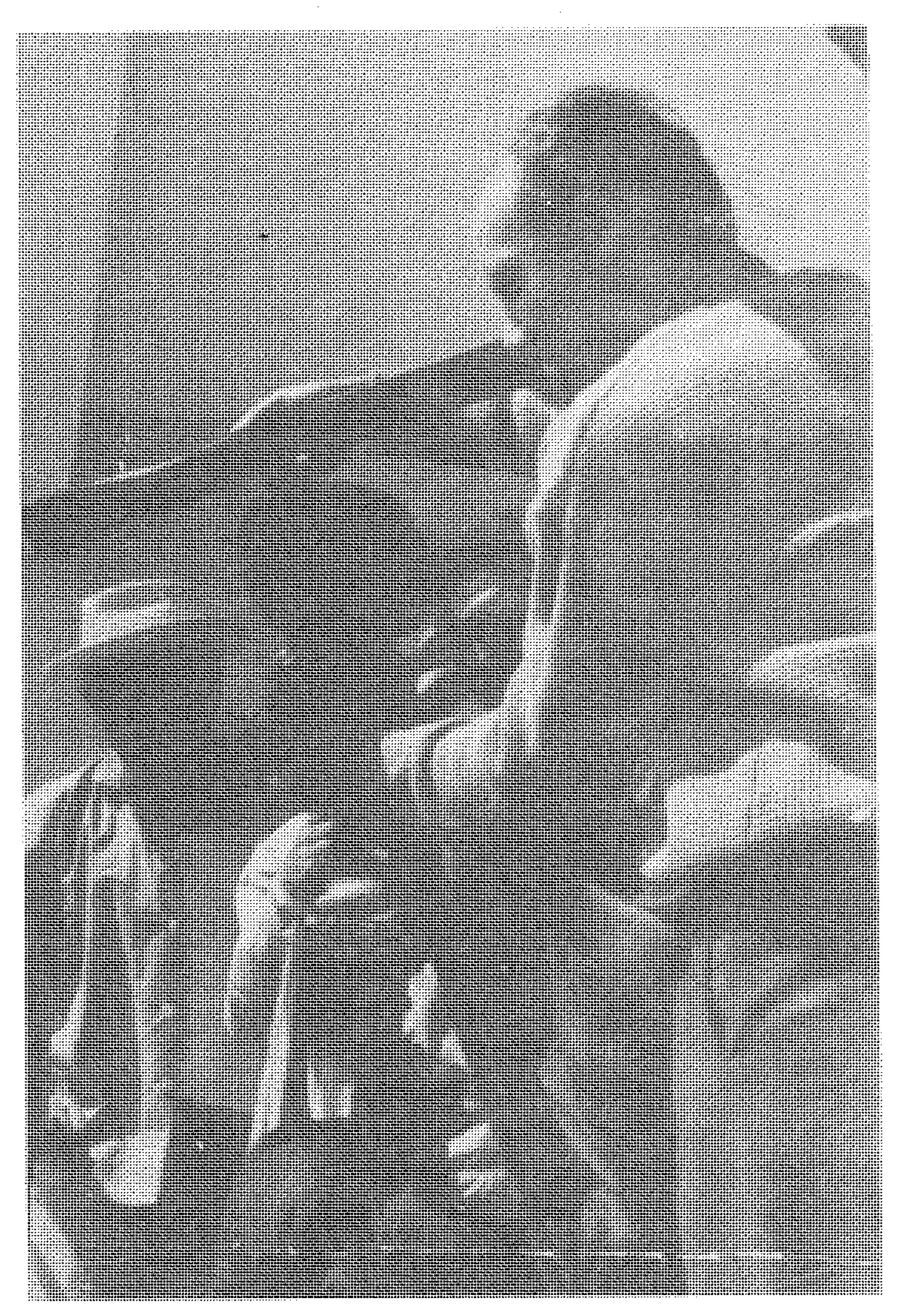
مهن صحفية فى أحد السجون المصرية



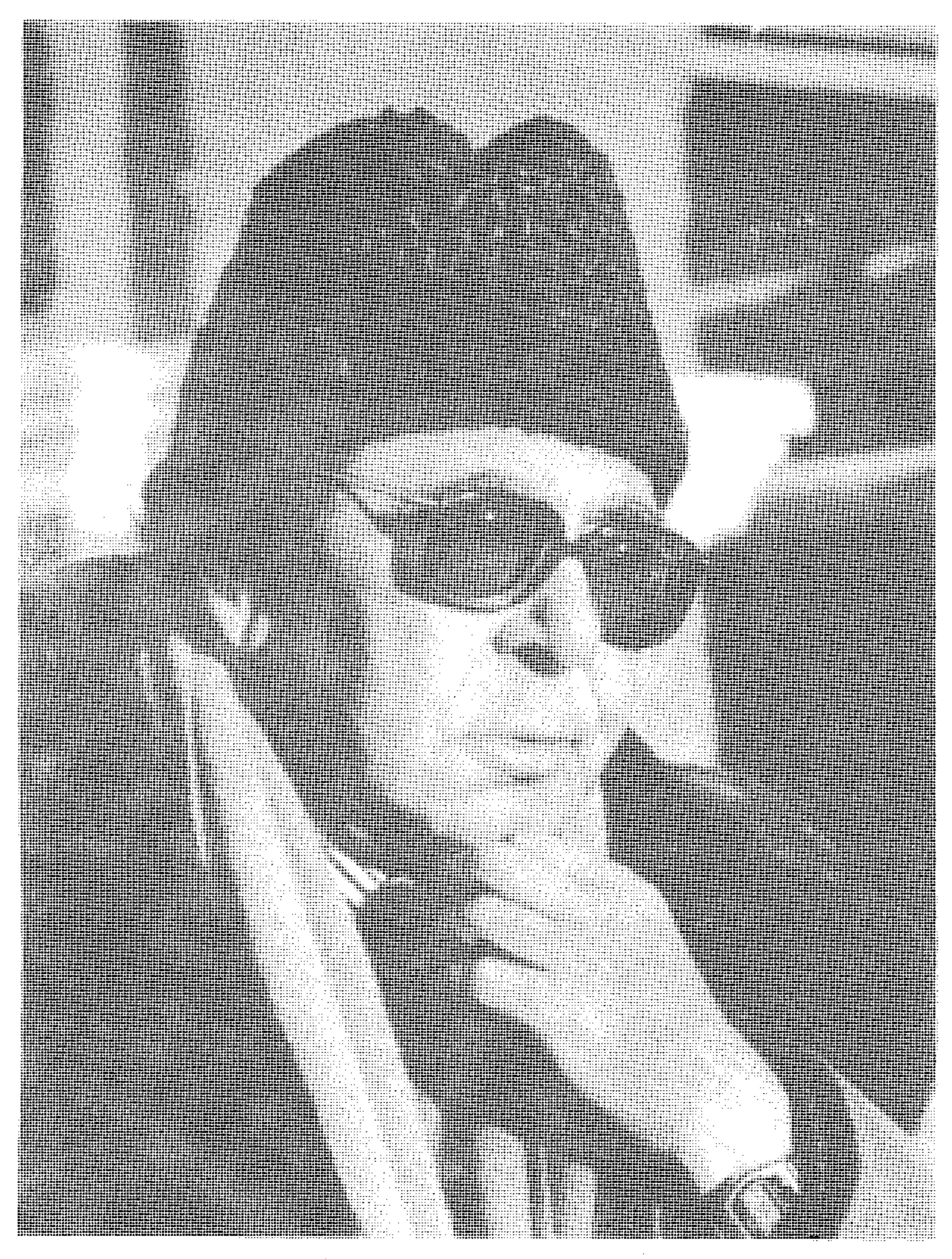
يمثل على المسرح أمام زوجته الفنانة فاتن الشوباشى فى مسرحية «القسط الأخير» من تأليفه وإخراجه



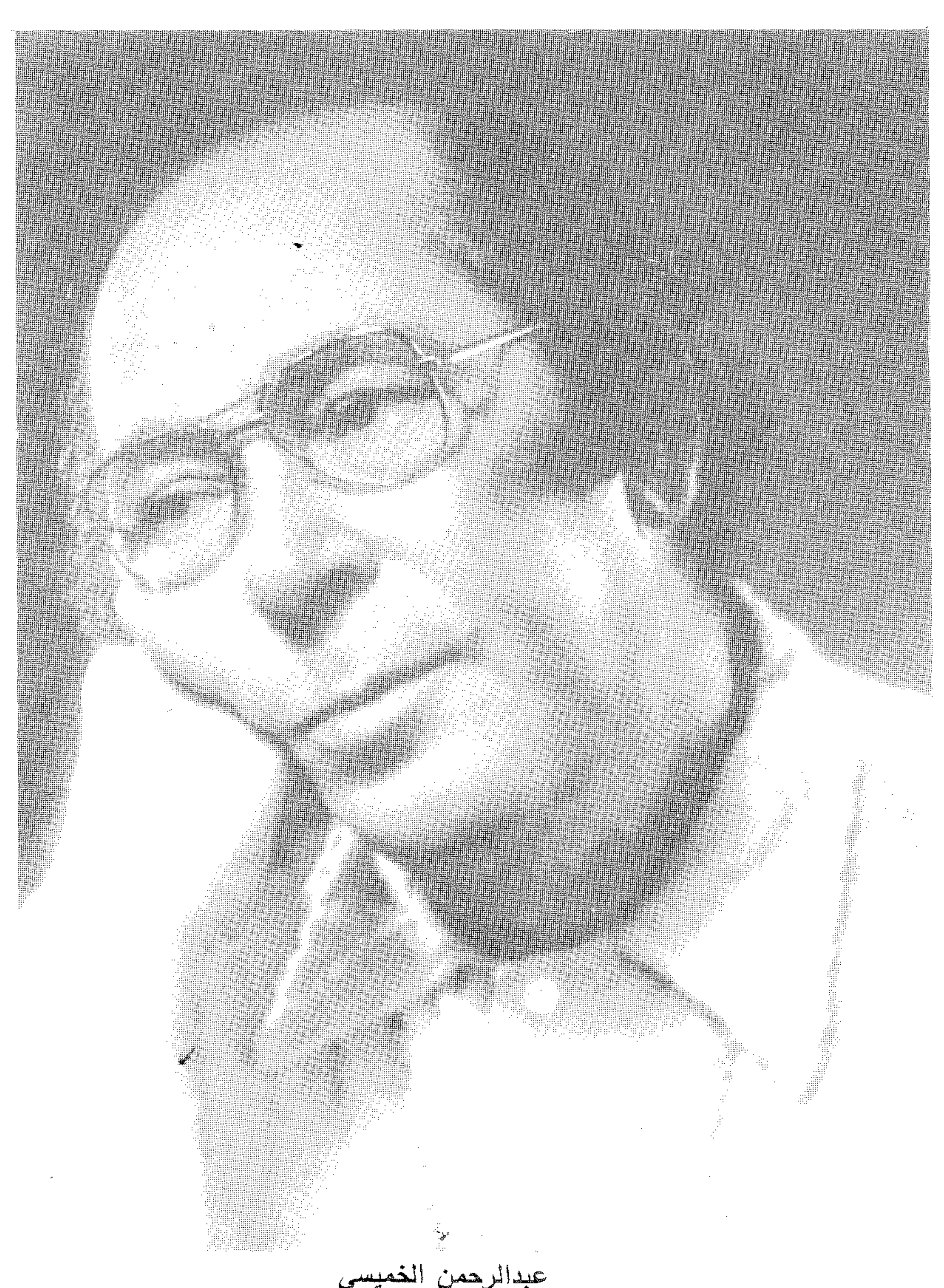
عام ١٩٥٩ فى مهمة صحفية بالريف



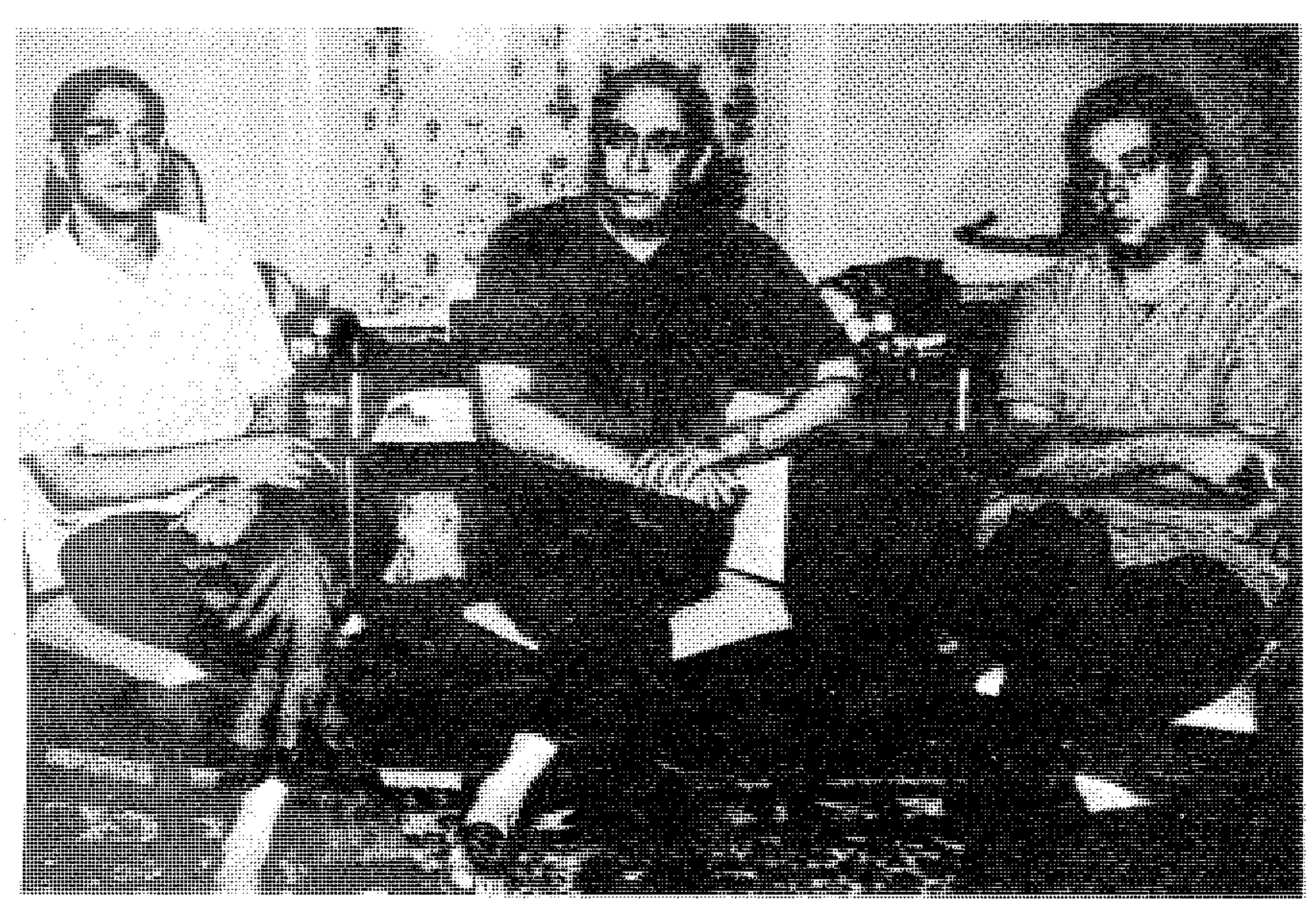
خلال اخراجه فيلم عائلات محترمة



قبيل الرحيل فى موسكو



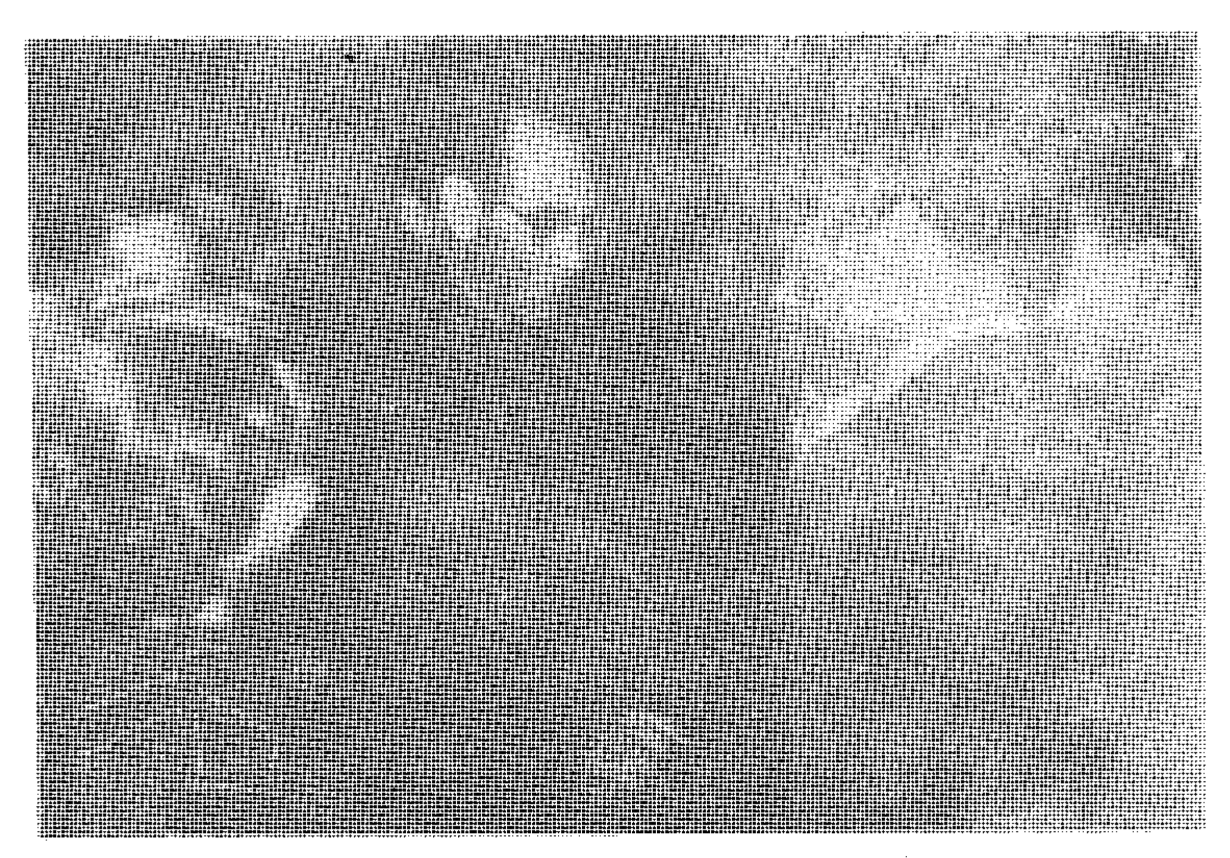
عبدالرحمن الخميسى



مع ابنيه الأديب أحمد الخميسى والسينمائ عبدالملك الخميسى



حفل شاى على شرفه بمدرسة ثانوية للبنات



مع زملائه بصحيفة الجمهورية

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩٤ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7109 - 3

هذا الكتاب

كان الشاعر الفنان عبدالرحمن الخميسى شخصية مثيرة للجدل والتأمل، سواء فى حياته الشخصية كصعلوك نبيل، وظريف مطبوع، ومغامر جسور لا يأبه الأهوال ولا رابع المستحيلات، وسواء كمبدع متميز وافر العطاء فى دروب الشعر والقصة والمقال الصحفى والموسيقى والتلحين، والكتابة للإذاعة والمسرح والسينما، واكتشافه لعشرات الموهوبين وبينهم الفنانة سعاد حسنى والأديب الدكتور يوسف إدريس، فضلاً عن كونه مخرجاً وممثلاً ومحدثاً لا يبارى فى إمتاعه، ومناضلاً عنيداً تعرفه السجون والمعتقلات وعواصم الغربة عن الوطن. و.. من هنا تأتى أهمية هذا الكتاب فى إحاطته بما كان للخميسى من شأن هام ودور بارز ومكانة باقية، وأحسب أن هذه المؤهلات تفرض على التاريخ أن يفسح له مكاناً إلى جوار الفرسان والرواد، كما أن من حقه على الأجيال الجديدة أن تعرفه وتتعرف على ملامح زمانه الجميل وأجوائه الزاخرة!

أما عن المؤلف الكاتب الصحفى الأستاذ يوسف الشريف، فهو صاحب الفضل فى الولوج إلى ساحة القديس الرحبة، بحكم معايشته له سنوات طويلة، رصد خلالها كل صغيرة وكبيرة، وشاردة وواردة فى مراحل حياته العريضة المتقلبة، واستوعب مواقفه ودوافعها ومغزاها، ثم امتلك أخيراً القدرة على صياغتها بمداد الحب والوفاء والأمانة، فلا غرو إذن أن يأتى الكتاب فى إسلوبه الشيق، بانوراما من اللوحات الرائعة الشاهدة عليه وعلى عصره الحافل بالأفراح والأتراح، والتحولات والإنجازات والانكسارات الكبرى!

الناشر

٦٢٥ قرشاً